

معرفة الله

مفتاح تحقيق العبادة

دكتور

حسني البشبيشي

أساس العبادة عبارة عن مشاعر كالحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع والرضا والتوكل، ومعنى العبادة أن يعيش الانسان خاضعا لله بقلبه وجوارحه، ولا تتحقق هذه المشاعر ولا يعيش الانسان خاضعا إلا إذا عرف الخالق والآخرة معرفة حقيقية.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين.

أما بعد:

ـ كل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وسنوات العمر الطويلة ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، وانتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد هو أمر خطير ومثير، ورغم ذلك فالبعض لا تتأثر مشاعرهم ولا همومهم ولا أهدافهم ولا حياتهم إلا بأمور الدنيا، وذلك لأنهم لم ينتبهوا لمدى خطورة الحياة في الآخرة، فهؤلاء جاهلين بالآخرة ليس لأنهم لم يسمعوا عنها أو لأنهم لم يفهموا معناها ولكنه جهل لعدم الانتباه لخطورة الأمر.

ـ وهذا الجهل يؤدي إلى عدم التأثر بالخالق والآخرة فتغيب أعمال العبادة الباطنة كالحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع والرضا والتوكل، وتبقى بعض أعمال العبادة الظاهرة مفتعلة أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية، ويصبح الانسان كالذي لا يدري ما يفعل، وتصبح العبادة لا معنى لها.

ـ العبادة هي أن يعيش الانسان خاضعا لله بقلبه وجوارحه، ولكن لماذا يختار الإنسان أن يعيش حياته خاضعا؟؛ إذا عرف الإنسان الخالق والآخرة معرفة حقيقية (مع وجود اليقين) تحقق في قلبه حبا وخوفا

ورجاء شديدا جعله يعيش خاضعا لله تعظيما له (حبا في عظمته) وخوفا ورجاء، ومن هنا تعرف العلاقة بين معرفة الله والعبادة، فالعبادة هي أثر لمعرفة الله تعالى.

ـ فالإنسان لا يقبل أن يعيش خاضعا إلا إذا كان لديه الدافع إلى الخضوع وهو شدة الحب والخوف والرجاء للخالق، ولن يتحقق هذا الدافع إلا إذا عرف الإنسان الخالق معرفة حقيقية.

ـ والمانع من تحقيق العبادة هو غفلة الانسان عما يوقن به، فهو يوقن بالخالق والآخرة ونزول كلام الخالق للناس على رسله ويوقن بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك لا يحقق العبادة لأنه غافل عن خطورة ما يوقن به، وبالتالي لا يتحقق الحب والخوف والرجاء الذي هو أساس العبادة والدافع إليها وبالتالي لا تتحقق العبادة.

ـ فالطريق الوحيد لتحقيق العبادة هو تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة مع وجود اليقين بالله والآخرة والرسل لأن معرفة أسماء الله وصفاته ومعرفة أوامر الله نعرفها من الرسل.

ـ لا قوي بحق إلا الله وكل ما سوى الله ضعيف، والعلاقة بين الضعيف والقوى هي الخضوع، فمعرفة الله تؤدي إلى معرفة الانسان بضعفه وبالتالي يخضع لله تعظيما لله (حبا في عظمته) وخوفا ورجاءً، وهذا الخضوع هو العبادة ويتمثل في أربعة نواحي هي الخضوع في طريقة المعيشة والخضوع بالقلب والخضوع بالجوارح والخضوع باللسان.

ـ العبادة هي أعمال باطنة وظاهرة المقصود منها تحقيق معنى الخضوع، وأساس العبادة هو الحب والخوف والرجاء، وبسبب الغفلة عن الله غاب أساس العبادة وضاع المعنى المقصود من العبادة وغابت

اعمال العبادة الباطنة وبقيت بعض أعمال ظاهرة مفتعلة أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية، فأصبح الانسان كالذي لا يدري ما يفعل.

******

ـ الطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن نظرة الانسان للأشياء تتغير فيرى الأشياء على حقيقتها وبالتالي يرى عظمة الخالق وخطورة الآخرة ويرى ضعف نفسه وضآلة الدنيا وبالتالي تتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالله والآخرة ولا تتعلق بالدنيا وتتغير حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ لكن لأننا نعيش في زمن الغفلة فالكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة (مع وجود اليقين) هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة، فهذه المعلومة البسيطة مات معناها، وأصبحت الغفلة هي الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الكثير فإذا جاء أحد ليقول لهم تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!

ـ لو قيل لرجل أن هناك أسد يقترب منه ولكنه لم تتأثر مشاعره فيخاف

ولم تتأثر جوارحه فيجري ويهرب فكيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ـ والاجابة أنه من المستحيل أن يعلم الانسان بأمر خطير ثم لا تتأثر مشاعره وجوارحه، وهو في حقيقة أمره بين أمرين لا ثالث لهما هما إما أنه غير مقتنع بالأمر أو أنه لم يعلم بالأمر فهو جاهل به، والجهل بالأمر نوعين:

١ـ الجهل لأنه لم يسمع عن الأمر أصلا أو لم يفهم معناه، وهو جهل يزول بمجرد السماع والفهم.

٢ـ أو الجهل بسبب غياب الانتباه وهو الغفلة، وهو جهل لا يزول بالسماع والفهم لأن سببه عدم الانتباه وليس السماع والفهم، فهو عندئذ غافل غير منتبه لخطورة معنى أنه أسد.

ـ وهذا هو السبب الذي يمنع الكثير من الناس من التأثر بالغيبيات، لأن أكثر الناس مقتنعون بالخالق والآخرة والرسل وسمعوا عن ذلك ويفهمون معنى ذلك، لكن بعضهم جاهل بالأمر بسبب عدم الانتباه (الغفلة)، لذلك فموضوع الكتاب هو شرح لمعنى الجهل بسبب عدم الانتباه (الغفلة) وكيفية معالجته.

ـ غياب معرفة الله معناه الجهل بالله، لكن البعض يحسب أن الجهل بالله مسألة مجازية لأنه لا أحد يجهل الله، وسبب هذه المشكلة هو أن هناك مفهوما خاطئا عن معنى الجهل بالشيء، فالكثير يحسب أن معناه عدم السماع أو عدم الفهم لهذا الشيء ولكن هناك سبب ثالث للجهل وهو عدم الانتباه لخطورة ذلك الأمر، وهذا معناه أنك مهما سمعت عن الأمر وفهمت معناه فأنت لا تزال جاهلا به طالما أنك لا تزال لم تنتبه له.

ـ فالإنسان يكون جاهلا بالأمر إذا لم يسمع عنه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عن الأمر ولكن لم يفهم معناه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عنه وفهمه ولكن لم ينتبه لخطورته، فالجاهل بالله والآخرة هو سمع وفهم ولكن لم ينتبه، وهذا النوع الثالث من الجهل وهو الغفلة.

ـ إذن مهما حدثتك عن معلومات هائلة عن الخالق وعن الآخرة وأفهمتك المعاني فأنت لا تزال جاهل بالله والآخرة طالما أنك لا تزال لم تنتبه لخطورة الأمر، وإذا تحقق هذا الانتباه فهنا فقط تحققت المعرفة

الحقيقية بالله والآخرة.

******

ـ إذن هناك نوع من الجهل اسمه (الجهل لعدم الانتباه) وهو ما ورد في الشرع تحت اسم (الغفلة)، لذلك اهتم القرآن بمسألة الغفلة وخطورتها وعلاجها.

ـ الغافل عن الله والآخرة هو لا يزال لا يعرف أن له خالقا وأن هناك آخرة رغم أنه قد يكون على يقين تام بالله والآخرة، والغفلة عن الله والآخرة هي جهل متعمد لا عذر فيه.

ـ أخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أن هذه الحياة التي كان يعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، ويكتشف أنه كان غافلًا، ففي هذا الكتاب نبين حقيقة الغفلة التي يعيشها أهل الدنيا ونبين خطرها وكيفية النجاة منها.

ـ الغفلة معناها أن هناك رجلا يبحث عن شيء ما، ثم بعد فترة نسي ما يبحث عنه، ولكنه استمر في البحث لأنه وجد آخرين مثله يبحثون وهم أيضا نسوا ما يبحثون عنه، فأصبحت عملية البحث نفسه هي الهدف، فهذا هو حال الغافل نسي المغزى والمعنى والهدف المقصود من الدين والعبادة، فالمعنى مات والروح ماتت والظاهر موجود، لذلك فهذا الكتاب هو إحياء للمغزى والمعنى والهدف المقصود من الدين والعبادة.

ـ كلمات (العبادة) و(الخالق) و(الآخرة) و(الجنة) و(النار) موجودة عند الغافل لكن مات معناها فأصبحت كأنه لم يسمع عنها أو كأنه لا يفهم معناها أو كأنه لا يوقن بها أو كأن تلك الكلمات شيء تافه غير مؤثر أو كأن تلك الأشياء غير موجودة أصلا.

ـ فالمشكلة أن المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة لا تزال لم تتحقق عند البعض!، فرغم أن كل الناس يعلمون أن لهم خالقا وأنهم ذاهبون الى الآخرة وأن الله أرسل لهم الرسل لكن حال البعض يقول أنهم لا يعلمون شيئا من ذلك فهذه المعلومة البسيطة مات معناها، وأصبحت الغفلة هي الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الكثير فإذا جاء أحد ليقول لهم تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!

ـ فنحن لا نتكلم في هذا الكتاب عن معلومات عويصة في الدين ولكننا فقط نتكلم عن أبسط معلومة في الدين وهي أن لنا خالقا وأن هناك آخرة بالإضافة، ونتحدث عن الخالق والآخرة بغرض تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة وليس بغرض مزيد من المعلومات للسماع والفهم.

ـ لذلك أنصح بقراءة هذا الكتاب مرات كثيرة والقراءة والسماع عن كل من يتحدث عن الله والآخرة بغرض تحقيق المعرفة الحقيقية، وكذلك أنصح الخطباء بكثرة الحديث عن الله والآخرة بطريقة تؤدي إلى الخروج من الغفلة عن الله والآخرة (تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة).

******

ـ الانسان له وظائف باطنة ووظائف ظاهرة، الوظائف الباطنة هي وظائف العقل والقلب وهي التفكير والانتباه والهموم والاهداف والمشاعر واليقين، والوظائف الظاهرة هي مبدأ العمل وعمل الجوارح.

ـ الدين يشمل كل وظائف الانسان، والموجود منها فقط عند البعض هو اليقين وبعض أعمال الجوارح وقول الشهادتين وباقي الوظائف غير موجودة، وهذا معناه أن البعض يحتاج الى عقل وقلب جديدين ويحتاج إلى إعادة ضبط المبدأ الذي تعمل به جوارحه وإعادة ضبط سلوكه وتصرفاته، أي نحتاج إلى تكوين انسان جديد تماما.

ـ فالكثير يحتاج إلى إعادة ضبط طريقة التفكير ليكون تفكيره سليم لكي يستخدم عقله في التذكر لحقائق الأشياء، ووظيفة الانتباه لحقيقة الأشياء غائبة فنظرة الانسان الى الأشياء خاطئة، ووظيفة الهم معطلة فينشغل الهم بالأمور التافهة ولا ينشغل بالأمور الهامة، والأهداف تكون لأمور الدنيا الفانية، والمشاعر تتعلق بالدنيا ولا تتعلق بالله والآخرة، ومبدأ العمل ينبني على أساس الحرية والغرور بالنفس وليس على أساس الخضوع وبعض العمل غائب.

ـ في هذا الكتاب نعيد ضبط وظائف العقل والقلب (ما عدا اليقين على اعتبار أنه موجود) ونعيد ضبط مبدأ عمل الجوارح ونعيد ضبط سلوك الانسان وطبيعة تصرفاته وانفعالاته وفرحه وحزنه وغضبه وأخلاقه وكلامه ونيته.

ـ هذا الكتاب يتحدث عن هذه الوظائف الغائبة وكيفية تحقيقها.

ـ أهم وظائف الانسان هي المشاعر وهي الحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع وهي من شروط الايمان، والمشكلة أن الانسان قد يحسب أن هذه المشاعر متحققة والحقيقة أنها ليس لها وجود.

ـ جميع وظائف الانسان تتحقق تلقائيا بتحقيق وظيفة واحدة فقط هي الانتباه (مع وجود اليقين)، والانتباه معناه الانتقال من الغفلة الى المعرفة الحقيقية، والوسيلة التي تستخدم للوصول الى الانتباه هي التذكر والاستمرار عليه.

ـ هذه الوظائف تنقسم الى قسمين، القسم الأول هو العلاقة بين الخالق والعبد وتشمل المشاعر والهموم والاهداف ومبدأ العمل وعمل الجوارح، والقسم الثاني هو الطريق الى إيجاد هذه العلاقة بين الخالق والعبد وهي التذكر والانتباه واليقين.

ـ قد يحسب الإنسان أنه يعرف الله ويحبه ويخافه ويرجوه ويشعر

بالخضوع له ويحسب أن هدفه رضا الله والجنة والحقيقة أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب ولا يخاف ولا يرجو غيرها ولا هدف له غيرها ، كما يحسب أنه يعبد الله وهو لم يحقق معنى العبادة وهو الخضوع ولم يحقق أساس العبادة وهو الحب والخوف والرجاء ولم يحقق أعمال العبادة الباطنة كالشعور بالخضوع والرضا والتوكل وتبقى بعض أعمال ظاهرة مفتعلة أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية، فيصبح الانسان كالذي لا يدري ما يفعل، بل إنه لا يعرف المعني الصحيح لمعنى لا إله إلا الله ومفهوم العبادة ومفهوم الغفلة ومفهوم الهداية ومفهوم معرفة الله ومفهوم الجهل بالله، ففي هذا الكتاب نبين لك حقيقة هذه الأمور، كما نبين لك الطريق الوحيد الذي تتحقق به العبادة وتدخل به الجنة، لذلك فهذا هو أخطر كتاب يمكن أن تقرأه في حياتك.

ـ الغفلة لها معاني مختلفة كثيرة، نحن هنا في هذا الكتاب نتحدث عن الغفلة عن الله والآخرة التي تمنع تحقيق مشاعر الايمان الأربعة وهي الحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع والتي يستحيل تحقيق هذه المشاعر الأربعة إلا بزوالها، فالغفلة التي نقصدها هي المعنى الوارد في الآيات التالية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] [النحل: ١٠٨] ، ونقصد بمعرفة الله أي عدم الغفلة عن الله ، فالمعرفة بالله عكس الغفلة عن الله، أي أن معرفة الله التي نقصدها هي الطريق الوحيد (مع وجود اليقين) لتحقيق هذه المشاعر الأربعة، والتي بدونها لا تتحقق هذه المشاعر الأربعة.

ـ هذا الكتاب هو بحث منهجي في إطار القرآن والسنة، والمادة العلمية في هذا الكتاب مستقاة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة المحققة

ومن خلال كتب التفسير وأقوال العلماء والسلف الصالح وأمهات كتب التراث، وجميع ذلك محقق وفي شكل منهجي ذو عناصر محددة واضحة وفي إطار منهج أهل السنة والجماعة.

ـ ونظرًا لخطورة القضية التي يعرضها الكتاب فقد استخدمنا أسلوب الشرح المبسط الواضح بعناصر محددة وتكرار شرح المعنى الواحد بأكثر من صيغة لمزيد من الإيضاح، وكل قضية نذكرها في الكتاب نذكر الأدلة القاطعة عليها من القرآن والسنة الصحيحة وكتب التفسير وأقوال العلماء.

والله المستعان وعليه التكلان.

*****

الفصل الأول

مفهوم العبادة (مفهوم الخضوع)

ـ لماذا نعيش؟: نحن نعيش من أجل عبادة الله تعالى، ولماذا نعبد الله؟: نعبد الله تعظيما له (حبا في عظمته) وخوفا من عقابه ورجاء في ثوابه، ولماذا نحبه ونخافه ونرجوه؟: إذا عرفنا الله وعرفنا الآخرة معرفة حقيقية (مع وجود اليقين) تحقق في قلوبنا حبا وخوفا ورجاء شديدا جعلنا نعيش لعبادته.

ـ فالطريق الوحيد لتحقيق العبادة هو تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة مع وجود اليقين بالله والآخرة والرسل لأن معرفة أسماء الله وصفاته ومعرفة أوامر الله نعرفها من الرسل.

ـ فإذا عرفت الله عبدته، ولا تتحقق العبادة حتى تعرف الله تعالى،

وطالما أن الانسان ما زال غافلا عن الله فلا تزال العبادة لم تتحقق بعد، والطريق الوحيد لتحقيق العبادة هو زوال الغفلة عن الله تعالى (مع وجود اليقين)، ومن هنا تعرف العلاقة بين الغفلة عن الله (غياب معرفة الله) وبين تحقيق العبادة، فمن هنا تعرف كيف تنشأ العبادة من معرفة الله تعالى.

ـ تصحح المفهوم الخاطئ عن معنى القوي والضعيف:

ـ لكي نفهم معنى العبادة يجب أولا أن نصحح المفهوم الخاطئ عن معنى القوي والضعيف، فعندما نتحدث عن القوي والضعيف يحسب البعض أننا نتحدث عن الظالم والمظلوم لذلك تجدهم يقفون مع الضعيف ويحبونه ضد القوي ويكرهونه.

ـ الذي يظلم يفعل ذلك لأنه لديه احتياج لأمر ما يستمده من غيره، وهذه صفة ضعف ونقص، فالقوي بحق ليس لديه احتياج أو نقص ليظلم غيره، بل إنه من صفات القوة أن يعين القوي الضعيف، فالقوي محمود ومحبوب دائما.

ـ وصفات الضعف والنقص هي صفات بغيضة مكروهة، فمثلا عندما تنظر الى إنسان أعمى أو فيه عاهة ما أو غبي أو جاهل فإنك تشمئز عندما تراه أو تتعامل معه، بينما لو سمعت عن رجل حقق رقما قياسيا في لعبة ما أو حاز على جائزة ما أو تفوق في أمر لا يستطيعه أكثر الناس فإنك تحبه وتسعد بلقائه.

ـ الناس كلهم ضعفاء لأن ما عندهم من قوة إنما هو عطاء من الله لهم، فالقوة ليست نابعة من أنفسهم ولا هم أوجدوها لأنفسهم، والضعف صفة ذم، والقوة صفة مدح.

ـ الناس كلهم فقراء لأن ما عندهم من مال هو مال الله، والفقر صفة ذم والغنى صفة مدح.

ـ صفات الضعف والنقص كلها عند الانسان، فالأصل أن الانسان أعمى لا يرى وما عنده من عين إنما هي ملك لله وليست ملكا له وليس هو الذي أوجدها لنفسه وإنما هي أمانة يستردها الله منه، وهكذا في كل النعم، بل إننا إذا أخذنا جميع النعم من الانسان أصبح لا شيء.

ـ فصفات الله سبحانه تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمته، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة، ففي تاج العروس: ﴿أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ، يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلْبُه إلى أَحَدٍ﴾[1].

ـ هناك فرق بين القدرة والقدر، فالقدرة مثل القدرة على السمع والقدرة على البصر والقدرة على عمل الأشياء، أما القدر فمعناه المكانة والعظمة، فمن كان له قدرة كبيرة كان له قدر كبير ومكانة كبيرة وشأن كبير وعظمة.

ـ الانسان يحب صفات القدرة والقوة لعظمتها ومكانتها أي إعجابا بعظمتها، فالإنسان يخضع لله تعظيما وإجلالا وتوقيرا.

ـ ولاحظ أننا في هذا الكتاب نقصد بصفات القوة كل الصفات الحميدة، ونقصد بصفات الضعف كل الصفات الذميمة.

******

ـ أصل قضية الدين هي علاقة خضوع بين القوي والضعيف، فالقوى هو الله والضعيف هو الإنسان، والنفس تستكبر أن تعيش معيشة الخضوع.

ـ الإله هو الذي يمتلك صفات العظمة والقوة، ومن يمتلك صفات

(١) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (٣٦/ ٣٢٢).

النقص والضعف فعليه أن يخضع ويسجد للإله، لأن الضعيف عليه أن يسجد للقوي.

ـ لا إله بغير خضوع، وجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين، وبغير الشعور بالخضوع فلا معنى لأن يقول الإنسان أنه عبد وأن له إله، فإذا رفعنا الخضوع من كلمة « عبد » أصبحت كلمة مفرغة من المعنى، فالعبد هو الخاضع، والذي لا يشعر بأنه خاضع هو لا يريد أن يكون عبدا وهو مستكبر.

ـ الإله هو الذي يمتلك صفات العظمة والقوة، والعبد هو الذي يمتلك صفات الضعف والنقص، فمن شعر بضعفه وقدرة الخالق عليه فقد تحقق عنده الشعور بالخضوع، ومن لم يشعر بضعفه وقوة الخالق فلن يشعر بالخضوع.

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي هي الخضوع تعظيما له (حبا في عظمته) وخوفا ورجاء.

ـ كل الصفات الحميدة هي صفات محبوبة لذلك فالضعيف يخضع للقوي حبا في صفاته، كما يخضع له لأنه يحتاج إليه رجاء في عطاءه وخوفا من منعه.

ـ ولاحظ أن البشر ليس فيهم ضعيف وقوي، فجميعهم ضعفاء والله وحده هو القوي: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1]، وما عند الناس من صور القوة ما هي إلا عطاء من الله إليهم وليست ملكا لهم، فالقوي بحق هو الذي يمتلك صفات القوة والقدرة.

ـ فلا قوي بحق إلا الله وكل ما سوى الله ضعيف، والعلاقة بين

(١) البقرة: من الآية ١٦٥

الضعيف والقوى هي العبادة، والعبادة هي الخضوع تعظيما لله (حبا في عظمته) وخوفا ورجاءً، والخضوع يتمثل في أربعة نواحي هي الخضوع في طريقة المعيشة والخضوع بالقلب والخضوع بالجوارح والخضوع باللسان.

ـ وإذا كان الضعيف نفسه من صنع القوي وملكا له ويعيش في ملكه ويعيش بنعمه فهذا معناه الضعف التام للضعيف وبالتالي الشعور بأنه لا حول له ولا قوة وعندئذ يشعر الانسان بالذل والخضوع تعظيما للقوي (حبا في عظمته) وخوفا ورجاء.

ـ ما الذي يريده ويطلبه القوي من الضعيف والخالق من المخلوق والملك من العبيد؟، هو لا يحتاج أي شيء، لذلك الذي يطلبه أنه يريد منهم أن يذلوا له تعظيما ويذلوا له طمعا في عطاءه ويذلوا له خوفا من عقابه.

ـ الله يريد من الناس أن يذلوا له ويركعوا له ويخضعوا له ويسجدوا له ويعيشوا معيشة الخضوع ويعيشوا عبيدا أذلاء لسيدهم رب العالمين، لذلك جاءت الرسل تنادي في الناس: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1]، ولكن الناس يهربون لا يريدون الخضوع، لأن مفهوم الحياة سوف يتغير فيعيشون حياة العبد لسيده، ويعيشون حياة الخائف الهارب من النار، ويعيشون حياة المسافر المستعد للرحيل، ويعيشون حياة الطالب في لجنة الامتحان تحت مراقبة تحسب عليه كل حركاته وسكناته، وذلك لأنهم مخدوعون بأنفسهم ويحسبون أنه أقوياء بما عندهم من إرادة ونعم.

******

ـ قد يحسب الانسان أنه يعبد الله وفي الحقيقة هو لم يحقق العبادة

(١) الأعراف: ٥٩

وذلك لأنه لم يحقق أصل العبادة وهو الحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع.

ـ ولا تتحقق العبادة إلا في ثلاث خطوات بالترتيب، الخطوة الأولى هي تحقيق المعرفة الحقيقية (مع اليقين)، وذلك يؤدي إلى الخطوة الثانية وهي الحب والخوف والرجاء، وذلك يؤدي إلى الخطوة الثالثة وهي الخضوع.

ـ والمشكلة تكمن في الخطوة الأولى وهي غياب المعرفة الحقيقية (الغفلة) وبالتالي لن تتحقق الخطوة الثانية والثالثة.

ـ تحقيق المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين) يؤدي تلقائيا الى تحقيق العبادة، لذلك فهذا الكتاب كله تقريبا هو شرح لكيفية تحقيق المعرفة الحقيقية باعتبارها الطريق الوحيد لتحقيق العبادة (مع وجود اليقين)، والمشكلة أن الإنسان قد يحسب أنه يعرف الله والآخرة وفي الحقيقة أنه لا يعرف غير الدنيا، لأن المعرفة الحقيقية بالله والآخرة غير موجودة.

ـ مفهوم العبادة:

العبادة هي الخضوع تعظيما لله (حبا في عظمته) وخوفا ورجاء، وتنشأ من معرفة قدرة الخالق وضعف الانسان، والخضوع يتمثل في أربعة أمور هي الخضوع في طريقة المعيشة والخضوع بالقلب والخضوع بالجوارح والخضوع باللسان.

ـ فالإنسان يعبد الله لسببين، السبب الأول هو تعظيما لله (من شدة حبه واعجابه بعظمته الهائلة)، والسبب الثاني هو شدة الخوف والرجاء، ولابد من وجود السببين معا، فهو يعبد الله حبا من أجل تعظيمه ورضاه والبعد عن سخطه حتى ولو لم يكن هناك ثواب وعقاب، ويعبد الله خوفا من النار ورجاءً في الجنة، ولا يدخل الجنة إلا إذا عبد الله تعظيما له (حبا

في عظمته) وخوفا ورجاءً معا.

ـ فمثال الخضوع خوفا مثلما يرفع عليك أحدا من الناس سلاحا ويقول لك افعل كذا وإلا قتلتك فانت تخضع له خوفا منه.

ـ ومثال الخضوع رجاءً مثل الشحاذ الذي يسأل الناس أن يعطوه ويتوسل لهم ويتذلل لهم ويظهر ضعفه أمامهم ويخفض رأسه لهم طمعا في إحسانهم له.

ـ ولكي نفهم معنى الخضوع حبا فلابد أن نعرف أن الانسان مفطور على حب من يتصف بالصفات الحميدة الخارقة، ومفطور أيضا على الخضوع إذا زاد هذا الحب لدرجة هائلة وذلك عندما تكون الصفات الخارقة هائلة جدا، ولكن المشكلة في غفلة الانسان عن هذه الصفات، فإذا حدث الانتباه والانبهار والتعجب والدهشة وبالتالي تحققت المعرفة الحقيقية فعندئذ يحس الانسان من داخله بالفرح والحب لمن يتصف بهذه الصفات ويصبح محبوبه الذي يأنس به، وإذا زاد حبك له بشدة فعندئذ تخضع له من شدة حبك تعظيما واعجابا بقدراته.

ـ فالحب الحقيقي هو فقط لله لأن كل أحد غير الله هو ضعيف وما عنده من قدرة إنما هي عطاء من الله.

ـ معنى أن الله هو المالك أي أن الله له ملكية كل شيء، وهذا معناه أن يتجرد الإنسان عن كل ما يملك وعن نفسه لينسب ذلك إلى الله المالك الحقيقي فيشعر أن كل ما عنده هو محض تكرم وإنعام من الله فيحبه ويذل لعطاءه مدين له بالولاء مرهونا وأسيرا لفضله منكسر النفس غير حر لأنه عنده النقص والعوز معترفا بذلك غير قادر على أن يقيت نفسه (فالله هو المقيت أي الذي يعطيه القوت) والله يمده باللقمة التي يأكلها وهو أسير وعبد لإحسانه منكسر المشاعر يشعر بالعجز أمامه ويشعر بأنه

ما له حول ولا قوة.

ـ فالخضوع رجاءً معناه أن تعيش مرهونا بعطائه فمن غيره تموت، ذليلا لعطائه محتاجا لعطائه، فبغير عطاءه ونعمه لا تستطيع أن تتنفس، فالنفس والهواء نعمة، فأنت عبد إحسانه خاضع لما يجود به عليك، وكما يقولون فالإنسان أسير الإحسان.

ـ ولاحظ أن الخضوع لا ينشأ من مجرد الحب والخوف والرجاء ولكن من الحب الشديد والخوف الشديد والرجاء الشديد فذلك الذي يجعلك تخضع وتنقاد.

ـ الخضوع نوعين:

ـ أولا: خضوع غير مرتبط بالثواب والعقاب: وهو الخضوع تعظيما لله (حبا في عظمته)، فلو افترضنا أنه لا توجد جنة ولا نار لوجب على الانسان أن يخضع لله تعظيما وإجلالا من شدة حبه في عظمة الله.

ـ ثانيا: خضوع مرتبط بالثواب والعقاب: وهو الخضوع خوفا ورجاءً.

ـ ولابد من وجود النوعين معا.

ـ والخضوع يتمثل في أربعة أمور هي الخضوع في طريقة المعيشة والخضوع بالقلب والخضوع بالجوارح والخضوع باللسان:

١ـ الخضوع في طريقة المعيشة (يعيش معيشة الخاضع):

ـ الإنسان إذا كان هو الذي صنع نفسه بنفسه فأوجد لنفسه عينه وأنفه وأذنيه وأوجد لنفسه ما يمتلك من نعم وأموال وأولاد فهي ملكا له وليس لأحد سلطة عليه أو عطاء أو صنع له شيئا، ففي هذه الحالة فالإنسان له أن يعيش وفق مراد نفسه وما يشتهيه وهذا حقه فهو حر يفعل ما يشاء.

ـ ولكن الحاصل عكس ذلك فالإنسان هو نفسه عبارة عن مادة

مصنوعة يمتلكها من صنعها، فالإنسان لا يملك شيئا ولا حتى نفسه فكل ما عنده من نعم وشهوات هو محض عطاء من الله، ففي هذه الحالة يجب على الإنسان أن يعيش وفقا لمراد من صنعه ويمتلكه خاضعا لله لأنه لا يملك شيئا ولا حتى عقله فكل ذلك من صناعة الخالق.

ـ الخضوع في طريقة المعيشة معناه اختيار الانسان لطريقة الحياة ونمط الحياة التي يريد أن يعيشها أي إما أن يعيش حياته عبدا خاضعا لغيره أو يعيش لنفسه حرا غير ذليل أو خاضع لأحد.

ـ أي أن يعيش على أساس أنه عبد مثلما كان العبيد قديما يباعون ويشترون في سوق العبيد، فهو يعيش خادما لسيده يوجهه كيف يشاء ويفعل به ما يشاء وليس له حق في أي شيء، فيعيش معيشة العبد لسيده، والعبد ليس له هدف غير إرضاء سيده وقبول كل ما يفعل به سيده، أي يختار أن يعيش حياة الخضوع والذل لغيره (لله تعالى)، أي تصبح وظيفته في الحياة ومهمته التي يكرس حياته من أجلها هي أن يعمل عند الله عبدا كما يعمل الخادم عند سيده فيعيش عمره كله على هذا، فهذا اختار أن يكون عبدا لله ، أما غيره فاختار أن يعيش حرا كأنه لا أحدا يملكه ولا يتبع لأحد وكأنه هو الذي أوجد نفسه أو لا أحد أوجده.

ـ بمعنى أننا إذا استطعنا تلخيص حياتك بما فيها من مشاعر وهموم وأهداف وطموحات وأعمال فهل هي معيشة إنسان خاضع لغيره (لله تعالى) أم معيشة من أجل أمور الدنيا ومشاغلها المتنوعة؟

ـ فالإنسان أمامه أمران هما: إما أن تكون له حياته المستقلة به فيدير أموره بنفسه ويفعل ما يريد ويرغب، فيعيش حياته حرا يفعل ما يشاء، وإما أن يجعل حياته لأحد غير نفسه، فيعيش عبدا خاضعا لسيده ومولاه رب العالمين، فيضع نفسه وما يملك ورغباته وحياته تحت تصرف سيده.

ـ معنى الخضوع أي الاستسلام أي إسلام النفس وكل ما تملك إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، أي التجرد من كل ما تملك لتنسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه، فتكون كالميت بين يدي مغسله يفعل به ما يشاء، أي تكون كالميت بين يدي الله يفعل بك ما يشاء.

ـ لماذا يرفض الناس دعوة الرسل لعبادة الله تعالى؟:

ـ الضعيف عليه أن يشعر بالخضوع والذل.

ـ والقوي له أن يشعر بالقدر والعظمة والكبرياء أي يشعر بأنه عظيم وذو قيمة ومكانة.

ـ فالشعور بالخضوع عكس الشعور بالعظمة والكبرياء.

ـ الانسان ضعيف وفي نفس الوقت لا يريد الخضوع لأن معيشة الخضوع هي أمر صعب جدا على النفس فماذا يصنع؟: يتغافل عن الله والآخرة وبالتالي يرى نفسه قويا بما عنده من النعم فيشعر بالمكانة والقدر بدلا من أن يشعر بالخضوع.

ـ لاحظ أن قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيره فإذا غفل الانسان عن الله والآخرة رأى نفسه قويا بما عنده من صفات وبما عنده من نعم.

ـ معيشة الخضوع هي أمر صعب جدا على النفس:

ـ تصور أنه تم بيعك في سوق العبيد مثلما كان يحدث في الماضي فأصبحت عبدًا وخادمًا لسيدك، هل تقبل هذه الحال الآن وأنت في عصر الحرية؟!، هل تقبل أن تضع نفسك تحت تصرف غيرك؟!، وهل تقبل أن يتحكم فيك غيرك؟!، وهل تتحمل هذه الحالة النفسية من الخضوع وطوال عمرك؟!، إنك مطالب بما هو أصعب من ذلك أن تكون عبدا لسيدك ومولاك رب العالمين، فلماذا لا تشعر أنك واقع تحت سيطرة مَنْ يتحكم فيك وأنت عليك أن تقبل الخضوع والذل؟، فأنت تخضع

له خضوع مَنْ شعر بأنه القهار المهيمن، وخضوع المحتاج إلى نعماءه، وتحب الذل إليه ليعطيك ، كما يفعل الشحاذ حين يسأل الناس فإنه يخفض رأسه ويمد يده للناس ليعطوه ، فهل تخفض رأسك وتمد يدك لله ليعطيك؟، إذن أين هذه الحالة النفسية المميزة للخضوع؟.

ـ فالطبيعي أن الإنسان يعيش حياته بناءً على ما يريده هو لنفسه وما يحبه ويهواه لنفسه وما يحقق رغباته، ولكن هذا الأمر صحيح فقط إذا كان الإنسان غير مملوكا لغيره وليس هناك أحدا يسيطر عليه ويستطيع أن يفعل به ما يشاء وإذا كانت قدرات الإنسان من القوة والرؤية والسماع والكلام هو الذي أوجدها لنفسه.

ـ هل يستطيع الإنسان أن يعيش لغيره أي لا يعيش من أجل نفسه هو ولكن من أجل أحدًا غيره، إن الخضوع معناه أن تعيش لغيرك، وتعيش تحت سلطة وسيطرة غيرك عليك وتقبل ذلك مستسلمًا ذليلًا خاضعًا، إن المسلم يعيش لله بل ويموت أيضًا لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ـ النفس تستكبر أن تعيش معيشة العبيد، والإنسان لا يريد أن يذل لأحد أو يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده، ولا يريد أن يلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له، ويرفض أن يقيد نفسه بأوامر لأحد عليه، ولا يريد أن يتخلى عن حريته ليعيش خاضعًا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي.

ـ فهل تتصور لو أنك تعيش حياتك بناءً على ما يريده ويحبه شخص آخر، فكأنك إنسان آلي تسير بالريموت كنترول فما يريده هذا الشخص تفعله له وما يحبه تفعله له، فالإنسان الآلي ليس له حياته الخاصة وليس

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

له رغبات ولا يسير من تلقاء نفسه وإنما تبعًا لما يريده منه هذا الشخص.

ـ فمعنى أن يعيش الإنسان عبدًا هو أن يعيش حياته وفقًا لأوامر الله تعالى وأكثرها أوامر تخالف رغبات نفسه، وهذه المخالفة مقصودة من الله تعالى حتى يتبين أن الإنسان خاضع لله وليس لما يريده هو لنفسه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، وبتعبير آخر هو تغليب مراد الله والدين على مراد نفسك وما تحبه نفسك، وأصعب شيء على الإنسان هو أن يتنازل عن إرادته.

ـ والإنسان عليه أن يختار لنفسه الطريقة التي على أساسها يعيش، هل يبني حياته وفقًا لرغبات نفسه أم مخالفة نفسه ووفقا لمراد الله؟ فلمن تستجيب؟ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبما يملك، فهو يريد ألا يعيش ذليلًا خاضعًا لأحد (لله) مقيدًا بالدين، وهذا معناه استكبار عن عبادة الله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[3].

ـ فهو يريد أن يعيش في الدنيا حرا غير خاضع ويعيش على أساس أن السعادة في الدنيا، ويختار شكلًا يعجبه من أشكال السعادة في الدنيا ويعيش له، فيعيش للمال أو للشهوات أو للمظاهر أو أي شيء أو مجموعة من الأشياء من أمور الدنيا.

ـ الاستكبار هو تكبير قدر النفس وما معها من نعم مع تجاهل قدر الله

(١) آل عمران: ٩٢.
(٢) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.
(٣) غافر: ٥٦.



تعالى كأنه ليس له قدر، فهو لا يريد أن يعترف أمام نفسه بضعفه وعظمة الله وقدرته عليه ، فأصعب شيء على الإنسان هو الاعتراف بضعفه ونقصه وعجزه واستسلامه واحتياجه وانقياده لغيره ، والاعتراف بأنه مقهور ومغلوب وخاضع تحت سيطرة أحدا غيره ، والاعتراف بالذل وأن يعيش عيشة الذل وعيشة العبيد لسيد يملكه ويملك التصرف فيه ، فالإنسان يعرف أن لله كل صفات العظمة والعلو ، وأن الإنسان فيه كل صفات الضعف والعجز لكنه يأبى أن يشعر بذلك ويتعاظم الأمر في نفسه أن يكون كذلك.

ـ إن النفس مجبولة على حب الشهوات والسعادة وما فيه الراحة واللذة وتكره الذلة والانكسار والخضوع لأي أحد أو أي شيء لأن في ذلك ألم لها، لذلك فالنفس لا تحب الخضوع لله والدين فتريد أن تتحرر من ذلك، فالنفس من داخلها تتكبر وتأبى أن تستسلم: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ﴾[1].

٢ـ الخضوع بالجوارح:

ـ المقصود من العمل ليس مجرد موافقة العمل للشرع ولكن باعتباره تنفيذا لأوامر الغير مع عدم الاعتبار لأوامر النفس، فهذا هو المقصود من العمل وهو إذلالك وإخضاعك للأوامر.

ـ فخضوع الجوارح هو طاعة الأوامر، أي الخضوع والاستسلام للأوامر، وخضوع الجوارح لله هو طاعة أوامر الله تعالى.

ـ طاعة الأوامر خضوع، فالإنسان أمامه أمران إما أن يطيع أوامر غيره أو لا يتبع أوامر أحد ويعيش وفقا لمرادات نفسه.

(١) غافر : من الآية ٥٦



ـ الطاعة ليست مطلوبة لذاتها ولكن كدليل على الخضوع وتعبير عن الخضوع وصورة من صور الخضوع وأثر للخضوع، فالله لا يريد منا الطاعة لذاتها ولكن يريد منا الطاعة كتنفيذ أوامر ولو خالف العقل والهوى وما تحبه النفس، لأن مخالفة الهوى وعدم الرجوع للعقل في الأمر دليل على الخضوع: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١).

ـ الطاعات تعني أن الإنسان يقبل أن يعيش تبعا لأوامر الخالق وليس وفقا لما يريده هو لنفسه، فهو بذلك يقبل الخضوع، والمعاصي تعني إما أنه يرفض أن يعيش تبعا لأوامر غيره أو أن قبوله للخضوع ضعيف.

ـ الأمر والنهي صفة قوة، وتنفيذ الأوامر صفة ضعف، فالآمر تكون له السلطة والسيادة والكبرياء، والمأمور يكون له الضعف والذل وليس له إلا تنفيذ الأوامر حتى فيما يريده هو لنفسه، الله وحده هو الذي له الأمر والنهي وكل ما سواه عليه التنفيذ مهما كان الأمر.

ـ ومن أوامر الله طاعة الرسول ﷺ وطاعة أولي الأمر فأنت تطيعهم تنفيذا لأمر الله، فالآمر الحقيقي هو الله، فالأصل أن الأمر يكون من الأعلى إلى الأدنى، والله وحده هو الأعلى وجميع البشر أدنى، فأوامر الله هي أوامر عليا إلى العبيد من البشر، فهي أوامر من المتكبر إلى الذليل.

ـ وقد يؤدي الإنسان الطاعة لكن لا يريد أن يشعر أن أحدا يلزمها عليه إلزاما ويفرضها عليه فرضا، كأنه يوافق على الطاعة بمزاجه كأنه يقتنع أولا بالأوامر ثم يؤديها أو يؤدي الطاعة لمجرد موافقة العمل للشرع، ولكن يجب أن يؤدي الطاعة باعتبارها تنفيذا للأوامر على أساس أنها مسألة خضوع وعلاقة بين قوي وضعيف، وأن المقصود منها هو إذلالك وإخضاعك للأوامر وليس لك أن تناقش أو تسأل إلا لمعرفة الحكمة

(١) آل عمران : ٩٢

لتزداد إيمانا، وليس لذلك علاقة بتنفيذ الأمر سواء عرفت الحكمة أم لم تعرف والله سبحانه لا يسأل عما يفعل: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)﴾ [الأنبياء: 23].

ـ أصل معنى خضوع الجوارح هو السجود، فلا إله بغير سجود له، وكذلك أصل معنى الصلاة السجود، والأصل في الصلاة أنها خمسين صلاة ولكنها خففت فأصبحت خمسين في الأجر وخمس في الفعل، أي من صلى خمس صلوات كأنه صلى خمسين صلاة أي كأنه في سجود دائم طوال الليل والنهار.

ـ الدافع الى الطاعة:

ـ طاعة الأوامر هي صورة من صور الخضوع، والدافع إليها يكون تعظيما لله (حبا في عظمة الله) وخوفا من عقابه ورجاءً في ثوابه.

١ـ طاعة الأوامر تعظيما لله (حبا في عظمة الله):

ـ عظمة الأمر من عظمة الآمر، فلو أمرك ملك من ملوك الدنيا بأمر هو في نظرك بسيط لكنه يكون عظيما لعظمة من أمر به، في حين لو أمرك طفل من الأطفال بنفس الأمر فإنك لا تأبه به، ولو أمرك حبيب لك وتحبه وفضله عليك عظيم لأسرعت، ولو أمرك أبوك بأمر لأسرعت لأنك توقره، وفي تفسير ابن كثير: ﴿قال بِشْر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه﴾[1]، فإذا ذكر الإنسان عظمة الله ندم: كيف أعصي ربي وهو الذي خلقني ورزقني ؟ فيندم كما لو عصى الإنسان أباه فإنه يندم.

ـ مالك الشيء له أن يفعل بما يملك ما يشاء، فالطاعة هنا غير مبنية على مبدأ النفع والضرر، فأنت لا تطيع بناء على أن ذلك العمل فيه نفع

(١) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج ٢ / ص ١٨٥)

أو ضرر، ولكنك تطيع بناء على أن هذا حق الله عليك تعظيما له سبحانه.

ـ نعم الله عليك لا تحصى، ولو عبدت الله ليلا ونهارا لم توفه نعمة واحدة كالعين مثلا، فالعاقل يستحي من أن يعصي من يكرمه ويحسن إليه تعظيما له، فكيف تعصيه وأنت تعيش في ملكه وتقف على أرضه وتأكل من رزقه.

٢ـ طاعة الأوامر خوفا ورجاءً:

ـ الخوف والرجاء يؤدي إلى ترك المعاصي والمسارعة في الخيرات: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ـ لو كان الجندي يخاف من القائد أن يعصيه فيفتك به لما عصاه، كذلك لو كان الإنسان يشعر بالخوف والقلق من مدى قدرة الله وبطشه وجبروته لما عصاه، ولو أن إنسانا يمسك بمسدس ويصوبه نحوك ويأمرك بأمر فهل يمكن أن تخالفه؟، إنك تطيعه وأنت تشعر بالخوف وترتعد فرائصك، فالألم في الآخرة شديد جدا ولن يقدر الإنسان على أن يتحمله لفظاعته ولكن من يعقل؟

ـ لو قيل لإنسان أنه إذا وقع في شهوة من الشهوات فإنه سوف يوضع في داخل الفرن الذي ينضج فيه الخبز بأحد الأفران مثلا حتى يشوى جلده ولحمه، فإنه لن يقع في شهوة أبدا، وكلما عرضت له شهوة تذكر « فرن الخبز »!

ـ فالأمر مرعب وخطير، فمن خاف لم يستطع أن ينام ولا يهدأ ولا يرتاح ويسارع في الخيرات وترك المعاصي، ففي الحديث: ﴿من خاف

---

(١) الزمر: ٩



أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ﴾[1].

******

٣ ـ الخضوع باللسان:

ـ الخضوع باللسان معناه أن يقر الانسان بلسانه بأنه خاضع، أي أنه يخضع بقلبه وجوارحه وحياته ويقر بلسانه أنه خاضع بقلبه وجوارحه وحياته، وذلك بقول شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) صادقا من قلبه، لأنه إذا لم يكن صادقا فيها فلن تدخله الجنة.

ـ البعض يتعامل مع عبارة (لا إله إلا الله) على أنها تعني لا رب إلا الله، وهذا خطأ كبير.

ـ معنى عبارة (لا إله الا اللّه):

ـ أي (أعيش خاضعا لله وحده)، وهي تعني ثلاثة أمور، الأمر الأول هو (أعيش خاضعا) وهذا هو مبدأ العبادة، والأمر الثاني هو (أعيش خاضعا لله) وهو تحديد لمن يكون الخضوع والعيش من أجله، والأمر الثالث هو (أعيش خاضعا لله وحده) أي لا يكون الخضوع لأي أحد إلا الله تعالى.

******

٤ ـ خضوع القلب:

ـ الخضوع بالقلب معناه الشعور بالذل والضعف والاستكانة والاستسلام والانهزام أمام الخالق سبحانه، وهو أصل العبادة وبغيره لا تتحقق العبادة، وينشأ هذا الشعور بالخضوع من الحب والخوف والرجاء، بمعنى أن الإنسان إذا أحب شيئا ما لدرجة كبيرة فإنه يشعر

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٦٢٢٢ في صحيح الجامع)



بالذل حبا وإعجابا وتعظيما واحتراما وإجلالا، وإذا خاف من شيء ما لدرجة كبيرة فإنه يشعر بالذل خوفا منه، وإذا رجا شيئا واشتاق إليه لدرجة كبيرة فإنه يشعر بالذل رجاءً فيه.

ـ قلب الانسان فيه مشاعر كالحب والخوف والرجاء، وهذه المشاعر إما أن تتعلق بالمال والدنيا أو تتعلق بالله والآخرة، وإذا تعلقت بالله والآخرة وزاد هذا التعلق وصلت الى درجة الخضوع تعظيما لله (حبا في عظمته) وخوفا ورجاءً.

ـ الشعور بالخضوع هو الشعور بالضعف والذل والانكسار والاستسلام والانهزام، وهو ما يشعر به العبد عند سيده، وهو شعور كأن أحدًا سلب منه إرادته فأصبح تابعًا منقادًا، فالإنسان بداخله متكبر، فإذا انكسر هذا التكبر والغرور بالنفس شعر الإنسان بالاستسلام والانهزام.

ـ والشعور بالخضوع معناه شعور الإنسان بضعف قدرته وعجزه أمام قدرة الله وشعور بالانكسار والتسليم وأن الإنسان واقع تحت تصرف من له القدرة عليه وخائف منه وأنه لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه ولا يستطيع أن يتنفس إلا بأمر الله.

ـ الحالة النفسية المميزة للشعور بالخضوع:

ـ أنظر إلى خادم يعمل في بيت من بيوت السادة، إن الحالة النفسية التي يشعر بها هذا الخادم هي التي تسمي خضوع، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية؟

ـ أنظر إلى الرجل الفقير المعدوم الذي يسأل الناس ليعطوه، بماذا يشعر؟، إنه يشعر بالخضوع والذل والحاجة إلى إنعام الناس عليه، إن الحالة النفسية التي عند هذا الرجل هي التي تسمي خضوع، فإذا كنت

تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟!، كما أنك تجد هذا الرجل يظل يدعوا لمَنْ يعطيه محبة له، وإذا كان هذا الرجل فقير إلى إنعام الناس من أموال، ومحب لما يعطونه، فكيف بك وقد أنفق عليك الله فأعطاك عينا وأعطاك الهواء الذي تتنفسه ونعما لا تحصي (والمشكلة أننا لا نشعر بنعم الله).

ـ تصور أن أحدا ما رفع في وجهك سلاحا وطلب منك أن تستسلم، ماذا يكون شعورك عندئذ؟ هذا الشعور هو شعور بالهزيمة والاستسلام والانقياد، إن الحالة النفسية التي تشعر بها عندئذ هي التي تسمي خضوع واستسلام، فإذا كنت تدعي الخضوع لله، فهل عندك هذه الحالة النفسية؟ والله هو الجبار المنتقم ذو البطش المتكبر شديد العقاب سريع الحساب.

ـ ادعاء الهدف والعبادة:

ـ قد يكون الانسان على اقتناع تام بأن هدفه الذي يعيش من أجله هو عبادة الله لنيل رضاه وجنته وفي الحقيقة هو يعيش للدنيا ، فحقيقة هدف الانسان هو ما يحبه ويخافه ويرجوه، فالشيء الذي تحبه وتخافه وترجوه على مستوى كل عمل على حدة فهذا هو نيتك من القيام به وعلى مستوى الحياة وجميع الاعمال فهذا هو هدفك من الحياة، فإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله من حياته هو تجارة أو مال أو شهوات أو منصب وجاه، فهذا معناه أن هدفه الدنيا، وإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله من حياته هو رضا الله والجنة، فهذا معناه أن هدفه عبادة الله لنيل رضاه وجنته (والفصل الخامس والسادس هو بيان لحقيقة الحب والخوف والرجاء وكيف ينشأ من معرفة الله تعالى).

ـ بل إن الإنسان قد يحسب أنه يحب الله ويخافه ويرجوه ويعيش من

أجله، وفي الحقيقة هو لا يحب إلا الدنيا ولا يخاف إلا منها ولا يرجو غيرها ولا يعيش إلا لها، لذلك قمنا ببيان حقيقة الهدف والمشاعر والحالة النفسية المميزة لها حتى يكتشف الإنسان حقيقة ما في قلبه.

ـ فقد يكذب الإنسان على نفسه ويحسب أنه يعيش لله ولا يدري أنه لا يعيش إلا للدنيا، فهمه ومشاعره وسلوكه وانفعالاته وكلامه وعمله يكشف حقيقة هدفه، فتجد الإنسان يلهث وراء المال وقلبه يتقطع على المال ولا هم له ولا عمل له غير الحصول على المال ورغم ذلك تجده على اقتناع تام بأنه لا يعيش من أجل المال ويحسب أنه يعيش من أجل الله والآخرة رغم أنه لا يعرف الله الذي يدعي أنه يعيش من أجله ولا يعرف الآخرة التي يدعي أنه يعيش من أجلها! لأنه لو عرف الله والآخرة لعاش لله وليس للمال.

ـ والشيء الذي تشعر بالخضوع له من شدة الحب والخوف والرجاء هو هدفك وأنت تعبده، فاذا كنت تشعر بالخضوع تجاه الخالق فانت تعبد الله، وإذا كنت تشعر بالخضوع تجاه شيء غير الله فانت تعبد ذلك الشيء.

ـ وبعض الناس يدعون أنهم خاضعين لله وهم يتناسون معنى أن يعيش الإنسان خاضعًا ذليلًا لغيره طول حياته، فهم لا يقبلون أن يعيشوا معيشة الذل ويعتبرون أنفسهم أحرارا ولا يقبلون أن يستعبدهم أحد فيكونون عبيدًا له!

ـ من صور خضوع القلب:

١ـ الرضا بالقضاء والقدر:

ـ من صفات الخاضع الرضا بالقضاء والقدر، فليس له أن يعترض أو يبدي رأيه أو يسأل لماذا؟ وليس له أي حقوق، وسيده له الحق في أن يفعل به ما يشاء وهو في منتهى الرضا والاستسلام، فعدم الرضا والتسليم بأنه

خاضع معناه أنه لا يزال يشعر بأنه ليس بضعيف وأن القوة التي يحسب أنه يمتلكها سلبها منه غيره بغير حق (الابتلاء) لذلك فهو غير راض.

ـ الرضا بالقضاء والقدر معناه أن يسلم أمره لله ويقول لله: افعل بي ما تشاء، فهو راضٍ بأي شيء سواء كان عطاءً أو منعًا.

ـ الإنسان الذي في يده قطعة من الطين الصلصال له أن يفعل بها ما يشاء ويشكلها كيفما يشاء لأنه قوي يقدر على أن يشكلها كيفما شاء وهو مالكها وهي لا حول لها ولا قوة، فالقوي بحق له أن يفعل ما يشاء بما صنعه وامتلكه، والعبد الضعيف ليس له أن يفعل إلا ما يأمره به سيده، فهذه هي العلاقة بين القوي والضعيف.

ـ إن الذي يشعر بأن الله هو المالك لكل النعم فإنه يصبر علي سلب النعمة لأنها ليست ملكا له وليست حقا له ويرضى بذلك ، شرح ابن كثير معنى (إنا لله) في الآية : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ ﴾[1] أي : ﴿ ﴿ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ﴾ أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ ﴾(٢) ، فمالك الشيء له الحق في أن يفعل بما يملك ما يشاء ، بل إن الله لو عذب جميع الخلق لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأنه مالكهم له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء ففي الحديث : ﴿ لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبا أو مثل جبل أحد ذهبا تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك

(١) البقرة: ١٥٦

(٢) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية – بيروت (١ / ٣٣٨)

إن مت على غير هذا دخلت النار ﴾[1]، إن الذي يشعر بأن حياته وكل شيء ملك لله وإنما هي نعم وعارية يستردها مالكها فعند الموت يكون راضيا لأن الله يأخذ ما يملكه ويكون شاكرا لله لأنه أعطاه هذه النعم طوال هذه المدة تنعم بها بغير استحقاق فتخرج الروح سهلة ، لكن الإنسان الذي يشعر أنه هو الذي جلب النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه ، فعند الموت لا يريد أن يترك النعم فتخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، فعندما يأتيه الموت يكره هذا القدر .

ـ فالذي يعرف أن الله هو المالك معرفة حقيقية فإنه يستسلم لله متقبلا أي شيء يحدث له، فلا يحزن بشيء ولا يفرح بشيء، فهو لا يملك شيئا حتى يحزن على فقده، فالإنسان كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء، والاستكبار معناه أن الإنسان يرفض أن يكون كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء فلا يريد أن يتحكم فيه أحد فيريد أن يكون حرا وليس عبدا.

ـ الحالة النفسية للشعور بالرضا :

ـ الإنسان لا يملك شيئًا ولا يستحق شيئًا، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدًا مسرورًا بها؛ لأن الأصل أنه لا يمتلك شيئًا، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلًا لم يكن مالكًا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج: ١، ص: ٢٩، برقم ٧٧)

يفعل بها ما يشاء، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه، فالإنسان يشعر بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلا لم يكن مالكا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ ادعاء الرضا بالقضاء والقدر:

ـ قد يحدث للإنسان مصيبة فيقول الحمد لله ولكن قلبه ساخط غير راضٍ وإن قال: أنا راضٍ، وتجده يقول (الحمد لله) لكنه من باب الروتين والتعود في الكلام، وفي الحقيقة قلبه ساخط، ونحن قد ندعي الصبر، فما ورد في القرآن هو الصبر الجميل وهو حبس القلب عن التسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وهو أن تتجرع المر وأنت مبتسم في منتهى الأريحية والانبساط، فيتقبل الإنسان المصيبة برضا، وهو سكون القلب تحت مدار الأحكام وشعور بالاستسلام والانقياد واطمئنان للعاقبة وانتظار للفرج واحتساب للأجر.

ـ قد ينظر الإنسان إلى أي فعل من أفعال الله كابتلاء مثلًا نظرة اعتراض، أو يرى إنسانًا لا حيلة له ورزقه عظيم فينظر إلى الله نظرة اعتراض، فهذا معناه أنه غير راضٍ عن الله وغير راضٍ بقضاء الله وقدره، فالله لا يسأل لماذا يفعل كذا أو كذا.

ـ لقد جعل الله فلانًا غنيًا وفلانًا فقيرًا، وفلانًا يتعب في عمله ورزقه قليل، وفلانًا لا يعمل أو عمله قليل ورزقه كبير، وفلان أجاب الله دعاءه رغم معاصيه وفلان لم يستجب له رغم تقواه، وفلان يُبتلى ويزيده الله ابتلاءً رغم دعائه وعبادته، وفلان يؤذي الناس في دنياهم ودينهم ويظلمهم ويزيده الله في الترقي في المناصب والمزيد من الدنيا فيتمكن من ظلمهم أكثر، وفلان حرمه الله من البنين، وفلان أعطاه الكثير، وفلان ترك عملًا

لأنه كان يكسب منه مالًا حرامًا ثم سعى للبحث عن عمل فلم يجد.

ـ طالما أن الإنسان مع الله ويطيعه فلابد أن يكون الله معه، ولكن قد يظن الإنسان أن ذلك معناه أنه لابد أن ينقذه الله من الشدائد ويعطيه من الدنيا ويستجيب له فورًا، وقد يظن الإنسان أن معاصيه أمور بسيطة وأنه لا يستحق هذا العقاب الدنيوي من الله بابتلائه.

ـ لكن الذي يشعر بأن الله هو المالك، وأن مالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء، فإنه يرضى بكل ما يفعله الله لأن هذا حقه وشأنه، ويعلم أن كل ما يفعله الله هو بعلم وحكمة يعلمها سبحانه وليس تخبطًا تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا سبحانه، ويرضى بما قسمه الله له وبما يفعله الله في عباده.

ـ وكل من شعر بمدى عظمة الله وضآلة نفسه تعلم الأدب مع الله وعلم أن لله أن يفعل ما يشاء وشعر بالمهابة من عظمته.

ـ ثانيًا: التوكل (الاستعانة):

ـ العجز معناه عدم قدرة الإنسان على القيام بما يحتاج إليه واحتياجه لغيره ليساعده ويقضي له حاجته، وبالتالي يستعين العاجز بالقادر ليمده بما يحتاجه، وهذا هو التوكل.

ـ القادر إذا أمر العاجز بأمر ما فإن العاجز يستعين بالقادر على أداء هذا الأمر لأنه بغير ذلك لا يستطيع القيام بالأمر، فكذلك إذا أمر الله الإنسان بالعبادة فإنه يستعين بالله على القيام بهذه العبادة كما أراد الله تعالى، فيقول تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، كأنه يقول لله أعني على نفسي وساعدني وكن معي، فالعاجز إذا لم يستعن بالقادر دل ذلك على أنه لا

(١) الفاتحة: ٥.

يشعر بأنه عاجز أو يقينه بذلك ضعيف.

ـ لا يتوكل الانسان على غيره من البشر لأنهم عاجزون مثله ضعفاء لا حول لهم ولا قوة والله وحده القادر المعين، وهذا معناه أن يفوض الانسان أمره إلى الله ويتوكل عليه.

ـ الإنسان يستعين بغيره عندما يشعر بثلاثة أمور هي: الشعور بالاحتياج والنقص (الشعور بضعف الإنسان)، والشعور بقدرة من يعينه على إعانته (الشعور بقدرة الله)، والاطمئنان والثقة في أن مَن يستعين به سيعينه (الشعور بأن الله هو الوكيل والكفيل والكافي والرزاق والولي)، والإنسان يتوكل على الله وحده إذا شعر بأن غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر.

ـ الله وحده القوي والقادر والنافع والضار وغيره لا يقدر ولا ينفع ولا يضر، فمن عرف ذلك أسلم نفسه لله وفوض أمره إليه فهذا هو معنى التوكل.

ـ الضعيف يعتز ويفرح بانتمائه إلى القوي لأنه يرى قوة القوى قوة له ولأنه يستمد منه العزة والقوة ويحتمي به ويعتبر ذلك قوة له ضد غيره، فإذا أراد أن يعتدي عليه أحد لجأ إلى القوى الذي يحتمي به لينصره عليه.

ـ فأنت لا تستطيع أن تضرب طفلا لأن أبوه قوي ينتقم منك، فالطفل ليست له قوة ولكنه يستمدها من أبوه، فالطفل يشعر بالعزة ويكون شجاعا أمام الأقوياء لأن أبوه أقوى منهم رغم أنه ضعيف، فكذلك العزة عند المؤمنين يستمدونها من انتماءهم لله.

ـ الحالة النفسية المميزة للتوكل:

ـ التوكل على الله يؤدي إلى عدم انشغال الهموم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا، فالحالة النفسية المميزة للتوكل هي الشعور بالاطمئنان

والراحة النفسية من هموم الدنيا ومن الهم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا فلا تكون هدف الإنسان وقضيته، كما أن الشعور بأن غير الله لا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الارتياح النفسي؛ لأنه لا يحمل همًا لما سوى الله، وكلما نقص إيمان العبد كلما نقص توكله وانشغل همه بالدنيا.

ـ فالإنسان قد يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن له مصدر دخل ثابت شهريًا من عمل حكومي أو معاش مثلًا يوفي له ما يريد (وذلك ينشأ من ضعف معرفته بأن الله هو الرزاق أو من غياب تلك المعرفة)، كذلك المتوكل على الله يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن هناك من يمده بما يحتاجه فهو يطمئن إلى الله الوكيل والرزاق، فهو مطمئن إلى رزقه.

ـ فالتوكل هو شعور بضعف الإنسان واستسلامه لله وانهزامه بين يدي الله وتفويض أمره لله ليفعل الله به ما يشاء، مثل شعور اليتيم الذي يحتاج إلى من يكفله وينفق عليه، ومثل شعور الأعمى الذي يحتاج إلى المبصر ليحدد له اتجاه سيره ويسير به حيث يريد، ومثل شعور الذي يجلس على كرسي بعجلات ويحتاج إلى من يقوده، ومثل شعور السائل (الشحاذ) الذي يحتاج إلى الناس فيسألهم أن يعطوه، ومثل شعور الفقير الذي ذاق طعم الفقر فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه، ومثل شعور الطفل الذي يحتاج إلى أبويه في طعامه وشرابه ونومه ورعايته، ومثل شعور التائه الذي ضلَّ الطريق فهو يحتاج إلى من يهديه، ومثل شعور الجائع الذي ذاق طعم الجوع فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه طعامًا، ولذلك ففي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم»[1]، وحقيقة الإنسان

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٤٣٤٥ في صحيح الجامع).

هو أنه أعمى لا يبصر؛ لأن عينه ليست ملكه وإنما هي ملك لله تعالى أعطاها الله له، وهو أصم وأبكم لأنه لا يملك الأذن ولا اللسان، وهو فقير؛ لأن المال الذي عنده هو ملك لله، وهو مجرد من كل شيء ولا يعلم شيئًا لأن عقله ملك لله، فهو مثلما كان في بطن أمه في المراحل الأولى حيث كان لا يسمع ولا يرى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ـ فالإنسان إذا شعر بأن غير الله لا ينفع ولا يضر فشعر بأنه هو نفسه لا ينفع ولا يضر وبأن الأسباب لا تنفع ولا تضر وبأن كل الناس والأشياء لا تنفع ولا تضر، والشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء لا قيمة له فإنه عندئذ يشعر بالاستسلام والانهزام ويشعر بأنه في حاجة إلى من يكفله ويقوم بأمره ويرعاه؛ لأنه عاجز عن أن ينفع نفسه، فيلجأ إلى الله ليستعين به ويحتمي به، فيكون كالطفل كلما احتاج إلى أمر لجأ إلى أبويه وهو يثق بأن أبويه لن يخذلانه؛ لأن القوي لا يخذل الضعيف، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم: (فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة، قلت هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان –وإن لم يشأ الناس– وما لم يشأ لم يكن –وإن شاءه الناس– فيوجب له هذا اعتمادًا عليه وتفويضًا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) النحل: ٧٨.



اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق/ ٣] أي كافيه)[١].

ـ ﴿قيل لحاتم الأصم: علام بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلست أهتم له، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه﴾[٢].

ـ قلق الإنسان من عدم وجود عمل يتكسب منه، أو خوفه من أنه قد يترك العمل... إلخ، فكل ذلك يدل على عدم توكله على الله (يستثنى القلق الفطري الخارج عن إرادة الإنسان)، وكذلك من سرق مليمًا فليس بمتوكل؛ لأنه استعجل رزقه الذي كان سوف يأتيه حتمًا، والإنسان إذا أخذ مليمًا ليس من رزقه فلن يستطيع إنفاقه أو أنه يَضيع منه أو يصرفه في شيء لا قيمة له أو يمرض أو يمرض أحد من أبنائه فيصرفه في العلاج، أو يصاب بابتلاء بفقد شيء من ممتلكاته... إلخ.

ـ ثالثًا: الشعور بالحياء:

ـ تخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حالك؟ وكذلك الحال مع الله فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكًا لك، إنما هو ملك لله، وكذلك المال الذي معك إنما أعطاك إياه الله وهو مال الله، ولذلك إذا أردت أن تعصي الله فاخرج من تحت سمائه ومن فوق أرضه واخرج من ملكه إن استطعت!!

ـ فالإنسان يترك الذنب خشية أنه عندما يقف أمام الله فماذا يقول له؟ فهو يستحيي أن يضع نفسه في هذا الموقف المخجل حيث يأكل من رزق الله ويعيش على أرضه وينعم بنعمه ثم يقف أمامه وقد عصاه فماذا يقول له؟

*****

(١) التفسير القيم لابن القيم –دار ومكتبة الهلال– بيروت (ج: ١، ص: ٧٦).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (ج: ٢، ص: ٤٥٦).

ـ أثر المعرفة بحقيقة النفس والدنيا على السعادة النفسية:

ـ المعرفة بضآلة الدنيا تؤدي إلى عدم الخوف من آلام الدنيا أو الحزن الشديد عليها، ويؤدي كذلك إلى عدم الرجاء وطول الأمل في نعيمها أو الفرح الشديد بها، وهذا يجعل الإنسان في راحة واطمئنان لا يهمه شيء ولا يخيفه شيء.

ـ كما أن الذي يشعر بضآلة متع الدنيا وضآلة آلامها فإنه لا يبالي هل أقبلت الدنيا أم أدبرت.

ـ كما أن الذي يشعر بأنه مفارق للناس ومفارق لما كان يعمله في الدنيا ومفارق للأموال والدنيا وما فيها ومن فيها فإنه يعيش سعيدا مسرورا لأنه لا يبالي بشيء، فإذا افتقد شيئا من أمور الدنيا فلا يبالي لأنه سوف يترك ذلك الشيء وكل شيء حتما حينما يموت.

ـ عندما يشعر الإنسان بأن كل ما هو غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر فإنه عندئذ لا يخاف من أي شيء سوى الله ولا يحب أي شيء غير الله ولا يرجو أي شيء غير الله ولا يخضع لأي شيء غير الله ولا يستعين ويتوكل على أي شيء غير الله ولا يحزن أو يفرح بأي شيء لأن كل شيء لا قيمة له والقدر كله والعظمة لله وحده، فهو عندئذ تنقطع مشاعره وهمومه وأهدافه عن الدنيا وعن أي شيء سوى الله، وهذا يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسية والسعادة النفسية وراحة البال تجاه أمور الدنيا (حلاوة الإيمان).

******

الفصل الثاني

المفهوم الخاطئ عن معنى الجهل بالشيء

ـ غياب معرفة الله معناه الجهل بالله، لكن البعض يحسب أن الجهل بالله مسألة مجازية لأنه لا أحد يجهل الله، وسبب هذه المشكلة هو أن هناك مفهوما خاطئا عن معنى الجهل بالشيء، فالكثير يحسب أن معناه عدم السماع أو عدم الفهم لهذا الشيء ولكن هناك سبب ثالث للجهل وهو عدم الانتباه لخطورة ذلك الأمر، وهذا معناه أنك مهما سمعت عن الأمر وفهمت معناه فأنت لا تزال جاهلا به طالما أنك لا تزال لم تنتبه له.

ـ فالإنسان يكون جاهلا بالأمر إذا لم يسمع عنه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عن الأمر ولكن لم يفهم معناه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عنه وفهمه ولكن لم ينتبه لخطورته، فالجاهل بالله والآخرة هو سمع وفهم ولكن لم ينتبه، وهذا النوع الثالث من الجهل وهو الغفلة.

ـ إذن هناك نوع من الجهل اسمه (الجهل لعدم الانتباه) وهو ما ورد في الشرع تحت اسم (الغفلة)، لذلك اهتم القرآن بمسألة الغفلة وخطورتها وعلاجها، فهذا الكتاب تقريبا هو الكتاب الوحيد الذي يبين المعنى الصحيح بصورة واضحة لمعنى الغفلة وهي أن الغفلة تعني الجهل لعدم الانتباه.

ـ إذن مهما حدثتك عن معلومات هائلة عن الخالق وعن الآخرة وأفهمتك المعاني فأنت لا تزال جاهل بالله والآخرة طالما أنك لا تزال لم تنتبه لخطورة الأمر، وإذا تحقق هذا الانتباه فهنا فقط تحققت المعرفة الحقيقية بالله والآخرة.

ـ فهذا الكتاب يتحدث عن الخالق والآخرة بغرض تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة وليس بغرض مزيد من المعلومات للسماع والفهم.

ـ ولكن ما الهدف من تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة؟، الهدف من ذلك هو أنَّ تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة يؤدي الى المعرفة

الحقيقية بضعف الانسان أمام الخالق وبالتالي تتحقق الصلة بين الانسان والخالق وهي الخضوع وهي العبادة.

ـ فالطريق الوحيد لتحقيق العبادة (الخضوع) هو تحقيق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة مع وجود اليقين بالله والآخرة والرسل لأن معرفة أسماء الله وصفاته ومعرفة أوامر الله نعرفها من الرسل.

ـ شروط المعرفة الحقيقية:

ـ حتى تكون معرفة الانسان بالشيء معرفة حقيقية فلابد من وجود ثلاثة شروط هي السماع والفهم والانتباه.

ـ فالجهل له ثلاثة أنواع بحسب سبب هذا الجهل هي: الجهل لعدم السماع والجهل لعدم الفهم والجهل لعدم الانتباه لخطورة الأمر (الغفلة).

ـ الفرق بين الجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه (الغافل):

ـ إذا لم يسمع الإنسان ما تقوله له فهو لا يعرف، وإذا سمع ولم يفهم ما تقوله له فهو لا يعرف، وإذا سمع وفهم ولكن لم ينتبه ويعي خطورة ما تقوله له فهو لا يزال لا يعرف.

ـ فالجهل شيء واحد ولكن له أسباب مختلفة، فهناك الجهل لعدم السماع والجهل لعدم الفهم والجهل لعدم الانتباه (الغفلة).

ـ مجرد أن سمع الانسان عن الأمر وفهمه فهذه معرفة نظرية فقط، ولكي تكون معرفة حقيقية لابد من وجود شرط ثالث وهو الانتباه لخطورة الأمر.

ـ الجهل لعدم الانتباه يسمى بالغفلة، فالغفلة هي الجهل لعدم الانتباه، وعكس الغفلة هو المعرفة الحقيقية.

ـ فالجاهل الذي سمع وفهم ولم ينتبه مثل الجاهل الذي لم يسمع عن الأمر مطلقًا فهو يعيش كأنه لم يسمع عن الخالق وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة، فيعيش للدنيا رغم علمه النظري ويقينه بالله والآخرة.

ـ وكذلك فالجاهل الذي سمع وفهم ولم ينتبه مثل الجاهل الذي سمع ولكن لم يفهم، فهو يعيش كأنه لا يفهم معنى الغيبيات، كأن الغيبيات طلاسم وأمور مبهمة لا يفهمها، كأنه لا يفهم ما معنى الخالق وما معنى الآخرة فيعيش للدنيا رغم علمه النظري ويقينه بالله والآخرة.

ـ فالجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه جميعهم لا علاقة بينهم وبين الغيبيات كأن هذه الغيبيات غير موجودة، وجميعهم لا يتأثرون بالأمر كأنه غير موجود.

ـ الفرق هو أن الجاهل لعدم الانتباه (الغافل) يحسب أنه يعرف وهو لا يعرف؛ لأنه سمع وفهم الأمر، لذلك يسمى هذا النوع من الجهل بالجهل الخفي، فالمحصلة واحدة وهي أنه لا ترتبط مشاعره وهمومه وانفعالاته وطموحه وسلوكه وكلامه وعمله بالأمر لا سلبًا ولا إيجابًا (إلا قليلًا من الظاهر) كأنه لم يسمع عنه أو كأنه لا يفهم معناه.

ـ مفهوم الجهل لعدم الانتباه (الغفلة):

ـ قد يسمع الإنسان عن أمر ما ويفهمه ويتكلم به ويوقن به ويحسب أنه يعرفه تمامًا، وفي الحقيقة ورغم كل ذلك هو لا زال جاهلًا به لا يعرفه لأنه غير منتبه إليه.

ـ المعروف والمشهور عند الناس أن الإنسان طالما أنه سمع عن الأمر وفهمه فقد عرفه، وهذا الأمر خاطئ؛ فهناك عنصر آخر وهو الانتباه، فإذا سمع وفهم وهو غير منتبه فهو لا زال لا يعرف الأمر.

ـ فلا زال كثير من الناس يحسبون أنهم يعرفون الله والآخرة وفي الحقيقة هم لا يعرفون لعدم انتباههم لخطورة الأمر.

ـ الجهل بالله والجهل بالآخرة يقصد به الجهل لعدم الانتباه (الغفلة):

ـ الجهل بالله والآخرة يقصد به الجهل لعدم الانتباه لخطورة معنى الخالق والآخرة، والمعرفة بالله والآخرة يقصد بها الانتباه إلى خطورة معنى الخالق وخطورة معنى الآخرة.

ـ فالجهل بالغيبيات معناه أن يكون الإنسان كالسكران تجاه الغيبيات فهو يسمع ويفهم معنى الكلام لكن لا يعرف الأمر لأنه فاقد الانتباه.

ـ صفات الجاهل لعدم الانتباه (الغافل):

ـ يوصف بأنه يسمع، ويوصف بأنه لا يسمع فكيف يكون ذلك؟، هو يسمع ولكن لا فائدة من سماعه لأنه يسمع بغير انتباه لما يسمعه فكأنه لا يسمع، فيوصف بعدم السماع مجازا لأنه من ناحية النتيجة مثل الذي لم يسمع أصلا.

ـ وبالمثل يوصف بأنه يفهم ويعقل ويرى، ويوصف بأنه لا يفهم

ولا يعقل ولا يرى مجازا، لذلك يقول تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(١).

- المفهوم الخاطئ لمعنى المعرفة بالله والآخرة:

- المعرفة النظرية هي السماع والفهم، والمعرفة الحقيقية هي السماع والفهم والانتباه لخطورة ما يسمعه.

- قد يقول الإنسان أنه يعرف الله ويعرف الآخرة، وفي الحقيقة هو غير واع لما يقول، لأنه لو عرف من هو الله وما هي الآخرة لتغيرت كل مشاعره وهمومه وأعماله بزاوية مائة وثمانين درجة.

- فيحسب الإنسان أنه يعرف الله والآخرة تمامًا، وفي الحقيقة فهذه المعرفة هي معرفة نظرية فقط، أما المعرفة الحقيقية فهي غير موجودة وهو جاهل.

- وقد يكون الإنسان عبقريًا من علماء الذرة، وقد يبذل الإنسان عشرين سنة في التعليم وعشرين أخرى فيما يكتسبه من خبرة في عمله حتى يرتقي بخبرته إلى أعلى المناصب ولكن يكتشف بعد كل هذا أنه لا زال لا يعرف ماذا تعني كلمة (خالق) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (آخرة)؟!

- هناك أمور قد تبدو بسيطة جدًا إلى أبعد ما يمكن مثل معرفة الإنسان أن له خالقًا ومعرفة وجود الجنة والنار، فهي أمور تناسب سن الأطفال ليعرفوها، لكن العجيب جدًا أن يكتشف الإنسان بعد أن يبلغ من الكبر عتيًا وبعد أن امتلأ عقله من بحار العلم في أمور الدنيا والدين يكتشف أنه في حاجة إلى هذه المعرفة البسيطة وأنها لم تكن عنده سوى معرفة نظرية،

(١) البقرة: من الآية ١٧١.

وأنه يحتاج ليرجع إلى الوراء عشرات السنين ليعرف أن له ربًا وأن هناك آخرة بها جنة ونار معرفة حقيقية.

ـ إن مجرد العلم بأن لنا خالقًا فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين للخالق، وكذلك مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في غفلة وسكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم.

ـ ففي هذا الكتاب قد تكتشف أن معرفتك بالله والآخرة هي فقط معرفة نظرية وتكتشف أن حقيقة أمرك أنك جاهل لا تعرف الله ولا الآخرة وأنت لا تدري.

ـ ولماذا يحسب الإنسان أنه يعرف الله والآخرة وهو لا يعرف؟:

ـ لأن أصل المعرفة موجود، لأنه سمع عن الله والآخرة ويفهم ما معنى الخالق والآخرة.

ـ فالعنصر المفقود في المعرفة هو فقدان الانتباه لخطورة المعنى، فمهما سمع وفهم لا يزال لا ينتبه.

ـ مفهوم الغفلة (الجهل لعدم الانتباه ـ غياب المعرفة الحقيقية):

ـ الغفلة هي الجهل بالأمر لعدم الانتباه (غياب المعرفة الحقيقية).

ـ فالجهل نوعين هما الجهل لعدم السماع أو الفهم والجهل لعدم الانتباه للأمر، والغفلة هي الجهل لعدم الانتباه للأمر، فالغفلة هي نوع من أنواع الجهل وهي جهل متعمد لا يعذر الانسان به.

ـ الغفلة هي جهل لا يزول بالسماع والفهم:

ـ سبب هذا الجهل هو عدم الانتباه وليس السماع والفهم، لذلك فهما أسمعته وأفهمته فلن يعرف الأمر لأنه لا ينتبه للأمر.

ـ فالغفلة هي الجهل لعدم القدرة على الانتباه، لذلك فالغافل عندما يقرأ القرآن تمر عليه عبارات الخالق والآخرة كأنه لم يسمع عنها ولم يقرأها.

ـ الغفلة معناها عدم وجود المعرفة الحقيقية بالأمر بسبب عدم القدرة أو فقدان القدرة على الانتباه لخطورة ما يسمعه أو يفهمه، فالإنسان لديه وظيفة طبيعية فطرية عند التعامل مع أي معلومة يسمعها ويفهمها هي أنه ينتبه لخطورتها وبالتالي تتأثر مشاعره بهذا الأمر، لكن إذا فقد هذه الوظيفة الطبيعية أصبح سماع المعلومة وفهمها واليقين بها لا قيمة له كأنه لم يسمعها.

ـ العلاقة بين الغفلة والعبادة:

ـ الجاهل بالشيء لا يتأثر به سواء سلبا أو إيجابا ولا علاقة له به ويعيش كأنه غير موجود، فكذلك الجاهل بالله والآخرة لا يتأثر بوجود الخالق والآخرة سواء سلبا أو إيجابا ولا علاقة له بهما ويعيش كأنهما غير موجودان، وبالتالي لا تتحقق العبادة.

ـ فالمانع من تحقيق العبادة هو الجهل بالله والآخرة.

ـ الجهل له أسباب متعددة، فقد يكون الجهل بسبب عدم السماع للأمر أو عدم فهم معناه أو عدم الانتباه لخطورته.

ـ الجهل بسبب عدم الانتباه بخطورة الأمر يسمى بالغفلة، وقد يكون

معه يقين، فالغافل يتعامل مع الخالق والآخرة كأنه لم يسمع عنهما رغم وجود اليقين التام.

ـ فالطريق الوحيد لتحقيق العبادة هو الخروج من الغفلة (تحقيق المعرفة الحقيقية)، لأن الانسان إذا عرف الخالق عرف ضعف نفسه فخضع لله وعبده.

ـ المعرفة الحقيقية بالله (مع اليقين) تؤدي تلقائيا إلى عبادة الله تعالى، وغفلة الانسان عما يوقن به هو الذي يمنع من تحقيق العبادة، فالغفلة عكس المعرفة الحقيقية.

ـ فهو يوقن بالخالق والآخرة ونزول كلام الخالق للناس على رسله ويوقن بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة وأن الإنسان ضعيف أمام الخالق ورغم ذلك لا يحقق العبادة لأنه غافل عن خطورة ما يوقن به.

ـ فلا تتحقق العبادة إلا بزوال الغفلة عن الله والآخرة، وما يفعله الانسان من أمور العبادة وهو غافل عن المعبود لا معنى له وهو كالذي لا يدري ما يفعل.

ـ خطورة الغفلة:

ـ أخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أن هذه الحياة التي كان يعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، ويكتشف أنه كان غافلًا، ويكتشف أن الناس نيام فلما ماتوا انتبهوا، ففي هذا الكتاب نبين حقيقة الغفلة التي يعيشها أهل الدنيا ونبين خطرها وكيفية النجاة منها.

ـ فلو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إن هذا الكتاب هو تصور لما يمكن أن يقوله هذا الرجل.

ـ أعجب شيء أن يسمع الانسان عن شيء ويفهمه ولكنه لا يزال جاهلا به كأنه لم يسمعه، والأعجب منه أن يكون ذلك الأمر الذي يجهله هو من أبسط المعلومات التي يعرفها البشر وهو وجود الخالق والآخرة، والأعجب من كل ذلك أن الانسان قد يكون من العلماء المتخصصين في الدين ولديه معلومات كثيرة عن الخالق والآخرة لكنه لا يزال رغم كل ذلك جاهلا بالخالق والآخرة تماما كالذي لم يسمع مطلقا عن الخالق والآخرة، فذلك هو الجهل لعدم الانتباه (الغفلة).

ـ الغفلة معناها أن هناك رجلا يبحث عن شيء ما، ثم بعد فترة نسي ما يبحث عنه، ولكنه استمر في البحث لأنه وجد آخرين مثله يبحثون وهم أيضا نسوا ما يبحثون عنه، فأصبحت عملية البحث نفسه هي الهدف، فهذا هو حال الغافل نسي المغزى والمعنى والهدف المقصود من الدين والعبادة، فالمعنى مات والروح ماتت والظاهر موجود، لذلك فهذا الكتاب هو إحياء للمغزى والمعنى والهدف المقصود من الدين والعبادة.

ـ كلمات (العبادة) و(الخالق) و(الآخرة) و(الجنة) و(النار) موجودة عند الغافل لكن مات معناها فأصبحت كأنه لم يسمع عنها أو كأنه لا يفهم معناها أو كأنه لا يوقن بها أو كأن تلك الكلمات شيء تافه غير مؤثر أو كأن تلك الأشياء غير موجودة أصلا.

ـ فلا تتأثر بها مشاعره ولا همومه ولا أهدافه ولا حياته لا سلبًا ولا إيجابًا لكونه غافل عنها وغير منتبه لخطورة معناها وليس لأنه لم يسمع عنها أو لأنه لا يفهم معناها أو لأنه لا يوقن بها أو لأن تلك الكلمات شيء

تافه غير مؤثر أو لأن تلك الأشياء غير موجودة أصلا.

ـ فهناك ستة أسباب تجعل الانسان لا يتأثر بالشيء سواء سلبا أو إيجابا، الموجود منها هنا فقط هو عدم الانتباه، أما باقي الأسباب الخمسة السابق ذكرها فهي غير موجودة.

ـ مفهوم الغفلة عن الله والآخرة (الجهل بالله والآخرة):

ـ الغفلة عن الله والآخرة هي الجهل بالله والآخرة لعدم الانتباه وليس الجهل بالله لأنه لم يسمع عن الله والآخرة أو لأنه لا يفهم معنى الخالق والآخرة، والجهل شيء واحد ولكن الأسباب متعددة.

ـ بمجرد أن تخبر أي إنسان بأمر ما فإنه بذلك يكون قد عرفه، ولكن العجيب أن تخبر إنسان بأمر ما عدة مرات لكن لا يزال جاهلا بالأمر لم يعرفه بعد!، رغم أنه سمع الأمر وفهمه مرات كثيرة ولكن لا يزال جاهل به لم يعرفه بعد!

ـ فهذا الانسان لديه خلل ومرض منعه من المعرفة، هذا المرض هو عدم القدرة على الانتباه لأهمية الأمر.

ـ الجهل لعدم الانتباه (الغفلة) هو جهل متعمد:

ـ الحجة تقوم على الانسان بالمعرفة ولكن إذا كان الانسان هو المتسبب في تعطيل هذه المعرفة فهو غير معذور بجهله، بمعنى أن الرسل أخبرته بالخالق والآخرة فسمع وفهم ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه حتى ماتت عنده حاسة الانتباه فتعطلت عنده المعرفة فأصبح تماما كالذي لم يسمع أو كالذي لم يفهم ما قالته الرسل رغم أنه سمع وفهم وأيقن بما قالته الرسل.

ـ لاحظ أن الغفلة التي نتكلم عنها في هذا الكتاب هي الغفلة التي تمنع تحقيق المشاعر الأربعة (الحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع) وهذه الغفلة متعمدة وهي جهل متعمد وهي كفر إعراض قلبي حيث يمنع نفسه من معرفة الله والآخرة فيبقى غافلا كأنه لم يسمع عن الله والآخرة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

ـ المعرفة الحقيقية والمعرفة الكاذبة:

ـ المعرفة الحقيقية لها ثلاثة شروط هي السماع والفهم والانتباه، أما المعرفة الكاذبة فيتحقق فيها السماع والفهم مع غياب الانتباه (الغفلة)، ومعنى المعرفة الكاذبة هو أن الانسان يحسب أنه يعرف وفي الحقيقة هو جاهل لا يعرف الأمر، لذلك فمعرفة الله والآخرة والرسل ينبغي أن تكون معرفة حقيقية حتى تؤدي أثرها مع وجود اليقين.

****

ـ الجمع بين الجهل لعدم الانتباه (الغفلة) واليقين:

ـ هل يمكن لإنسان أن يكون موقنا بشيء يجهله؟، نعم قد يحدث ذلك ولكن هذا الجهل هو جهل الغفلة وليس جهلا لعدم السماع أو الفهم.

ـ اليقين في هذه الحالة موجود وهو يقين حقيقي وصحيح شرعا وحجة على الإنسان ولكنه يقين ميت لا معنى له ولا فائدة منه ويصبح كالجسد الميت لأنه يوقن بشيء يجهله، لأن الغفلة غطت على اليقين وحجبته فأصبح يقينا لا أثر له كالعدم، فأصبحت حقيقة الانسان عندئذ

أنه جاهل وهذا الجهل سببه عدم الانتباه لخطورة الأمر وليس لعدم السماع أو الفهم.

ـ الجمع بين الجهل واليقين معناه أن الإنسان لا يدرك خطورة ما يوقن به، فهو يوقن بالأمر ولكنه يتعامل معه كالجاهل الذي لم يسمع عنه فلا يتأثر به ولا يعمل له، والجهل هنا ليس لأنه لم يسمع عن الأمر أو لأنه لم يفهم معناه ولكنه جهل لأنه لم ينتبه لخطورته.

ـ فالجهل نوعين :

ـ النوع الأول هو جهل لغياب أصل المعرفة (لعدم السماع أو عدم الفهم): وهذا الجهل لا يمكن أن يجتمع مع اليقين، لأنه كيف يوقن بشيء لم يسمع عنه أو بشيء لا يعرف معناه.

ـ والنوع الثاني هو جهل بسبب غياب الانتباه (الغفلة): فهو سمع وعرف المعنى، وبالتالي فأصل المعرفة موجود وهو السماع ومعرفة المعنى وبالتالي يمكن أن يجتمع هذا النوع من الجهل مع اليقين، فهو عندئذ يوقن بشيء هو غافل عنه لا ينتبه لخطورته.

ـ الميزة الوحيدة بين الجاهل الذي معه يقين والجاهل الذي ليس معه يقين هي أن الجاهل الذي معه يقين يحتاج فقط إلى تحقيق المعرفة، أما الجاهل الذي ليس معه يقين يحتاج إلى تحقيق المعرفة وتحقيق اليقين.

ـ المرض المنتشر في كثير من الناس هو الجهل مع اليقين، أي الجهل بالله والآخرة (الغفلة عن الله والآخرة) مع اليقين بالله والآخرة، والمسلم مطالب بتحقيق المعرفة واليقين، فإذا لم يحقق المعرفة وحقق اليقين فعليه تحقيق المعرفة، رغم أن تحقيق اليقين قبل المعرفة أمر معكوس،

فالطبيعي تحقيق المعرفة أولا ثم اليقين.

ـ معنى اليقين مع الغفلة (الجهل لعدم الانتباه) أي أنه يتعامل مع المعلومة مثل جهاز الكمبيوتر تعطي له معلومات ومعطيات فيعطي لك نتيجة سواء كانت النتيجة مكسب أو خسارة فهو لا يشعر بخطورة النتيجة فليس لديه شعور بالقيمة (الانتباه) وليس عنده فرق بين أن يكون حجم النتيجة كبير جدًا أو صغير، وليس لديه فرق بين رقم مليون ورقم واحد، فكلاهما بالنسبة له مجرد أرقام، فليس لديه مشاعر ليفرح بالمكسب أو يحزن بالخسارة، فلا يوجد أي تفاعل سواء سلبًا أو إيجابًا، فالكمبيوتر يعطي نتيجة بأن هناك آخرة وغيبيات وأن ذلك حق فقط.

ـ فهو يتعامل مع المعلومة عن طريق الحسابات والنتائج فقط بغض النظر عن طبيعة المعطيات وطبيعة النتائج، فالأمر لا يهمه ولا يعنيه في شيء، ولا يتأثر بأهمية أو خطورة هذه المعطيات أو النتائج، فالمسألة لا تزيد عن كونها حسابات ونتائج لا أكثر، بغض النظر عن ما هي هذِه الحسابات وما هي هذِه النتائج، فمثلًا هو يصدق على أنه لو وضع عود كبريت مشتعل على البنزين فإنه يحدث حريقًا، لكن لا يهمه الأمر مطلقًا ولا يتصور مدى خطورته (لا ينتبه لخطورته).

****

الفصل الثالث

العنصر المفقود في المعرفة الحقيقية (الانتباه)

ـ مجرد أن يسمع الانسان عن شيء ما ويفهم معناه لا يكفي، فلابد أن يشعر ويحس بمعنى ذلك الشيء وينشأ عن ذلك أن يتأثر به إذا كان مؤثرا ويعيش بهذا المعنى، فشعوره بالشيء واحساسه بقيمته هو الانتباه وهو العنصر المفقود في المعرفة.

ـ الانتباه واليقظة هي وظيفة فطرية في الإنسان الطبيعي السليم، هذه الوظيفة إذا غابت أصبح الانسان مريضا بمرض الغفلة.

ـ الانتقال من الغفلة إلى المعرفة الحقيقية معناه إيجاد العنصر المفقود في المعرفة الحقيقية وهو الانتباه، ويتم ذلك من خلال التذكر.

ـ الانتباه للأمر الخطير معناه وجود علامات الانتباه وهي انفعال ودهشة وتعجب وتحير واستغراب وذهول وتهيب وانزعاج وانبهار وتيقظ وافاقة وخوف المهابة وفزع، والانتباه للأمر التافه معناه زوال علامات الانتباه.

ـ الانتباه لمدى قدرة الله وخطورة الآخرة معناه وجود علامات الانتباه تجاه الخالق والآخرة، والانتباه لمدى ضعف الانسان وضآلة الدنيا معناه زوال علامات الانتباه تجاه النفس والدنيا.

******

ـ مفهوم الانتباه:



ـ الانتباه هو رؤية الإنسان ونظرته لقيمة الشيء وشعوره بمدى خطورته وإحساسه بمدى أهميته.

ـ فقد يرى الشيء خطيرا أو تافها.

ـ والانتباه نوعين بحسب هل الشيء خطيرا أم تافها.

ـ الانتباه للأمر الخطير معناه وجود علامات الانتباه وهي انفعال ودهشة وتعجب وتحير واستغراب وذهول وتهيب وانزعاج وانبهار وتيقظ وافاقة وخوف المهابة وفزع، وكلما زادت أهمية وخطورة الشيء كلما زاد انفعاله ودهشته وتعجبه وتحيره واستغرابه وذهوله بالأمر.

ـ والانتباه للأمر التافه معناه زوال علامات الانتباه.

ـ الانتباه لمدى قدرة الله وخطورة الآخرة معناه وجود علامات الانتباه تجاه الخالق والآخرة، والانتباه لمدى ضعف الانسان وضآلة الدنيا معناه زوال علامات الانتباه تجاه النفس والدنيا.

ـ مفهوم الانتباه إلى الشيء الخطير:

ـ الطبيعي أن الشيء العظيم الخطير المعجز الخارق للأسباب العجيب المدهش المبهر الرهيب المهيب المخيف الغريب المحير المزعج المذهل المؤثر هو شيء لافت للانتباه ويدعو إلى التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والتيقظ والإحساس بالمفاجأة والإحساس بالخطر والشعور بالخطر وخوف المهابة، والنظر إلى الشيء نظرة تعظيم وانبهار واستغراب ودهشة وتعجب وتحير وقلق، والانفعال الذهني بالشيء، فهذه هي علامات الانتباه.

ـ علامات الانتباه للأمر الخطير:

ـ فالانتباه للأمر الخطير له علامات هي التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والإعجاب والتيقظ والإفاقة والإحساس بالمفاجأة والإحساس بالخطر والشعور بالخطر وخوف المهابة، والنظر إلى الشيء نظرة تعظيم وانبهار واستغراب ودهشة وتعجب وتحير وتأله وقلق من روعة وهول وغرابة وخطورة الأمر، والانفعال الذهني بالشيء.

ـ وهي شعور بالفزع والذعر والقشعريرة عندما يرى أو يسمع أمرًا غريبًا مفاجئًا لم يكن يتوقعه، وهي ما يشعر به الإنسان عندما يقوم من نومه فيجد نفسه في مكان موحش أو في قصر مثلًا، أو ما يشعر به الإنسان الذي أغمي عليه عندما يفيق من الإغماء، أو ما يشعر به الإنسان إذا رأى عفريتًا أو ما شابه ذلك.

ـ فعلامات الانتباه عبارة عن حالة نفسية فيها قلق وتحير واضطراب وانفعال من هول الأمر.

ـ علامات الانتباه تزيد بحسب مقدار ما في الشيء من أهمية وخطر:

ـ يزداد الانتباه والدهشة بحسب مقدار ما في الشيء من أهمية وخطر، فكلما كان الخطر أكبر كانت الدهشة أشد، وإذا كان تافهًا لا خطر فيه فلا دهشة منه ولا عجب ولا يلتفت له ولا يلقي له بالًا ولا يوجد أي انفعال ذهني تجاه ذلك الأمر.

ـ فالتعامل مع المعلومات يتناسب بحسب قيمة ومقدار المعلومة، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدًا وانفعال ذهني كبير، فمثلًا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته، أو إذا سمع بأنه تم اختياره لينال جائزة هائلة، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود الجنة والنار

والحساب في الآخرة واقتراب أجله، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفًا ورهبة وترقب فهذا معناه أنه لا عقل له وأنه غير منتبه لما يحدث حوله أو أنه كالميت، وهذا حال الغافلين عن الآخرة، وهكذا.

ـ مفهوم الانتباه إلى خطورة الغيبيات (علامات الانتباه للغيبيات):

ـ علامات الانتباه للغيبيات معناها التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والتيقظ والإفاقة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والإعجاب والاستغراب من روعة وهول وغرابة الغيبيات، وخوف المهابة من الغيبيات، والشعور بخطورة الغيبيات، والإحساس بخطورة الغيبيات، والشعور بمهابة الغيبيات.

ـ وكون ذلك الشيء غيبي لا تراه فهذا يزيد من الإثارة والقلق والتخوف والحيرة والدهشة، فالملائكة والجن حولك وأنت لا تراهم، فهذا أمر معجز خارق للعادة.

ـ ولاحظ أن خوف المهابة من الجنة والنار وأهوال القيامة ليس خوف عقاب ولكنه خوف مهابة ودهشة تجعل الإنسان يقشعر بدنه ويجعله متحيرًا قلقًا من وجود حياة أخرى أبدية للإنسان فيها نار رهيبة وجنة رهيبة.

ـ أمثلة توضح علامات الانتباه للأمر الخطير:

ـ لو قالوا لك أن هناك رجلا يسير الآن في الشارع طوله ثلاثة أمتار وأنت قد سمعت وصدقت الأمر ولم يكن لديك أي انفعال أو رد فعل أو انتباه واستغراب ودهشة من الأمر وتحرك لرؤيته فهذا معناه أنك لا تزال لم تعرف الأمر بعد.

ـ أنت إذا رأيت ساحرًا، فإنه يحدث لك خوف مهابة مما يصنع وحب إعجاب بما يصنع: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[1].

ـ انظر إلى حال رجل يذهب لمقابلة ملك من ملوك الدنيا، فإنه يستعد ويتهيأ نفسيًا لأنه أمر رهيب، إنه يكون في قلق واضطراب، وعندما يقف عند الملك قد يتلعثم من هيبة الموقف، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي الشعور بالمهابة، فإذا كنت تدعي الشعور بالمهابة من الله فهل عندك هذه الحالة النفسية؟!

ـ انتقال البشر جميعهم من الحياة على هذه الكرة الأرضية الى الحياة في مكان آخر على أرض غير هذه الأرض هي مسألة مثيرة جدا وعجيبة لكن ذلك عند البعض هو أمر عادي جدا لا شيء فيه غريب أو يدعو للدهشة والعجب.

ـ علامات الانتباه لا علاقة لها بالثواب والعقاب:

ـ علامات الانتباه موجودة مع الأمر الخطير سواء كان فيه ثواب أو عقاب أو ليس فيه ثواب أو عقاب، فالإنسان يتعجب ويندهش من النار ومن الجنة ومن قدرة الله ومن أي أمر خطير.

ـ علامات الانتباه موجودة مع الأمر الخطير الذي فيه ثواب أو عقاب ليس لكونه فيه ثواب وعقاب ولكن لكونه أمر خطير، فالإنسان يتعجب من هول النار سواء كانت تضره أو بعيدة عنه، وفي نفس الوقت يخاف من النار إذا كانت قريبة منه ويمكن أن تضره، فالتعجب هو من علامات الانتباه، أما الخوف يكون من العقاب، ولكي يتحقق الخوف من النار لابد أولا حدوث الانتباه والتعجب من خطورتها.

ـ والإنسان إذا ذهب إلى قسم الحرائق بأي مستشفى ورأى ما فعلته

---

(١) الأعراف: ١١٦.

النار بهؤلاء المرضى فإنه يتألم رغم أنه لم يصب بأي أذى من النار، فهذا هو الشعور بالمهابة من النار، وينشأ عن ذلك الخوف من أن يقترب من النار أو تدركه النار فيصاب مثلهم، وهذا هو خوف العقاب أي خوف الوصول للنار، فإذا لم يشعر الإنسان بالتألم لهؤلاء المرضى فهذا معناه أنه لا يعرف ماذا تعني كلمة نار معرفة حقيقية، وهو ليس حي ولا عقل له، وبالتالي فلن يخاف من العقاب.

ـ ولأن قدرة الله هي أعظم من كل شيء فمن انتبه لذلك خاف من مهابة قدرته سبحانه، ففي تفسير النيسابوري: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمر اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ... الخشية نوعان: خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥٠] وإلى هذا أشار بقوله: ﴿ويخشون ربهم﴾، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها. وإليه الإشارة بقوله: ﴿ويخافون سوء الحساب﴾)(١)، وفي تفسير الرازي: ﴿وقال أصحاب الحقائق: الخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال، أما خوف العقاب فهو للعصاة، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة﴾(٢)، وفي تفسير الرازي أيضًا: ﴿قال العارفون: الخوف خوفان: خوف العقاب

(١) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ٤، ص: ١٥٣).

(٢) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (١٥ / ٤٤٣).

وخوف الجلال، والأول نصيب أهل الظاهر، والثاني نصيب أهل القلب، والأول يزول، والثاني لا يزول»[1]، ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2].

وفي تفسير النيسابوري: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قال أهل الاشتقاق: إن تركيب (خ ش ى) يلزمها الهيبة ومنه للسيد ولكبير السن، وتركيب الخوف يدل على الضعف ومنه الخفاء، وكل موضع ذكر فيه الخشية أريد بها معنى عظمة المخشي منه»[3]، وفي تفسير ابن كثير: «وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن فَرَقًا من عظمة الله»[4].

ـ استمرارية الانتباه للأمر الخطير:

ـ طالما أن الخطر ما زال قائمًا لابد من استمرارية الانتباه، فطالما أن قدرة الله دائمة فالانتباه لخطورتها يكون دائمًا، وطالما أن الآخرة لم تأتِ بعد فالانتباه لخطورة مجيئها يكون مستمرًا.

ـ أهمية وظيفة الانتباه:

ـ الانتباه هو مولد ومحرك المشاعر والهموم والجوارح بشرط وجود اليقين.

ـ لأنه إذا انتبه إلى الشيء أحبه إذا كان جميلًا حميدًا، وخافه إذا كان مخيفًا، وكرهه إذا كان كريهًا وينشأ عن ذلك العمل... إلخ.

---

(١) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: ٣، ص: ٤٨٢).

(٢) إبراهيم: ١٤.

(٣) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ٦، ص: ١٧٩).

(٤) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: ٥، ص: ٢٦٦).

ـ الإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته (الانتباه لمدى خطورته)، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر به ولن يعمل له.

ـ فإذا عرف الإنسان الخالق والآخرة معرفة حقيقية فإن كل ما يتعلق بحياته ومعيشته من مشاعر وأهداف وهموم وسلوك وانفعالات وأخلاق وكلام وعمل سوف يتعلق بالخالق والآخرة مبتعدًا عن الدنيا وسوف تتغير حياته كلها بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ فالانتباه لخطورة معنى الخالق والآخرة والرسل مع وجود اليقين بالله والآخرة والرسل يؤدي إلى تلقائيا إلى العبادة وهو الطريق الوحيد لتحقيق العبادة.

ـ فأول الاستجابة للدين هي أن ينتبه الإنسان لخطورة الغيبيات، لذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ﴿فَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ الْيَقَظَةُ وَهِيَ انْزِعَاجُ الْقَلْبِ لِرَوْعَةِ الِانْتِبَاهِ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَاللَّهِ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الرَّوْعَةَ، وَمَا أَعْظَمَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ إِعَانَتَهَا عَلَى السُّلُوكِ! فَمَنْ أَحَسَّ بِهَا فَقَدْ أَحَسَّ وَاللهِ بِالْفَلَاحِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْغَفْلَةِ فَإِذَا انْتَبَهَ شَمَّرَ لِلَّهِ بِهِمَّتِهِ إِلَى السَّفَرِ إِلَى مَنَازِلِهِ الْأُولَى، وَأَوْطَانِهِ الَّتِي سُبِيَ مِنْهَا﴾(١).

ـ مفهوم الانتباه لمدى قدرة الخالق:

ـ معنى كلمة (إله) في اللغة: أي الذي تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته والتي تتمثل في خرق الأسباب فتحبه إعجابًا بمدى قدرته الهائلة وتخاف من هيبته، ففي النهاية في غريب الأثر: (أَلِهَ يأْلَهُ إذا تَحَيَّر، يُريد إذا وقع العبد في عظمة اللّه تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أَبْغَض الناس حتى لا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٤٢).

يميل قلبه إلى أحد)[1]، وفي غريب الحديث لابن قتيبة: (أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيَّر

كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ عند التفكّر في عَظَمة اللّه... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة

لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلَّ)[2].

****

(١) النهاية في غريب الأثر -المكتبة العلمية- بيروت (١ / ٦٢).
(٢) غريب الحديث لابن قتيبة -مطبعة العاني- بغداد (٣ / ٧٢٨-٧٢٨).

الفصل الرابع

الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا)

ـ الانسان إما مغرور بنفسه فلا يخضع أو يشعر بضعفه فيخضع، فالسبب الوحيد لعدم الخضوع هو الغرور بالنفس (الغرور بما فيه وما عنده من النعم)، والسبب الوحيد للخضوع هو الشعور بالضعف.

ـ الغافل عن الله والآخرة يرى الدنيا عظيمة ويرى نفسه قويا بما عنده من النعم لأنه لا يرى غير الدنيا، وهذا الغرور يؤدي الى شعور بالقيمة والمكانة والقدر (عكس الخضوع)، وبالتي لا يخضع.

ـ أما من عرف الله والآخرة فقد عرف ضعف نفسه وبالتالي يخضع.

ـ فعكس المعرفة الحقيقية بضعف الانسان هو المعرفة الخادعة بقوة الانسان (الغرور بالنعم).

ـ فأساس العبادة والهداية هي الانتقال من الغرور بالنفس الى الشعور بضعف النفس، أي الانتقال من الشعور الخادع بالمكانة والعظمة إلى الشعور بالخضوع، وذلك من خلال الانتقال من الغفلة إلى المعرفة الحقيقية بالنفس.

ـ فلا تتحقق العبادة حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من قلب الإنسان، ولا يحدث هذا إلا إذا زالت الغفلة عن الله والآخرة.

ـ مفهوم النعم:



ـ النعم عبارة عن أمرين هما الانسان نفسه والدنيا، فالإنسان هو نفسه عبارة عن نعم كالسمع والكلام والرؤية والمعدة والعقل والقلب وكل شيء في الانسان، وكذلك الدنيا كلها نعم كالماء والهواء وتشمل أيضا ما يتمتع به الانسان كالمال والأولاد والشهوات والتكنولوجيا، فالله جعل كل شيء مسخر للإنسان وبالتالي فكل شيء هو نعم للإنسان.

ـ مفهوم الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا):

ـ الغرور بالنعم معناه أن الانسان يرى نفسه قويا بما عنده من النعم، وسبب ذلك الغفلة عن الله والآخرة، لأنه لو عرف الله والآخرة لعرف حقيقة ضعفه.

ـ الانسان إما أنه يعرف الحق أو يجهل الحق أو يعرف عكس الحق، فالمعرفة بالحق هي المعرفة بالله والمعرفة بحقيقة النفس، والجهل بالحق هو الغفلة عن الله، والمعرفة بعكس الحق هو الغرور بالنفس.

ـ فالناس صنفين الصنف الأول يعرف الله ويعرف نفسه، والصنف الثاني غافل عن الله ومغرور بنفسه (أي جاهل بالله ويعرف عكس حقيقة نفسه).

ـ وسبب الغرور بالنفس هو الغفلة عن الله، لأنه إذا عرف الله فقد عرف حقيقة نفسه.

ـ المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة تؤدي إلى المعرفة الحقيقية بضعف الانسان، والمعرفة الحقيقية بضعف الانسان تؤدي الى الخضوع.

ـ الغرور بالنعم عكس المعرفة الحقيقية، والغرور بالنعم هو المعرفة الخادعة بقوة الانسان لما عنده من النعم، ويؤدي الى شعور الانسان بأن له قدر ومكانة وقيمة وعظمة وأنه ليس بضعيف ويؤدي الى عدم الخضوع.

ـ الإنسان له قوة والله سبحانه له قوة، قوة الإنسان تتمثل في النعم التي أنعم الله بها على الإنسان من إرادة وعقل وسمع ومال ومسكن وزروع ... الخ، الإنسان عليه أن يستسلم لقوة الله لأن قوة الله أعظم من قوة الإنسان ولأن ما عند الإنسان من قوة هي في حقيقتها نعم من الله وليست قوة له، فمثلا لو أن إنسانا وجد أمامه جيشا هائلا مسلحا بكل أنواع الأسلحة فإن عليه أن يستسلم ويلقي بسلاحه في الأرض، ولكن الإنسان الأحمق يتعامل مع قوة هذا الجيش كأنه لا يراه حتى لا يستسلم فيتناسى وجود هذا الجيش.

ـ وبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان على أنها ملك له وأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له، لذلك لا يريد أن يستسلم.

ـ نعم الله على الانسان عبارة عن نعم في ذات الانسان كالصحة والسمع والكلام والرؤية ونعم الدنيا كالمال والأولاد والشهوات والتكنولوجيا.

ـ النعم التي في ذات الانسان ضئيلة بالمقارنة بقدرة الله تعالى، فالقدرة على السمع ليست بشيء أمام قدرة الله على السمع، وهكذا في كل شيء، والله سبحانه لا يتعب ولا يمرض ولا ينام ولا يموت سبحانه وتعالى.

ـ ونعم الدنيا بالمقارنة بنعم الآخرة فهي ضئيلة جدا وإلى زوال سواء بالمقارنة بين مدة بقاءها أمام الخلود في الآخرة أو بقيمتها أمام مدى قيمة النعيم في الجنة.

ـ كما أن نعم الدنيا ضئيلة في حد ذاتها فلا يستطيع الانسان أن يكثر من متع الدنيا عن حد معين، فمثلا إذا أسرف في الطعام تعب، كما أن الحصول على متع الدنيا ليس بالأمر السهل فالمتنافسين عليها كثير، كما أن الله وضع للإنسان قدر معين من المتع والرزق لا يستطيع أن يستزيد

منه كما أن الانسان لا يستطيع أن يمنع المرض والابتلاءات...الخ.

ـ الإنسان مغرور بما أعطاه الله من نعم كالعين والأنف والهواء وبما أعطاه من متع الدنيا كالمال وشهوات النساء والطعام والشراب، فهو لا يقبل أن ينظر إلى الملايين من الأموال على أنها تافهة، ولا يقبل أن ينظر على متع الشهوات على أنها تافهة، ولا يوافق على أن كل النعم مجرد عطاء من الله عليه، رغم أن كل ذلك هو مقتنع به، لكنه مغرور بنفسه وبالدنيا ولا يريد أن يشعر بأنه ليس بضعيف.

ـ لماذا لا ينتبه الإنسان إلى حقيقة نفسه وحقيقة الدنيا فيراها عظيمة القيمة على عكس حقيقتها؟:

ـ الانسان يوقن بأن النعم ضئيلة وإلى زوال وفي نفس الوقت ينظر اليها نظرة تعظيم وانبهار فتتعلق مشاعره بنفسه وبالدنيا ويغتر بنفسه وبما عنده من نعم ويرى نفسه قويا بذلك فلا يخضع باعتبار أنه قوي.

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة جعل الدنيا شيء تافه لا قيمة له، وإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة لكانت الدنيا عظيمة جدًا؛ لأنه ليس أمام الإنسان شيء غيرها.

ـ فإذا انتبه الإنسان أولًا إلى حقيقة الآخرة رأى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يحدث له انفعال ذهني أو تعجب أو دهشة أو انبهار أو رهبة أو مهابة أو استغراب أو تحير أو انزعاج أو ذهول أو تهيب أو إعجاب بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو أي أمر من أمور الدنيا، وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم.

ـ تصور ظاهر الأمر مع عدم تصور مقارنته بغيره يؤدي إلى رؤية الشيء التافه عظيمًا ورؤية الشيء العظيم تافهًا، وينشأ عن ذلك شعور خادع بقيمة الدنيا فيراها عظيمة القيمة رغم ضآلتها وفنائها، فيرى الأمور

مقلوبة.

ـ فتكون نظرة الإنسان للمال وأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته، وكذلك نظرته إلى حجم المتعة من شهوة النساء أو النظر إلى العورات وهكذا، في حين نظرته إلى قدر الله مثل نظرته إلى أي شيء لا ينفع ولا يضر، فقدرة الله لا تلفت نظره أصلًا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية، وكذلك نظرته إلى الآخرة تكون مثل نظرته إلى الحواديت وهكذا.

ـ أما إذا نظر الإنسان إلى حقائق الأشياء تغيرت نظرته إلى ما حوله، لأنه يكتشف حقيقة الدنيا فيشعر بضآلتها، ويكتشف حقيقة الآخرة فيشعر بخطورتها، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية، فمثلًا لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] وهكذا.

ـ لماذا يرى الإنسان شهوات الدنيا كبيرة ولا يستطيع مقاومتها؟ ذلك لأنه لم يقارنها بشهوات الجنة أو بالعقاب على هذه الشهوات فلا وجه للمقارنة، فمعنى أن الإنسان لا يزال لا يستطيع مقاومة شهوات الدنيا هو أنه لا يزال لم يعرف الآخرة، وكذلك طالما أن الإنسان لا يزال يغضب وينفعل ويتأثر بآلام الدنيا ومشاكلها هو أنه لا يزال لم يعرف أن الدنيا إلى فناء وأن آلام الدنيا ليست بشيء أمام آلام النار.

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيره، فإذا أغمض الإنسان عينه عن

(١) الشعراء: ١٣٥.

صفات وقدرات الخالق فنظر إلى نفسه ولم ينتبه إلى عظمة الخالق تكون لديه معرفة خاطئة بحقيقة نفسه فيرى نفسه قويا، فيغتر بنفسه بما لديه من صفات وقدرات وحياة يتمتع بها وبما عنده من الدنيا.

ـ فلابد من المقارنة بين قوة الله وقوة الإنسان، ورؤية الله ورؤية الإنسان وقدرة السمع عند الله وقدرة السمع عند الإنسان وبين الأمر الطبيعي والأمر الخارق للأسباب، وبين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، والمقارنة بين صحة الإنسان في الدنيا وصحته في الجنة، وقصر عمره في الدنيا أمام طول عمره في الآخرة، والمقارنة بين الشهوات والعقاب عليها، وهكذا حتى يفيق الإنسان من الغيبوبة وينتبه من غفلته إلى أن قدرة الله وهول الآخرة خطر واقع رهيب، وعندئذ تتحقق المعرفة بالله والآخرة.

ـ فإذا أغمض الإنسان عينه عن الآخرة فلم ينتبه لخطورتها رأى الدنيا على عكس حقيقتها، لذلك فهو يراها عظيمة لأنه ليس أمامه غير الدنيا فهو يتعجب ويندهش وينبهر ويرهب ويهاب ويستغرب ويتحير ويذهل ويتهيب وينبهر من مدى عظمة وأهمية وقيمة المال ومن مدى حلاوة الشهوات ومن مدى عظمة المناصب وغير ذلك من أمور الدنيا: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخرة أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، ويؤدي ذلك إلى أن تتعلق مشاعره بالدنيا ويعيش لها، لذلك فالعلاج الوحيد لتعلق الإنسان بالدنيا والشهوات والمعاصي هو معرفة الله والآخرة، ومن المستحيل أن يترك الإنسان الشهوات والمعاصي إلا إذا عرف الآخرة معرفة حقيقية مع وجود اليقين.

ـ وكلما ضعف الانتباه لحقيقة الآخرة كلما رأى الدنيا عظيمة، وكلما قوي الانتباه لحقيقة الآخرة كلما رأى الدنيا ضئيلة.

---

(١) الإسراء: ٧٢.

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بقوة ما هو قوي وضعف ما هو ضعيف ففي عقله خلل، هذا الخلل هو عدم مقدرته على الشعور بقيمة الأشياء، وإذا فقد الإنسان الشعور بقيمة الأشياء رأى القوة والعظمة في المال أو الجاه أو الشهوات ولم يشعر بقوة الله وعظمته فكان خوفه وخضوعه وتعظيمه وحبه ورجاءه في الدنيا وتوكله عليها وعمله من أجلها فهذا هو عبادة الهوى.

ـ النعم قد تؤدي إلى الهداية وقد تؤدي إلى الضلال بحسب نظرة الانسان إليها:

ـ إذا نظر الانسان إلى النعم على حقيقتها (أي على أنها ضئيلة) وعلى أنها نعم من الله للإنسان قادته الى الهداية وعبادة الله، وإذا نظر الانسان إلى النعم على عكس حقيقتها (أي على انها عظيمة القيمة) فاغتر بها جعلته يرفض أن يعيش خاضعا لله تعالى.

ـ هل النعم عظيمة أم ضئيلة؟:

ـ بدون المقارنة بشيء فالنعم عظيمة لأنها مهمة جدا للإنسان وبدون هذه النعم لا يستطيع أن يعيش فهو في حاجة شديدة لها، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها، فوجودها دليل على قوة الانسان وعدم وجودها دليل على ضعف الانسان.

ـ لكن بالمقارنة بغيرها فهي ضئيلة جدا، فالنعم عبارة عن أمران هما صفات في الانسان كالقدرة على السمع والقدرة على الرؤية ونعم الدنيا كالماء والهواء والتكنولوجيا، إذا قارنا بين النعم التي هي قدرات في الانسان وبين قدرات الخالق فهي لا شيء، وإذا قارنا بين نعم الدنيا ونعم الجنة فهي لا شيء، إذن فحقيقة النعم أنها ضئيلة جدا.

ـ فإذا لم يكن هناك خالق ولا آخرة فالنعم عظيمة جدا للإنسان، وفي

هذه الحالة لا تسمى نعم على افتراض أن الانسان هو الذي يملكها وهو الذي صنعها لنفسه، ففي هذه الحالة فالنعم عظيمة ومصدر قوة للإنسان.

ـ ضآلة النعم التي عند الانسان دليل على ضعفه، وهذا لو افترضنا أن الانسان يمتلك النعم وهو الذي اوجدها لنفسه فهي ضئيلة بالمقارنة، فما بالك والانسان لا يملك هذه النعم الضئيلة ولا هو الذي اوجدها لنفسه فهذا دليل على الضعف التام للإنسان.

ـ غرور الانسان بالنعم واعتبارها قوة له دليل على أنه غافل عن الله والآخرة ودليل على أنه يتعامل مع النعم كأنه لا خالق ولا آخرة وكأنه لا أحد خلقها له وأنعم بها عليه وإنما هو الذي أوجدها لنفسه وهو الذي يملكها، فقوم قارون عندما قالوا له: (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قال لهم: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)، وفي تفسير البحر المحيط: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أَيْ بِسَعْيِي وَاجْتِهَادِي، وَلَا يَرَاهَا أَنَّهَا مِنَ اللهِ ﴾ (١).

ـ النعم دليل على الخالق لأن الانسان لا يستطيع إيجادها وعلمه قاصر على إتقانها بدقةٍ معجزةٍ تلبي احتياج الانسان، ولكن الانسان يتغافل عن ذلك ويتعامل مع النعم على أنها قوة له وأنه هو الذي أوجدها لنفسه.

****

ـ التعامل مع النعم على أنها دليل على قوة الانسان:

ـ هناك طريقتين للتعامل مع النعم:

---

(١) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر – بيروت (٩/ ٣١٦)

ـ إما أن يتعامل الانسان مع النعم على أنها دليل على ضعف الانسان، وهذا هو التعامل الصحيح، أو يتعامل الانسان مع النعم على أنها دليل على قوة الانسان وهذا هو الغرور بالنعم.

ـ عندما يغمض عينه عن قدرات الخالق وخطورة الآخرة يرى النعم عظيمة فيجعلها هدفه ويعيش لها، فينظر الانسان الى النعم على أنها ملكا له وأنه هو الذي أوجدها لنفسه ولم يعطها أحد له، ففي هذه الحالة يغتر بها ويراها قوة له.

ـ وفي هذه الحالة المذموم ليس النعم ولكن المذموم هو الاغترار بها، فالنعم كالصحة والنظر والمال والأولاد والتكنولوجيا في حد ذاتها ليست مشكلة بل هي فضل من الله نرجو منه الاستزادة، ولكن المشكلة هي هل الانسان مغرور بها ويحسب أنه يمتلكها ويعتبرها مصدر قوة له وبالتالي لا يخضع باعتبار أنه قوي أم لا؟

ـ قدرة الانسان على صنع المعجزات وصنع الحياة المدنية الحديثة من خلال العلم المادي هائلة جدا لكنها لا شيء أمام قدرة الله تعالى، فمن أغمض عينه عن قدرة الله اغتر بقدرة الانسان ورأي أن الانسان قوي وبالتالي لا يعيش معيشة الخضوع وهو في القرن الحادي والعشرين، ففي تفسير مفاتيح الغيب: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: 83]... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : ٧] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم : ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة اللّه تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها، واعتقدوا

أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به)[١]، وفي التفسير القرآني للقرآن : قوله تعالى : ﴿ ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه من بلاء وعذاب في الآخرة ، هو بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من غرور بما ملكتم فيها ، وزهو وعجب بما بين أيديكم من زخرفها ومتاعها ، فصرفكم ذلك عن أن تنظروا إلى ما وراء يومكم الذي أنتم فيه ، فقطعتم حياتكم في فرح ومرح، ولهو وعبث ﴾[٢] أي فرح غرور بالدنيا كأنهم هم الذين جلبوا متع الدنيا لأنفسهم فهي ملكهم وهو أقوياء بذلك فاستكبروا عن الشعور بالخضوع لله القوي فمصيرهم النار باستكبارهم .

ـ لقد رفض كفار قريش الإسلام لأنه يسويهم بالعبيد لأنهم لا يريدون أن يتركوا جاههم وسلطانهم فأغلقوا عقولهم عن دعوة الرسول ﷺ.

ـ فبدلا من أن تكون نعم الله سببا لمعرفة الله وشكره ومحبته جعلها بعض الناس سببا لرفض دعوة الرسل لأنهم اغتروا بهذه النعم وحسبوا أنهم أقوياء بها ولم يعتبروها نعم من الله ولكن اعتبروا أنهم مالكوها وصانعوها وأنهم أقوياء بها فرفضوا الخضوع فأهلكهم الله وأهلك النعم التي اغتروا بها، فقوم عاد كان عندهم من صور القوة والمدنية الكثير: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٣)، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾(٤)،

---

(١) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت (ج: ٢٧، ص: ٥٣٥)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي – القاهرة (ج: ١٢، ص: ١٢٦٩)

(٣) فصلت: ١٥

(٤) الشعراء: ١٢٨، ١٢٩

فكان مصيرهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(١)، وهذا هو مصير الذين يغترون بأنفسهم ويدعون القوة بما عندهم من النعم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢)، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنـاً آخَرِينَ (٣) ، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثـاً وَرِئْيـاً﴾(٤) ، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعـاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٥).

****

(١) الحاقة: ٧
(٢) الروم: ٩
(٣) الأنعام: ٦
(٤) مريم: ٧٤
(٥) الأحقاف: ٢٦



الفصل الخامس

كيف تؤدي المعرفة الحقيقية إلى تأثر المشاعر؟

ـ تحقيق المشاعر:

ـ يحسب البعض أن المشاعر يمكن تحقيقها بافتعالها وإيجادها تعمدًا مثلما يفعل مع أعمال الجوارح، وهذا خاطئ، فمثلا إذا كنت تريد من إنسان أن يحب شيئًا ما أو يكرهه فلا يمكن أن تجعله أن يفعل ذلك أبدًا إلا بطريقة واحدة هي أن تجعله يعرف ذلك الشيء وصفاته الجميلة معرفة حقيقية فيحبه.

ـ فالإنسان لن يستطيع أبدًا أن يحقق حب الله والخوف منه ورجاءه إلا كأثر تلقائي لمعرفة الله مع وجود اليقين.

ـ وقد يحسب البعض أن حب الله معناه طاعته، فحب الله هو شعور من المشاعر التي في القلب وليست عملا بالجوارح، والطاعة هي أثر لهذا الحب ودليل عليه، ومعنى الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾(١) أي إذا كنت فعلا صادقا محققا لحب الله في قلبك فلماذا لا تطيعه.

ـ كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة؟:

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي، أو العلاقة بين العاجز والقادر، أو العلاقة بين العبد والسيد، أو العلاقة بين الذليل والعزيز، أو العلاقة بين الفقير والغني، أو العلاقة بين المملوك والمالك، أو العلاقة بين الذي لا

(١) آل عمران: ٣١.



ينفع ولا يضر والنافع الضار، هي علاقة خضوع ناشئ من الحب الشديد إعجابا بقوته ورجاء في ثوابه وخوفا من عقابه.

ـ معرفة الإنسان بالله تؤدي إلى حبه سبحانه، ومعرفة الإنسان بالآخرة تؤدي إلى خوف العقاب ورجاء الثواب.

ـ الغيبيات هي أعجب من الخيال والسحر، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد، لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى؟!، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، والقضية ليست في التصديق فقط ولكن في انتباه الإنسان لهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ فإذا تكرر التذكر لخطورة الغيبيات على هذا النحو يؤدي ذلك إلى الانتباه لخطورتها، فيؤدي ذلك إلى الحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع.

ـ لكن الذي يتعامل مع الجنة في برود تام هو مغيب عن الوعي.

ـ المعرفة الحقيقية بصفات الله تعالى تؤدي إلى تأثر المشاعر:

ـ صفات الخالق كلها صفات حميدة وخطورتها تفوق الوصف وتجعل الإنسان يتحير فيها من مدى عظمتها، وهذا التحير هو التأله، وهذه الصفات نتعامل معها من أربعة أوجه هي:

١ـ صفات حميدة.

٢ـ صفات خارقة.

٣ـ صفات مسيطرة وغالبة.

٤ـ توحيد الصفات.

ـ أولًا: صفات الله هي صفات حميدة:

ـ الإنسان يحب القوي ويكره المريض الضعيف، ولاحظ أن هناك فرق بين القوي وبين الظالم، وهناك فرق بين الضعيف وبين المظلوم، فالظلم من صفات الضعف وليس من صفات القوة.

ـ الصفات الحميدة محبوبة، فالإنسان يحب الصفات الحميدة ويحب من يتصف بها، ويكره الصفات الذميمة وصفات النقص والعجز، ويكره من يتصف بها، فمثلًا الإنسان لا يحب النظر إلى إنسان أعمى أو معوق أو أصابه حرق أو مريض، وكذلك لا يحب أن يصاحب إنسانًا غبيًا أو ضعيفَ البنية أو بخيلًا أو ليس بجميل المنظر أو ظالمًا... إلخ، وعلى العكس فالإنسان القوي الذكي الكريم حسن المنظر يحبه الناس.

ـ الصفات الحميدة في الإنسان مثل الشجاعة والكرم والنجدة والقوة... إلخ هي صفات محبوبة، والصفات السيئة مثل الجشع والظلم والقسوة والطمع... إلخ هي صفات مكروهة، الله سبحانه له كل الصفات الحميدة فهو ينعم على الناس ولا يريد شيئًا منهم ويرحمهم ويغفر لهم ويحلم عليهم ويتصف بكل الصفات الحميدة الجميلة.

ـ ومن الصفات الحميدة الكرم والإنعام، فالإنسان يحب الكريم ولو لم يعطه شيئًا فالإنسان يحب الله لأنه الكريم المنعم.

ـ والقوة من الصفات الحميدة، ولاحظ أنه لو أن إنسانًا اعتدى على غيره فأفقده قواه بغير حق أو أخذ منه ماله بغير حق فهو ظالم، والظلم صفة نقص وذم، والاحتياج إلى الغير صفة نقص وذم.

ـ ومن صفات الضعف في الإنسان أنه يتعرض للمرض والموت ويتعرض لزوال النعم التي يحسب أنه بها قوي.

ـ وكل صفات الله تعالى محبوبة، والتكبر عكسه الخضوع، فالتكبر

صفة قوة والخضوع صفة ضعف ونقص، وهناك فرق بين تكبر الظالم على المظلوم، وتكبر القوي حقًا على الضعيف حقًا، فالظالم ليست له قوة حقيقية ولكنه أخذها من المظلوم، والمظلوم كانت له قوة فسلبت منه، أما إذا كان المتكبر ليس ظالما فهو في ذاته قوى ولم يأخذ قوته من أحد، وتكبر على من ليست له قوة أصلًا فلم يسلب منه أحد قوة، فذلك التكبر صفة مدح، فالإنسان ليس له أن يتكبر على غيره لأن جميع البشر لا قوة لهم، فما عندهم من قوة هو نعمة من الله عليهم وليست ملكًا لهم، فالقوى بحق يتكبر على الضعيف الذي لا قوة له فلم يسلب منه أحد قوته.

ـ فصفات الله مثل الجبار والمتكبر والقهار هي أيضًا صفات محبوبة؛ لأن صفات القوة والإرادة عند البشر هي صفات مخلوقة فيهم وليسوا هم أقوياء من ذوات أنفسهم وحقيقتهم أنهم ضعفاء وما عندهم من قوة هو محض تكرم من الله عليهم، لذلك فالإنسان ليس له أن يتكبر لأنه ليس بقوي، والقوي بحق هو الذي له أن يتكبر على الضعيف.

ـ وفي تفسير الرازي: (واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا، فكان ذلك مذمومًا في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم قال: ﴿سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما

يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق﴾[1].

ـ والإنسان يحب الله لأنه الوكيل، فهو يتكفل بما يحتاجه العبد، فيتوكل العبد على الله وفي ذلك راحة وسعادة، ويحب الله لأنه تواب غفور رحيم ودود فيتوب على من أذنب ويغفر له ويتودد إلى عباده، فأنت إذا أخطأت في حق ملك من ملوك الدنيا وخالفت أمره فقد يبطش بك ولكن الله يظل يغفر لك طالما أنك تتوب مهما كثرت الذنوب، فذلك يؤدي تلقائيًا إلى محبته.

ـ والله يرشد الإنسان لطريق الهداية ويهديه فهو الهادي، والإنسان يحب من يرشده للخير ويحب من يهديه، فالله يعرف الإنسان بطريق الهداية ويعينه عليه ويحب له الخير وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى ما فيه نجاته وسعادته.

ـ والإنسان يحب الله؛ لأنه يجيب الدعاء، فكلما احتجت إلى أي شيء دعوته في أي وقت، فالله عنده القوة التي تحميك وعنده كل ما تريد وتطلب في الدنيا والآخرة.

ـ والإنسان يحب الله؛ لأن الله يريد للإنسان الخير، وما يحدث للإنسان من ابتلاءات هو خير له لكي يفيق من غفلته، كما أن الابتلاءات والمصائب فيها تكفير للذنوب، وفي الحديث: ﴿يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ﴾[2].

ـ والإنسان يحب الله لأنه يعطي الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن

---

(١) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] –دار إحياء التراث العربي– بيروت (ج: ٢٩، ص: ٥١٤).

(٢) قال الشيخ الألباني: حسن (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٦٠٣، برقم ٢٤٠٢).

يشاء، والسيئة بمثلها فقط.

ـ ومن الصفات الحميدة الجمال، فالإنسان يحب الله لجمال ذاته، ولاحظ أنه لا يمكن تصور صفات الذات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) لأن جمال الله لا يقارن بأي جمال في العالم لمدى عظمته.

ـ فالإنسان يستطيع أن ينظر إلى جمال الطبيعة كالورود والأسماك والجبال فيرى الجمال الخلاب، لكنه لا يستطيع أن يتصور مدى جمال الخالق لأنه ليس له شبيه ولا نظير ولا يمكن قياسه على جمال الدنيا كلها لأنه جمال عالٍ جدًا جدًا، فهو جمال أمتع من كل متع الجنة نفسها.

ـ ثانيًا: صفات الله هي صفات خارقة وغالبة:

ـ القدرات الهائلة للخالق هي معجزات فوق الأسباب، كقدرة الله على أن يسمع كل شيء ويرى كل شيء ولا ينسى شيئًا مما يفعله العباد من صغيرة أو كبيرة منذ بدأ الخلق إلى قيام الساعة.

ـ الإنسان يحب الصفات الحميدة عند البشر، وحبه أكبر لمن تتميز هذه الصفات الحميدة عنده فتكون أعلى من الناس، فيحب من يضرب به المثل في الإنفاق أو أعمال الخير، ويحب من يحقق رقمًا قياسيًا في بطولة رياضية مثلًا، ويحب الانتماء إليه ومودته والعزة به، وقد يعلق صوره في بيته ويكثر من الحديث عنه وينسب نفسه إليه ويفتخر بقدرة ذلك الإنسان الذي جعله مثلًا أعلى له.

ـ فمثلًا إذا رأيت ساحرًا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرًا وخيالًا، فمثلًا عندما خرجت

(١) الشورى: ١١.



ناقة صالح من الصخرة لم تكن خيالًا حتى أنهم ذبحوها وأكلوها، وقدرة الله على خلق السماوات أعجب من السحر وهي حقيقة وليست سحرًا.

ـ ثالثًا: صفات الله هي صفات مسيطرة:

ـ قدرة الله تعالى مسيطرة على الإنسان وكل شيء وتجعل الإنسان خاضعًا لها، فمن مدى قدرة الله أنها محيطة بالإنسان ولا يستطيع الإنسان الهروب منها فالله يقدر عليه في أي مكان وأي وقت ويقدر أن يفعل به أي شيء، فمن الممكن أن يحوله لخنزير مثلًا بكن فيكون، كما أن سمع الله وبصره يصله في أي مكان وأي وقت، والله لا يغفل ولا ينام ففي جميع الأوقات يقدر عليك ويسمعك ويراك.

ـ فالإنسان ضعيف لا حول له ولا قوة لا يستطيع أن يهرب من هيمنة الله وسيطرته عليه ومراقبته له ورؤيته له وعلمه به في كل وقت ولا يجد حيلة ليفلت من قدرة الله المحاصرة له فيشعر بالاستسلام والذل والخضوع تعظيما لقدرة الله وعلمه الذي بلغ كل شيء (حبا في عظمة الله تعالى).

ـ رابعًا: توحيد الصفات:

ـ الخالق سبحانه له جميع الصفات الحميدة، ولا يقتصر الأمر على ذلك فهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال وفوق كل تصورات الإنسان، وما عند الناس من الصفات الحميدة هو مجرد عطاء من الله لهم وليست صفات أصيلة فيهم، فالله وحده الغني والناس الفقراء، والله وحده العليم والناس لا يعلمون شيئًا، وهكذا.

ـ صفات القوة عند الإنسان والتي تتمثل في قوة جسمية وجاه وسلطان ومال وممتلكات ونعم يتمتع بها، كل هذه الصفات ليست قوة له وهو ضعيف؛ لأنه لا يملك شيئًا منها وما هي إلا نعم من الله عليه، والله هو

الذي يملك كل شيء، فجميع الناس ضعفاء وليس فيهم قوى، ولا قوي قوة حقيقية إلا الله ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جميعًا﴾(١).

ـ فكل ما سوى الله فيه كل صفات النقص والعجز والضعف وما عند الانسان من صفات حميدة إنما هي مجرد عطاء من الله وليست أصيلة فيه وبالتالي ليست مدحًا له وإنما مدحًا لمن أعطاها إياه.

ـ فمن عرف الله لم يخف من مهابة أحد غيره ولم يحب غيره ولم يرجو غيره ولم يخف من غيره، ووجود قدر من الشعور بالمهابة أو من الخوف أو الرجاء من غير الله فهذا ينشأ من ضعف المعرفة بالله أو ضعف اليقين بالله تعالى.

ـ المعرفة بتوحيد الصفات يؤدي إلى حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها:

ـ جميع المخلوقات هي في ذاتها فيها كل الصفات المذمومة وما عند المخلوقات من صفات حميدة هي عطاء من الخالق وليست أمور في ذاتها، فالمخلوقات في ذاتها لا تمتلك شيئًا وليس لها حول أو قوة أو علم، كما أن الذي لديه صفات حميدة معرضة لأن تسلب منه فهذه صفات ذم، وجميع الصفات الحميدة هي للخالق وحده، فهي صفات ذاتية في ذات الخالق سبحانه لم يكتسبها من أحد ولم يعطيها أحد له ولا يستطيع أحد أن يسلبها منه سبحانه، إذن فلا يحب لذاته إلا الله، وجميع المخلوقات يبغضها الإنسان لذاتها لضعفها ونقصها، وما يحبه الإنسان في المخلوقات هو من حب الله أي هو حب في الله وليس حب لذات المخلوق؛ لأن المخلوق في ذاته لا يملك ولا يعلم شيئًا وما عنده من إرادة هي عطاء من الله ومعرضة لأن يسلبها الله منه في أي وقت، فحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) البقرة: من الآية ١٦٥.



وَسَلَّمَ هو حب في الله أي هو من حب الله تعالى وكذلك حب المؤمنين.

ـ فمعنى كلمة (إله) في اللغة أي الذي يجعلك تتحير وتندهش بشدة من مدى عظمته، ففي النهاية في غريب الأثر: ﴿أَلِهَ يأْلَهُ إذا تَحَيَّر، يُريد إذا وقع العبد في عظمة اللّه تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد﴾[1]، وفي غريب الحديث لابن قتيبة: ﴿أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيِّر كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ عند التفكّر في عَظَمة اللّه... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلَّ﴾[2].

ـ إذن المؤمن ينظر إلى صاحب الصولجان والجاه والسلطان في الدنيا على أنه تافه لا قيمة له ما لم يكن متصلًا بالله فيحب ما فيه من صلة بالله وليس يحب ذاته.

ـ والمؤمن لا يحب إلا الله ولا يخاف إلا من الله ولا يخضع إلا لله ولا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا على الله، وهذا من كمال الإيمان، فإذا أحب شيئًا غير الله (ولكن كان حبه لله أكبر) فذلك من ضعف المعرفة أو ضعف اليقين.

ـ فالمعرفة بأن الله وحده هو النافع الضار يؤدي إلى الشعور بالتسليم والخضوع حيث يعلم الإنسان أنه ضعيف لا يملك لنفسه حول ولا قوة ولا يملك لنفسه نفع ولا ضر.

ـ كما يؤدي إلى التوكل على الله والشعور بالاحتياج إليه والاعتماد عليه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يجلب لنفسه النفع ويبعد عن نفسه الضر ويحتاج إلى من يجلب له النفع ويبعد عنه الضرر.

---

(١) النهاية في غريب الأثر -المكتبة العلمية- بيروت (١ / ٦٢).

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة -مطبعة العاني- بغداد (٣ / ٧٢٨-٧٢٨).

ـ كما يؤدي أيضًا إلى عدم وجود مشاعر أو هموم أو أهداف متعلقة بالدنيا (إلا بالقدر الذي يحتاجه المسافر أثناء سفره)؛ لأن الشيء الذي لا ينفع ولا يضر لا قيمة له ولا يهتم به أحد، فلا يخاف من بطش أحد ويعيش هادئًا سعيدًا.

ـ انتقال المشاعر:

ـ المشاعر إما أن تتعلق بالله وتبتعد عن الدنيا، وإما أن تتعلق بالدنيا وتبتعد عن الله، فإذا تعلقت المشاعر بالدنيا ولم تتعلق بالله تعالى فهذا دليل كافٍ على أن الإنسان لا يعرف الله تعالى.

ـ كلما نقص حب الدنيا زاد حب الله تعالى والعكس صحيح، وإذا لم يكن في القلب سوى حب المال والشهوات والدنيا فلا يوجد شيء اسمه حب الله مطلقًا.

ـ الإنسان لديه خوف وقلق بشأن وجود وظيفة ومسكن والتغلب على أعباء الحياة والتغلب على مشاكله الخاصة والحصول على النفقات التي تمكنه من الزواج وغير ذلك من أمور الدنيا ومخاوفها، وقد يكون خوفه وقلقه بشأن النجاة من النار وأهوال القيامة، وكلما زاد خوفه من مخاوف الدنيا قل خوفه من مخاوف الآخرة، والعكس صحيح.

ـ الإنسان يعيش حياته خائفًا وراجيًا، فإما أن يعيش خائفًا من ضياع الدنيا والمال ورجاءً في الحصول على الدنيا والمال، أو يعيش حياته خائفًا مترقبًا لقاء الله تعالى مشتاقًا إلى الجنة.

ـ مشاعر الإنسان إما أن تتجه للدنيا أو تتجه إلى الله والآخرة، وإذا كانت كثيرًا في جانب كانت قليلًا في الجانب الآخر، فكلما زاد ارتباط الإنسان بالدنيا وأمورها كلما نقص ارتباطه بالله والآخرة.

ـ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ

صَغُرَتْ عِنْدَهُ الْمَحْبُوبَاتُ وَقَلَّتْ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ كَثُرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانْتَشَرَتْ، وَكَذَا الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَمُلَ خَوْفُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَخَفْ شيئًا سِوَاهُ قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحدًا إلا اللهَ﴾ وَإِذَا نَقَصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَعَلَى قَدْرِ نَقْصِ الْخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَكَذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ﴾(١).

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن القيم: ﴿اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره﴾(٢).

****

(١) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية (١ / ٩٤).
(٢) مدارج السالكين دار الكتاب العربي– بيروت (٣ / ٣٥٢).

الفصل السادس

ادعاء الحب والخوف والرجاء لله (ادعاء النية والهدف)

ـ أهمية المشاعر في الإسلام:

ـ هل تصدق أن هناك شيء في الدين نحن مطالبين بتحقيقه عبارة عن مشاعر؟، وهل تصدق أن تحقيق هذه المشاعر أهم من الصلاة والصوم وجميع الأعمال.

ـ هذه المشاعر هي الشعور بالحب والخوف والرجاء والذل والخشوع والتوكل.

ـ الكثير يحسبون أن كلمة المشاعر تستخدم فقط في الغناء واللهو.

ـ والكثير إذا أرادوا أن يلتزموا بالدين اجتهدوا في الأعمال ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر هي الأصل، والمشكلة الأكبر أنهم يحسبون أنها متحققة عندهم والحقيقة أنها على العكس تمامًا فلا حب لهم إلا للمال والشهوات ولا خوف ولا رجاء إلا في أمور الدنيا.

ـ والمشكلة الأخرى هي أن معاني الحب والخوف والرجاء والذل ماتت فأصبحنا في حاجة إلى شرح ماذا تعني كلمة (حب) وكلمة (خوف) وهكذا، وأصبح الكثير يتوهمون أن حب الله والخوف منه ورجاءه والذل له تملأ قلوبهم.

ـ وظيفة الحب والخوف والرجاء:

ـ الانسان لكي يعمل أي عمل سواء كان خيرا أم شرا لابد من وجود ثلاثة دوافع هي الحب والخوف والرجاء.

ـ الانسان يعمل العمل لله حبا وخوفا ورجاءً، وكذلك يعمل العمل للدنيا حبا وخوفا ورجاءً، ويعبد الله حبا وخوفا ورجاءً، ويشعر بالخضوع حبا وخوفا ورجاءً، وطريقة الحياة التي يختارها لنفسه سواء لله أو للدنيا تكون حبا وخوفا ورجاءً.

ـ فكل إنسان لديه الحب والخوف والرجاء، وهو إما أن يكون الحب والخوف والرجاء في الله أو في الدنيا.

ـ معنى أن الانسان يعمل العمل لله هو أنه يعمله حبا في الله أو خوفا من الله أو رجاءً في الله، ومعنى أن الانسان يعمل معصية ما هو أنه يعملها حبا في الدنيا أو خوفا من فواتها أو رجاء في الحصول عليها.

ـ فإذا كان الدافع الى العمل هو حب الله أو خوفا منه أو رجاءً فيه فهو يعمله لله، وإذا كان الدافع الى العمل هو حب الدنيا أو خوفا من فواتها أو رجاء الحصول عليها فهو يعمله للدنيا.

ـ وذلك يكشف حقيقة من يدعي أنه يعيش لله ويعمل لله وهو لا يعيش ولا يعمل بدافع الحب لله أو بدافع الخوف من الله أو بدافع الرجاء في الله.

ـ النية الخاصة والعامة هي الحب والخوف والرجاء كالتالي:

١ـ النية الخاصة (الهدف من كل عمل على حدة):

ـ أي عمل تعمله سواء كان خيرا أو شرا أو عملا عاديا لابد له من دافع هو الذي دفعك الى القيام بهذا العمل، هذا الدافع هو الخوف أو الرجاء أو الحب او جميعهم معا، فالإنسان يعمل العمل إما خوفا من ضرر وعقاب أو رجاءً في نفع وثواب أو حبا في أمر ما.

ـ النية نوعين فهو يعمل العمل خوفا من حصول ضرر دنيوي ما أو خوفا من عقاب الله في الدنيا أو الآخرة وكذلك يعمل العمل رجاءً في نفع دنيوي أو رجاء ثواب الله تعالى وكذلك يعمل العمل من أجل أمر دنيوي

يحبه أو تعظيما لله لأنه يحبه.

ـ النية قد تتعدد فهو يعمل هذا العمل لله وعمل آخر للدنيا.

٢ـ النية العامة (الهدف من الحياة):

ـ إذا كان حب الانسان وخوفه ورجاءه لله فالهدف من حياته أنه يعيش لله، وإذا كان حب الانسان وخوفه ورجاءه للمال أو الشهوات أو الدنيا فالهدف من حياته أنه يعيش للمال أو الشهوات او الدنيا.

ـ كل الناس يريدون الشهوات واللذات وتحقيق السعادة وتجنب المضار والآلام، وهم في ذلك صنفين هما:

ـ الصنف الأول يرى السعادة في شهوات الدنيا ولذاتها وتجنب مشاكل الدنيا وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الدنيا وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء كل خوفهم ورجائهم في الدنيا.

ـ الصنف الثاني يرى السعادة في شهوات الجنة ولذاتها وتجنب عذاب النار وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الجنة والحور العين وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء هم المؤمنون، وهؤلاء هم العاقلين الذين يصبرون أنفسهم عن شهوات الدنيا القليلة ليتمتعوا بالنعيم الأبدي في الآخرة، والدنيا في نظرهم ما هي إلا صبر ساعة، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الله تعالى.

ـ ادعاء الإنسان بأنه يعيش لله:

ـ إذا كان الإنسان يدعي أن هدفه الآخرة والجنة والنجاة من النار فأهم ما يكشف حقيقته هو وجود الشعور بالخوف والقلق من دخول النار والاشتياق والرغبة والأمل والتطلع إلى الجنة، ويؤدي ذلك إلى أن تكون الآخرة همه وشغله الشاغل ويعمل لتحقيق ذلك الهدف.

ـ فإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو تجارة أو مال أو شهوات أو منصب وجاه، فهذا معناه أن هدفه الدنيا، وإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو رضا الله والجنة، فهذا معناه أن هدفه رضا الله والجنة.

ـ فإذا قال إنسان: أنا أعيش لله وليس لنفسي، فيكون السؤال: لماذا تعيش لله وليس لنفسك؟، فيقول: تعظيمًا له (حبا في عظمته) أو خوفًا من العقاب أو رجاءً في الثواب، فإذا كانت هذه المشاعر غير موجودة عنده على سبيل الحقيقة فهو كذاب.

ـ فالمشكلة هي أن الإنسان قد يحسب أنه يحب الله ويخافه ويرجوه ويعيش من أجله، وفي الحقيقة هو لا يحب إلا الدنيا ولا يخاف إلا منها ولا يرجو غيرها ولا يعيش إلا لها، لذلك قمنا ببيان حقيقة الهدف والمشاعر والحالة النفسية المميزة لها حتى يكتشف الإنسان حقيقة ما في قلبه.

ـ فقد يكذب الإنسان على نفسه ويحسب أنه يعيش لله ولا يدري أنه لا يعيش إلا للدنيا، فهمه ومشاعره وسلوكه وانفعالاته وكلامه وعمله يكشف حقيقة هدفه، فتجد الإنسان يلهث وراء المال وقلبه يتقطع على المال ولا هم له ولا عمل له غير الحصول على المال ورغم ذلك تجده على اقتناع تام بأنه لا يعيش من أجل المال ويحسب أنه يعيش من أجل الله والآخرة رغم أنه لا يعرف الله الذي يدعي أنه يعيش من أجله ولا يعرف الآخرة التي يدعي أنه يعيش من أجلها! لأنه لو عرف الله والآخرة لعاش لله وليس للمال.

ـ ولاحظ أنه الهدف (النية) له أثر على الظاهر، لكن هذا الظاهر لا يعني وجود أو عدم وجود ذلك الهدف، فالظاهر يعطي احتمالا لا أكثر، فلا يعلم هدف الانسان (نيته) إلا الله والانسان في نفسه مهما كان ظاهر

الانسان.

ـ الحياة من أجل الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع:

ـ الانسان إما أن يكون هدفه الذي يعيش له هو رضا الله والجنة أو هدفه المال أو الشهوات أو التغلب على عقبات الحياة وغير ذلك، وفي الحالتين هو يبذل مجهودا كبيرا ليحقق هدفه بنجاح.

ـ الذي يعمل للدنيا يتعب ويكد طول عمره ثم في النهاية يكون تعبه وكده هباءً منثورًا.

ـ فحال الذي يعيش من أجل أمور الدنيا ويتناسى تحقيق العبادة مثل حال الطالب الذي يذاكر مادة الكيمياء مثلًا رغم أن الامتحان الذي سوف يمتحنه في مادة التاريخ (مثلًا) فهل ينفعه ما اجتهد؟

ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة:

ـ المشاعر عبارة عن أحاسيس وليست كلامًا أو اقتناعًا أو عملًا أو أمورًا هلامية، فحب الله والخوف منه ورجاؤه عبارة عن أحاسيس إذا لم يحس بها الإنسان فهذه المشاعر غير موجودة عنده.

ـ كل إنسان يدعي أنه يحب الله ويخضع له ويخافه ويرجوه، ولا يسأل نفسه هل هو يشعر في قلبه بحب الله حقًا؟ وهل يشعر بالذل والاستسلام لله حقًا؟ وهل هو يخاف من الآخرة ويحمل لها هما حقًا؟ وهل هو يشتاق ويتلهف إلى الجنة حقًا؟ ولا يتبين طبيعة وحقيقة هذه المشاعر، ولا يهمه الأمر كأن المسألة غير مهمة، ولكي يهرب من مواجهة نفسه أمام نفسه قد يدعي أن هذه الأمور موجودة بالفطرة عند كل الناس مسلمين وكافرين أو يدعي أن هذه الأمور هي عند المقربين وهي لمن يريد الدرجات العليا في الجنة وليست مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار، أو يدعي أن هذه المشاعر موجودة بالفعل عنده في حين لا توجد عنده الحالة النفسية

المميزة لكل شعور من هذه المشاعر، فهذه المشاعر غائبة تمامًا من قلبه.

ـ مشاعر حب الله والخوف منه ورجائه والخضوع له والخوف من الآخرة تحولت عند بعض المسلمين إلى عبارات محفوظة مقدسة وليست مشاعر حقيقية يحس بها الإنسان في داخله، فليس لها وجود في قلوبهم رغم أنهم يدعون وجود هذه المشاعر في أنفسهم، وهي في الحقيقة أصبحت مفرغة من معناها.

ـ لقد أصبح بعض الناس مخدوعون في أنفسهم يظنون أنهم يحبون الله ويخافونه ويخضعون له ويخافون الآخرة رغم أنه لا يوجد عندهم ولو ذرة واحدة من ذلك، فرغم أن هذه المعاني بسيطة ويعرفها الصغار والكبار لكن مات معناها الحقيقي، لذلك أصبحنا نحتاج إلى توصيف وتعريف معنى شعور الإنسان بالخوف أو بالحب أو بالخضوع حتى يستطيع أن يعرف الإنسان في نفسه بدقة هل هذه المشاعر موجودة أم لا؟

ـ ورغم بساطة هذه المشاعر فهي من شروط الإيمان، ومع ذلك لا يهتم أحد بتوصيفها للتأكد من وجودها أم لا، وقد يعتبر توصيف هذه المشاعر نوعًا من الفلسفة! رغم أهميتها.

ـ وقد أوضحنا حقيقة الحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والذل، وقمنا بتحليل كل شعور من هذه المشاعر من داخل النفس وأوضحنا الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر حتى يتبين لمن يدعى حب الله والخضوع له وأن الله غايته أنه مخدوع وأن مشاعر الإيمان غير موجودة عنده وأن اقتناعه بوجودها هو مجرد وهم وخداع يخدع الإنسان به نفسه.

ـ ولذلك نبين حقيقة الحب والخوف والرجاء والحالة النفسية

المميزة لكل منهم كالتالي:

ـ معنى حب الله تعالى:

ـ المعرفة الحقيقية بالخالق تؤدي إلى الحب الشديد وليس مجرد الحب اعجابا بعظمة الخالق.

ـ حب الله معناه الإعجاب والانبهار من روعة وجمال وعظمة الصفات المبهرة الهائلة للخالق سبحانه.

ـ الحب هو أحلى وألذ ما يشعر به القلب، ونحن في زمان كثر فيه الكلام عن الحب، فلا تحتاج إلى أن أذكر لك فوائد ومزايا وجمال ولذة ومتعة الحب.

ـ حب الله عبارة عن متعة وسعادة يحس بها الإنسان عندما يعرف مدى جمال صفات الله وعندما يعلم معنى لذة النظر إلى جمال ذاته في الجنة فيشتاق إلى لقائه والنظر إليه ويأنس به ويحب ذكره.

ـ فالحب هو الشعور بالراحة والميل والإعجاب والسعادة والطمأنينة والسكينة بالشيء لما فيه من صفات جميلة، فإذا كنت تشعر بهذا الشعور تجاه الله فأنت تحب الله.

ـ معنى الشعور بالرجاء:

ـ هو شعور بالاشتياق والرغبة والأمل والتطلع واللهفة، وفيه فرح وانشغال الهم بالأمر الذي يتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله.

ـ معنى الشعور بالخوف:

ـ هو شعور بالقلق من خطر ما، وإذا زاد الخوف قد يكون معه توتر وفزع وهلع واضطراب وتوجس، وقد تكون له أعراض جسدية مثل زيادة نبضات القلب وعدم القدرة على التركيز لانشغال همه بالأمر والتعرق

وغير ذلك.

ـ الخوف من النار هو في حقيقته خوف من الله، ورجاء الجنة هو في حقيقته رجاء الله:

ـ الخوف من النار هو في الحقيقة خوف من الله؛ لأن النار ليست هي التي أوجدت نفسها وليست هي التي تريد أن تعاقب أحدًا، ولكنها عقوبة من الله، لذلك فالخوف من النار في الحقيقة هو خوف من الله من أن يعاقبك بالنار، وكذلك رجاء الجنة هو في الحقيقة رجاء الله في أن ينعم عليك بالجنة، وكذلك الخوف من أهوال الآخرة هو في الحقيقة خوف من الله في أن يقيك هول ذلك اليوم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(١).

****

ـ الحالة النفسية المميزة لكل شعور من المشاعر تجاه الخالق والآخرة:

ـ الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر تكشف الإنسان أمام نفسه حتى لا يظن أنه يخاف الله وليس في قلبه ذرة من الخوف أو يحسب أنه يحبه وليس في قلبه ذرة من الحب، وهكذا، فالذي يدعي الخوف من الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يخاف من أمر من أمور الدنيا بل أشد، والذي يدعي حب الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يحب أمرًا ما من أمور الدنيا بل أشد، والذي يدعي الخضوع لله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يعمل خادمًا عند سيد له بل أشد، فلابد من وجود الحالة النفسية والوجدانية والمزاجية والحالة الانفعالية المناسبة لكل شعور وما فيها من الشعور بالضيق أو الألم أو الشعور بالفرح والسرور، وإلا فإن هذا الشعور غير موجود وهو مجرد ادعاء،

(١) الإنسان: ١٠.

فالخوف فيه شعور بالقلق واضطراب داخلي، والحب فيه شعور بالشوق والفرح والارتياح النفسي والإعجاب، والخضوع فيه شعور بالانكسار والذلة والمسكنة، وهكذا.

- فحب الله والخوف منه والخضوع له ليست أشياء هلامية غير مفهومة وإنما هي من نفس جنس المشاعر التي يعرفها الإنسان ويشعر بها في الدنيا، فإذا أردنا تعريف الحالة النفسية للخوف مثلًا فنقول هي الحالة النفسية التي تحدث للشخص عندما يتعرض لخطر ما (مثلًا طالب ينتظر نتيجة امتحان)، وتفسير هذه الحالة النفسية من داخل النفس واضح يشعر به كل إنسان وإن صعب عليه التعبير عما يحس به، أو مثلًا الغضب تجد له انفعالًا عصبيًا داخليًا يشعر به الإنسان الغاضب كما يظهر على سلوكه وانطباعاته، أو مثلًا الطمأنينة هو حالة نفسية فيها شعور بالارتياح والسكينة... إلخ.

-لمعرفة هل المشاعر عندك متعلقة بالله والآخرة أم متعلقة بالدنيا فكل شعور من المشاعر له حالة نفسية مميزة لهذا الشعور كالشعور بالحب أو الشعور بالخوف سواء من الله أو أمر من أمور الدنيا، فغياب مثل هذه الحالة النفسية تجاه الخالق والآخرة معناه غياب ذلك الشعور.

- الحالة النفسية المميزة للحب:

- إذا رأيت شيئًا تكرهه تشعر بالألم والضيق والحزن والضجر، وإذا رأيت شيئًا تحبه تشعر بالارتياح والسكينة والاطمئنان والفرح والسرور وينشرح صدرك، ففي التفسير الوسيط: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ٢٨] إذا سمعوا ذكر الله أحبوه، واستأنسوا به﴾(١).

- الحالة النفسية للخوف وللرجاء:

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ١٥).

ـ انظر إلى طالب في الثانوية العامة، فإنه قد يأخذ حالة طوارئ ويتهيأ نفسيًا؛ لأنه أمر مصيري يتحدد عليه مستقبله، إنه يكون في قلق واضطراب وخوف وترقب حتى تظهر النتيجة، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف وقلق، فإذا كنت تدعي الخوف من الآخرة فهل عندك هذه الحالة النفسية؟ وانظر إلى حالته وهو في انتظار النتيجة، انظر إلى حالته المزاجية وانشغال باله بالنتيجة، فإن الشعور الحقيقي يظهر على الوجه ويؤثر في وجدانه وربما يأرق من النوم وتقل شهيته للطعام.

ـ انظر إلى إنسان مطلوب منه أن يقوم بعمل معين وإلا يتعرض مثلًا للفصل من العمل، انظر إلى حالته النفسية قبل وأثناء وبعد تأدية العمل فتجد حالة نفسية مميزة للخوف، وانظر إلى قوة هذه الحالة النفسية واستمراريتها والشعور بها، وحتى بعد العمل يظل خائفًا هل أداه على ما يجب أم أنهم لن يرضوا عن هذا العمل.

ـ مثال آخر: هل خوفك من القيام بعمل يعاقب عليه القانون مثل خوفك من القيام بمعصية؟، فأين خوفك من عقاب الله؟، وهل ندمك وحزنك على الوقوع في معصية مثل حزنك على ضياع مائة جنيه مثلًا؟، وهل الحالة النفسية التي تشعر بها في هذا مثل هذا؟!

ـ الإنسان الذي يعيش من أجل الدنيا كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من تحقيق طموحه الدنيوي فيزداد نشاطًا للدنيا، والذي يعيش منتظرًا لقاء الله كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من الموت ولقاء الله، فالرجاء فيه شوق وحنين وفرح وحب وتطلع وانطلاق وشعور بالهدف الذي تسعى إليه، فإذا كنت تدعي أنك ترجو الله واليوم الآخر فهل عندك مثل الحالة النفسية التي تكون عند من يرجو ويهدف إلى القيام بعمل دنيوي كمشروع تجاري أو السعي لمنصب أو جاه أو شهوة؟

ـ الشعور المميز للمعرفة الحقيقية باقتراب الآخرة:

ـ هو الشعور بقلق الانتظار للآخرة وانشغال الهم باقترابها باعتبارها نتيجة الامتحان والقلق من كونه أين يصير من الثواب أو العقاب الهائل.

ـ ملاحظة:

ـ مهما وصفت لك الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر فلن تكون مثل الحالة النفسية لإنسان حققها فعلًا، فمهما وصفت لك حال الطالب عند الامتحان وما ينتابه من قلق وخوف فلن يكون مثلما تعاين أنت هذا الأمر فتشعر بهذا الشعور، ففي الحديث: ﴿ليس المخبر كالمعاين﴾(١).

ـ ومهما وصفت لك عن طبيعة المشاعر التي ينبغي أن يشعر بها المسلم من حب الله والذل له والخوف منه ورجائه والخوف من الآخرة فهي أمور شعورية وليست أمور معرفية، والإنسان الذي يشعر بألم أو بلذة قد لا يستطيع أن يصف لك ما يشعر به، لأن الألم واللذة هو شيء له طعم يذوقه ويشعر به وقد لا يستطيع أن يعبر عنه.

ـ إذا لم تكن تشعر بشيء من الحالة النفسية للشعور بحب الخالق أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بالخضوع له فهذا معناه غياب المعرفة بالله والآخرة.

ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها:

ـ إن العبرة بتحقيق مشاعر الإيمان، وليست العبرة بالاقتناع بها وتمني التحلي بها والدعوة إليها وتعليمها الناس ولا حتى السعي نحوها دون الوصول لتحقيقها، فَمَنْ هذا حاله فلا فائدة من عمله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٢)، وفي

(١) التخريج: صحيح (تخريج الطحاوية، ص: ٣٧٧).
(٢) البقرة: ٤٤.

الحديث: (مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها)(١)، وحتى لو كان الإنسان عالمًا عاملًا بكل أمور الدين والدنيا من غير أن يحقق مشاعر الإيمان فلا يغني ذلك عنه شيئًا، ومن الناس مَنْ يظل طول عمره يقول أنا مقصر في هذه المشاعر وأريد تحقيقها: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾(٢)، فهذه المشاعر من الثوابت التي يقرها الجميع وعلى اقتناع تام بأهميتها وأهمية تحقيقها، ولكن مَنْ يحققها فعلًا؟! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٣)، وإنك لتجد الكثير ممَنْ يدعي أنها متحققة في نفسه: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٤)، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٥).

****

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٨٣٧ في صحيح الجامع).
(٢) الأنبياء: ١٤، ١٥.
(٣) الصف: ٢.
(٤) العنكبوت: من الآية ٣.
(٥) العنكبوت: ١١.

الفصل السابع

أثر المعرفة الحقيقية على مشاعر الانسان وحياته

ـ العبادة هي أثر المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين):

ـ أساس العبادة عبارة عن مشاعر كالحب والخوف والرجاء والشعور بالخضوع والرضا والتوكل، ومعنى العبادة أن يعيش الانسان خاضعا لله بقلبه وجوارحه، ولا تتحقق هذه المشاعر ولا يعيش الانسان خاضعا إلا إذا عرف الخالق والآخرة معرفة حقيقية.

ـ المعرفة الحقيقية بضعف الانسان أمام الخالق (مع وجود اليقين بالله والآخرة والرسل) تؤثر على مشاعر الانسان وعمله وحياته، وهذا التأثر يتمثل في شدة الحب والخوف والرجاء، وهذا التأثر يؤدي إلى الخضوع تعظيما لله (حبا في عظمته) وخوفا ورجاء، وهذا هو معنى العبادة.

ـ فهذه ثلاثة أمور مترتبة على بعضها، فمعرفة الله والآخرة (مع وجود اليقين) تؤدي الى ثلاثة مشاعر (الحب والخوف والرجاء)، وهذه المشاعر تؤدي الى العبادة (خضوع القلب والجوارح واللسان والخضوع في طريقة المعيشة).

ـ فالعبادة هي أثر المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين)، وبالتالي مجرد تحقيق المعرفة الحقيقية يؤدي الى تحقيق العبادة (على افتراض وجود اليقين).

ـ مفهوم أثر المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين):

ـ لو قيل لرجل أن هناك أسد يقترب منه ولكنه لم تتأثر مشاعره فيخاف ولم تتأثر جوارحه فيجري ويهرب فكيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ـ والاجابة أنه من المستحيل أن يعلم الانسان بأمر خطير ثم لا تتأثر مشاعره وجوارحه، وهو في حقيقة أمره بين أمرين لا ثالث لهما هما إما أنه غير مقتنع بالأمر أو أنه لم يعلم بالأمر فهو جاهل به، والجهل بالأمر نوعين:

١ـ الجهل لأنه لم يسمع عن الأمر أصلا أو لم يفهم معناه، وهو جهل يزول بمجرد السماع والفهم.

٢ـ الجهل بسبب غياب الانتباه وهو الغفلة، وهو جهل لا يزول بالسماع والفهم لأن سببه عدم الانتباه وليس السماع والفهم، فهو عندئذ غافل غير منتبه لخطورة معنى أنه أسد.

ـ وهذا هو السبب الذي يمنع الكثير من الناس من التأثر بالغيبيات، لأن أكثر الناس مقتنعون بالخالق والآخرة والرسل وسمعوا عن ذلك ويفهمون معنى ذلك، لكن بعضهم جاهل بالأمر بسبب عدم الانتباه (الغفلة)، لذلك فموضوع الكتاب هو شرح لمعنى الجهل بسبب عدم الانتباه (الغفلة) وكيفية معالجته.

ـ مجرد أن يعرف الانسان بوجود الخالق والآخرة معرفة حقيقية فإن مشاعره كلها سوف تتغير، وكل حياته سوف تتغير بزاوية مائة وثمانين درجة، ولكن لأننا نعيش في زمن الغفلة فقد يتعجب الانسان ويسأل وهل الغيبيات خطيرة جدا الى هذه الدرجة؟، وسبب هذا السؤال أنه غافل وليس لديه تصور لمدى خطورة الأمر، وطالما أن الانسان لا يزال لم تتأثر مشاعره بالغيبيات فهو لا يزال لا الغيبيات، وربما كان ممنوعا من الانتباه لها مهما سمعها طوال عمره فذلك هو الطبع على القلب.

ـ كل الناس يعلمون أن لهم خالقا وأنهم ذاهبون الى الآخرة وأن الله أرسل لهم الرسل لكن حال البعض يقول أنهم لا يعلمون شيئا من ذلك فهذه المعلومة البسيطة مات معناها وتحولت لمجرد مظاهر روتينية، فهؤلاء الناس مخدرين غافلين كأنهم لم يسمعوا عن ذلك تماما.

ـ لذلك قد يبدو هذا الكتاب غريبا لأن حال الغفلة أصبح هو الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الجميع فإذا جاء أحد ليقول لهم تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!

ـ فنحن لا نتكلم في هذا الكتاب عن معلومات عويصة في الدين ولكننا فقط نتكلم عن أبسط معلومة في الدين وهي أن لنا خالقا وأن هناك آخرة بالإضافة الى ما يخدم شرح هذه المعلومة.

ـ فالمانع من تحقيق العبادة هو غفلة الانسان عما يوقن به، فهو يوقن بالخالق والآخرة ونزول كلام الخالق للناس على رسله ويوقن بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك لا يحقق العبادة لأنه غافل عن خطورة ما يوقن به.

ـ وهذا مثال يوضح الأمر أكثر: فالإنسان يعرف أن القنبلة شيء خطير جدًا ويعرف أن الكرة شيء تافه رغم أن كلاهما متشابه في الشكل، لكن إذا تعامل مع القنبلة مثلما يتعامل مع الكرة دل ذلك على أنه لا يزال لا يعرف معنى كلمة (قنبلة)، فمعرفته لكلمة (قنبلة) لا تكون معرفة حقيقية حتى يشعر بالخوف منها ويحتاط عند التعامل معها، فعندئذ فقط يكون قد عرف معنى كلمة (قنبلة).

ـ فإذا كنت أحدثك عن قنبلة موجودة الآن أمامك وأنت تشرب كأسًا من الخمر، فأنت عندئذ قد علمت نظريا أن الشيء الذي أمامك هو قنبلة

لكن لم تنتبه لخطورة الأمر، فلم تخف ولم تجرِي هربًا؛ وذلك لأنك سكران، فحقيقة الأمر أنك لا تعرف ماذا تعني كلمة قنبلة.

ـ نفس الشيء فالآخرة عبارة عن قنبلة أمامك لأنها أمر خطير جدًا فهي مستقبلك وحياتك وتوشك أن تبلغ وفيها الأهوال، فعندما أخبرك بالآخرة فلا تنتبه لخطورتها وتتعامل مع الآخرة كأنها كلمة عادية ولا تهابها ولا تستعد لها وتترقب مجيئها فهذا معناه أنك في غيبوبة تامة كالسكران الذي لا يدري بشيء، فعندئذ أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة (الآخرة).

ـ ونفس الشيء فمعنى وجود الخالق أي وجود من له القدرة الهائلة المسيطرة القاهرة على كل شيء وأنت لا تنتبه لخطورة ذلك ولا تتأثر مشاعرك بذلك، فأنت في غيبوبة لا تدري ماذا يعني أن لك خالقًا، رغم أنك تعرف في اللغة والشرع ماذا يعني الخالق وما هي صفاته لكن غير منتبه، لذلك فأنت لا تعرف الخالق.

ـ درجة التأثر:

ـ إذا كان الأمر خطيرا فلابد أن يكون التأثر كبيرا، وإذا كان الأمر خطيرا جدا فلابد أن يكون التأثر به شديدا جدا.

ـ فمثلا عندما يعلم الانسان بوجود حريق ما أو وجود خطر يهدد حياته أو عثر على مبلغ هائل لم يكن يتوقعه أو ينتظر إعلان نتيجة امتحان الثانوية العامة مثلا وهكذا، فهنا تتأثر مشاعره وتتفاعل بالأمر بشدة.

ـ وهذا التأثر يكون أشد إذا كانت المعلومة خطيرة جدا.

ـ المعلومة التي تقول بوجود الخالق والآخرة ونزول كلام الخالق نقرأه بين أيدينا ووجود حياة أخرى أبدية هي معلومة خطيرة جدا، ولكن البعض يتعامل معها بدون تأثر كأنه لم يسمع عنها.

ـ فالمطلوب ليس مجرد التأثر ولكن التأثر الشديد، أي شدة الحب

والخوف والرجاء الذي يؤدي الى خضوع القلب والجوارح واللسان والمعيشة، فالضعيف يحب القوي حبا شديدا لدرجة الخضوع، ويخاف من عقابه خوفا شديدا لدرجة الخضوع، ويرجو ثوابه رجاء شديدا لدرجة الخضوع.

- غياب أثر المعرفة الحقيقية دليل على الجهل:

- الجاهل بأمر ما لا علاقة له به فلا يتأثر به لا سلبا ولا إيجابا، فلا يؤثر ذلك الأمر في مشاعره أو انفعالاته أو حياته فلا صلة له به، وليس له أي رد فعل تجاهه لا سلبا ولا إيجابا لأنه أصلا جاهل به سواء كان جهلا بسبب عدم السماع أو الفهم أو جهلا بسبب عدم الانتباه (الغفلة)، وقد يكون عمل الانسان مفتعلا أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية وليس ناشئا عن تأثره بالأمر.

- الشيء الذي لا تخافه ولا ترجوه ولا تحبه ولا تكرهه ولا تشعر تجاهه بأي شيء هو إما شيء غير موجود أو لا قيمة له أو أنك لا تعرفه أو أنك لا توقن بوجوده، فكذلك عدم الشعور بأي شيء تجاه الخالق والآخرة معناه غياب المعرفة الحقيقية بالله والآخرة أو غياب اليقين بالله والآخرة.

- وطالما أن عالم الغيب أمر خطير وأنت توقن به ولم تتأثر مشاعرك وحياتك به فسبب ذلك هو أنك لا تزال لا تعرفه معرفة حقيقية كأنك لم تسمع عنه أو كأنك لا تفهم معناه.

- ومعنى أن مشاعر الانسان تتفاعل بشدة بأمور الدنيا من المال والشهوات ومشكلات الحياة في حين لا تتفاعل مع أمور الآخرة دليل عن أن الانسان لا يزال جاهلا تماما عن الآخرة تماما كالذي لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة، فمشاعره وأهدافه وطموحاته وتطلعاته وانفعالاته وسلوكه

وفرحه وحزنه ونيته وأكثر كلامه وأكثر عمله لا علاقة له بالغيبيات، فلو ذكرته بعقاب الآخرة لا يؤثر ذلك في نفسه شيئًا، في حين لو أخبرته بفقد شيئًا من ماله لطاش عقله وتأثرت مشاعره.

ـ انتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد في مكان آخر غير كوكب الأرض هو أمر خطير ومثير ومؤثر جدًا، وكل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة ، وعودة الإنسان إلى شباب دائم وبلا موت أو مرض في قصور مبنية من الذهب والفضة فيها نساء فاتنات وخمور وكل ألوان السعادة فوق كل التصورات ولا تخطر على بال بشر هو امر مذهل، وسنوات العمر الطويلة في الدنيا ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، والأخطر من كل هذا هو قدرة الخالق وعلمه الهائل ووجوده معنا بقدرته وعلمه (وليس بذاته) والأخطر أننا لا نراه رغم أنه يرانا ويحيط بنا بقدرته وعلمه الهائل ولسنا إلا جزءا من ملكه وكل أمرنا بيده وكل ما عندنا وحولنا هو الذي خلقه وتحت أمره، إذن كل هذا إذا لم يؤثر في مشاعر الانسان فيتعجب أشد العجب ثم يمتلأ بالحب والخوف والرجاء ثم يزيد حبه وخوفه ورجاءه لدرجة الشعور بالخضوع والذل ثم يعيش خاضعا معترفا ومستسلما لقدرة الخالق سبحانه، فإذا لم يؤثر كل هذا على مشاعر الانسان وحياته فهذا معناه أنه لا يزال جاهلا لم يعرف الخالق ولا الآخرة .

ـ فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرًا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ فهناك قاعدة فطرية هي أن الإنسان إذا عرف أمرًا ما مؤثرًا وأيقن به فإنه يتأثر به، فإذا كان أمرًا مخيفا فإنه يخافه، وإذا عرف أمرًا ممتعا فإنه

يشتاق إليه وهكذا، فمثلًا إذا عرف وأيقن أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت فإنه يشعر بالخوف ويفر هاربًا.

ـ فأي أمر هام وخطير ومؤثر لابد وبالضرورة أن تتأثر به المشاعر، فإذا لم تتأثر المشاعر فهذا يدل على عدم المعرفة بالأمر أو عدم اليقين به.

ـ فمن عرف الله والآخرة مع اليقين فإنه حتمًا وتلقائيًا سوف بجد نفسه يحب الله ويحب الجنة ويخاف من النار.

ـ فالإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر به ولن يعمل له، والشعور بخطورة الأمر (الانتباه لخطورته) هو العنصر المفقود في المعرفة.

ـ فإذا كان الإنسان يوقن بأن هناك آخرة وجنة ونار ولكن لم تتأثر مشاعره بالآخرة فلا يخافها ولا يترقبها ولا يحب الجنة ويتمناها ولا يرهب النار وكذلك لم يعمل للآخرة والنجاة من النار فهذا الإنسان لا يعرف ما هي الآخرة.

ـ وكذلك إذا كان الإنسان يوقن بمدى قدرة الله على إيجاد كل هذا الكون ومدى علمه في تدبير كل شيء في الكون والمخلوقات ولم يؤدي ذلك إلى التهيب من مدى قدرته وعلمه وحب الإعجاب بمدى هذه القدرة والخوف من غضبه ورجاء نعمائه والعمل من أجل رضاه فهو لا يعرف الله.

ـ وطالما أن الإنسان الموقن بالله والآخرة لا يزال يقع في المعاصي والشهوات فهذا معناه أن معرفته بالله والآخرة ضعيفة أو غير موجودة.

******

ـ غياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة يدل على الجهل كأن الأمر تافه غير مؤثر كأنه لعب ولهو:



ـ أنت إذا وقفت أمام أسد حقيقي ولم تتصور خطورة الأمر فلم تشعر بالخوف فهذا معناه أن هذا الأسد في حقيقته بالنسبة لك هو تمثال أو صنم، والفرق بين الأسد الحقيقي والأسد الصنم أن الأخير لا ينفع ولا يضر، وهما مشتركان فقط في الاسم، فالأول له اسم حقيقي والثاني له اسم مخترع.

ـ فالإنسان الذي لا يشعر إطلاقًا بألم الخوف من مهابة النار أو بلذة الشوق إلى الجنة هو في حقيقة أمره لا يعرف شيء اسمه النار ولا شيء اسمه الجنة، فهي في مشاعره أمور مثل الأمور التي لا تنفع ولا تضر فيقتنع بها ولكن لا يعرفها، فهو بذلك قد سلب خاصية الألم من النار وخاصية اللذة من الجنة فأصبحت أمور نظرية لا قيمة لها، وكذلك إذا لم يشعر إطلاقًا بشيء من ألم الخوف من مهابة الله أو شيء من لذة الحب لله فهو لا يعرف ماذا تعني كلمة (الخالق)، وإن كانت كلمات (الخالق) و(النار) و(الجنة) موجودة في الاقتناع واليقين، فهي غير موجودة في شعور الإنسان ولا تتأثر بها مشاعره وهمومه وأهدافه وأمانيه وعمله.

****

ـ الأسباب الستة لعدم التأثر بالأمر:

ـ هناك ستة أسباب تجعل الانسان لا يتأثر بالشيء سواء سلبا أو إيجابا وهي عدم السماع عنه أو عدم الفهم أو عدم الانتباه أو عدم اليقين أو أن ذلك الشيء تافه غير مؤثر أو أن ذلك الشيء غير موجود أصلا.

ـ عدم التأثر بالخالق والآخرة يرجع إلى سبب واحد فقط من هذه الأسباب الستة، فهو فقط لم ينتبه ولكنه سمع وفهم وأيقن والخالق والآخرة أمر موجود ومؤثر، ولأن المحصلة واحدة وهي عدم التأثر فهو يعيش كأنه لم يسمع أو كأنه لم يفهم أو كأنه لا يوقن أو كأن الخالق

والآخرة مسألة غير مؤثرة أو كأن الخالق والآخرة لا وجود لهما.

ـ غياب واحد من الثلاثة أسباب الأولى (السماع أو الفهم أو الانتباه) معناه الجهل بالأمر، والجاهل بالشيء لا علاقة له به ولا يتأثر به، والجهل بالله والآخرة سببه عدم الانتباه وليس عدم السماع أو عدم الفهم.

ـ فالإنسان الجاهل بالأمر ليس له أي علاقة به فلا تتأثر به مشاعره لا سلبًا ولا إيجابًا، فلا يحبه ولا يكرهه ولا يفرح به ولا يحزن عليه، وليس معه ولا ضده، ولا يعمل له حسابًا ولا يهتم به أو ينشغل به لأنه لا يعرفه أصلًا، فلا تربطه به أي علاقة سواء سلبًا أو إيجابًا.

ـ أي يصبح وجود الجنة والنار لا يؤثر فيه، ووجود قدرة الخالق المحيطة به والغالبة عليه لا تؤثر فيه لا في مشاعره ولا في عمله، وكذلك مسألة الحلال والحرام لا تؤثر فيه، فهو يفعل ما يراه لدنياه غير مهتم بأن هذا الأمر موافق أم مخالف للدين.

ـ فالأمر الذي لا تشعر تجاهه بأي شيء ولا تتأثر به هو إما أنه شيء غير موجود أو شيء تافه لا قيمة له أو أنك لا توقن بوجوده أو أنك لا تعرفه.

ـ القليل من الناس ليس لديه يقين، فهذا سبب آخر لعدم التأثر.

ـ فإذا سمع الانسان عن أمر ما خطير وفهمه وأيقن به لكنه غفل عنه فلم يتأثر به فهو يعيش كأنه لم يسمع عنه أو كأنه لم يفهمه أو كأنه لم يوقن به أو كأن الأمر تافه ليس بخطير أو كأن الأمر غير موجود أصلا.

****

ـ أثر المعرفة بالله والآخرة على حل مشاكل المجتمع:

ـ إذا أردنا أن نحل مشاكل المجتمع فالحل هو تحقيق المعرفة

بالغيبيات عند الناس، فهم عندئذ ينظرون إلى حقيقة المال والدنيا والشهوات وحقيقة مشاكل الدنيا بالمقارنة بمشكلة الآخرة، وعندئذ لن تكون هناك سرقات ومشاكل... إلخ، بل إن مفهوم المشكلة سوف يتغير فلن تكون مشاكل الحياة هي المشاكل التي يعاني منها الناس وإنما سوف تكون مشكلة الناس الوحيدة هي النجاة من النار ودخول الجنة، ولن تمثل مشاكل الحياة شيء؛ لأنها في نظرهم عابرة وهم عابري سبيل، فالمشكلة الحقيقية ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا غير ذلك وإنما المشكلة هي في عقول وقلوب الناس وهي أن يعيش الإنسان لله بهمومه ومشاعره وأهدافه، أما مشاكل الدنيا فهينة وزائلة بزوال الدنيا، وما الدنيا إلا أيام قليلة نعيشها كيفما اتفق، فلن تزول مشاكل المجتمع إلا إذا تغيرت العقول والقلوب: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(١)، فحب الدنيا وتعلق المشاعر والهموم بها إذا خرج من العقول والقلوب فسوف يختفي التنافس على الدنيا وبالتالي تختفي المشاكل؛ لأن كل المشاكل تأتي من التنافس على الدنيا، كما يكون عند الناس عندئذ الرضا والقناعة؛ لأنهم علموا أن أقل شيء عندهم هو نعمة عظيمة من الله عليهم فيحمدوا الله تعالى، كما أن مفهوم السعادة سوف يتغير فلا تكون السعادة عندهم في المال والدنيا وإنما تكون السعادة عندهم في رضا الله ودخول الجنة، أما إذا لم تكن الآخرة لها وجود حقيقي في هم الإنسان ومشاعره فإنه لن يسامح أحدًا؛ لأنه لا يشعر بأن هناك جزاءً على ما يفعل، وسيعيش حياته يحصل أكبر ما يستطيع من المتع والمال ولو من غيره من الناس، ويكون حريصًا على عمره؛ لأن ما في حقيقة مشاعره أنه إذا مات فلن يجد شيئًا وأن الحياة هنا فقط ولا حياة أخرى فيجتهد أن يحصل كل ما يستطيع قبل أن ينتهي كل شيء فتكون السرقات وكل أنواع الظلم

(١) الرعد: من الآية ١١.

ويعيش الناس كالوحوش في الغابة؛ القوي يأكل الضعيف، والناس عندئذ هم في الحقيقة يتعبون أنفسهم بأنفسهم، وهم في الحقيقة يسرقون أموال بعضهم بعضًا ويرتشي بعضهم من بعض ويصنعون المتاعب لأنفسهم ويستمدون السعادة من أمور يخترعونها ويصنعون تعقيدات للحياة بدون داع وهكذا، ويتكون مجتمع من المنافقين يتحدثون فيما بينهم بمعسول الكلام وقلوبهم حاقدة بعضهم على بعض، والقضية أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا إذا انصلحت ضمائر الناس فيكون الوازع الداخلي الذي يجعلهم يتركون الشر والفساد هو من خشية الله، فإذا لم يتحقق ذلك فمهما صنعت من القوانين فلن يجدي، ومهما وضعت من الأجهزة الرقابية فستأخذ الرشاوى وستحتاج إلى أجهزة أخرى تراقب عليها وهي بدورها ستحتاج إلى من يراقبها وهكذا، فلابد أن يكون الأصل أن الناس تترك الشر والفساد خوفًا من الله وليس خوفًا من القانون وهذا هو الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة.

ـ والإنسان إذا كان مغرورًا بالدنيا فهو لا يريد أن يفرط فيها؛ لأنها كبيرة عنده فيريد أن يأخذ ما عند الناس ويظلمهم ويأخذ حقوقهم ويكره الخير لهم، أما عندما يعقل الإنسان حقيقة الدنيا وضآلتها فإنه لا يبالي بها فيعطي مما عنده من الدنيا والمال للفقراء؛ لأنهم مثله ضعفاء فقراء أمام الله وما يعطيهم من مال ليس ماله وإنما يعطيهم من مال الله.

ـ فلابد أن يتغير مفهوم المشكلة، فالسعادة ليست في حل المشاكل الدنيوية ولكن السعادة هي في الجنة، ولو أن جميع مشاكل المجتمع الدنيوية تم حلها فلن يصل الناس إلى تحقيق السعادة؛ لأن الدنيا ليست مؤهلة لتكون دارًا للسعادة، فالله حكم أنها دار شقاء وتعب وليست دار

سعادة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ﴾[1]، ولكن هناك من لا يزال يتسابق في جمع الدنيا من الأموال والأولاد والمناصب والشهوات، فهو كمن يخبط رأسه في الحائط؛ لأنه لن يجني شيء، كما أنه كلما تم حل مشاكل تستجد مشاكل أخرى، وكلما حقق الإنسان طموحًا يستجد طموحًا آخر ويموت الإنسان وعنده طول أمل ولم يحقق السعادة!!.

ـ فعدم الشعور بالغيبيات عند أفراد المجتمع أو أكثرهم يؤدي إلى توجه المجتمع تجاه الدنيا والمادة والشهوات، وتصبح القضايا العامة التي تهم الناس هي كيف يعيشوا حياتهم الدنيوية ويتمتعوا بها من التنافس على المال والنظر إلى عورات النساء والمظاهر والتلهي بهموم الحياة والطعام والشراب... إلخ، وتصبح المشاكل والهموم التي تشغل الناس كلها أمور دنيوية وكأن الآخرة ليست مشكلة ولا يحمل أحد لها همًا، وكأن الموت ليس بمشكلة، وكأنه ليس أحدًا مهيبًا في السماء يهيمن على كل شيء، وكأن الغيبيات لا تمثل أي مشكلة، وعندئذ يكون رأي الإنسان ومزاجه وهواه وما يشتهيه هو المقياس الذي تقوم عليه الحياة.

****

(١) البلد: ٤.



الفصل الثامن

التذكر (التفكير السليم)

ـ التفكير السليم معناه أن يجعل الانسان تفكيره في حقائق الأمور وليس في ظاهرها ويقارن الأمور ببعضها، أما التفكير الخاطئ فمعناه أنه يبعد تفكيره عن الأمور الهامة ويحصر تفكيره في الأمور التافهة ولا يفكر في حقيقة الأشياء فتكون النتيجة أنه يضل: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

ـ التفكير في حقيقة الأمور هو التذكر والتفكر وهو التفكير العميق في خطورة الأمر بطريقة تثير حاسة الانتباه المخدرة لتعود وظيفة الانتباه واليقظة لخطورة الأمر.

ـ الهدف من التذكر هو عودة وظيفة الانتباه.

ـ وبالتالي فالتذكر هو الوسيلة التي تؤدي الى الانتقال من الغفلة (الجهل بسبب عدم الانتباه) إلى المعرفة الحقيقية.

ـ والتذكر هو وسيلة لتحقيق الهداية، لأن الهداية هي التغير الذي يحدث في حياة الانسان نتيجة انتقاله من الغفلة الى الانتباه واليقظة.

ـ عندما تسأل عن سبب هداية بعض الناس فيكون الجواب أنه تعرض لموقف ذكره بالموت أو الآخرة كواقع هائل فأفاق من الغفلة وانتبه وتغيرت حياته تماما بسبب ذلك الموقف، فهو انتقل من الجهل بالله

(١) الملك: ١٠.



والآخرة الى معرفة الله والآخرة، فمعرفة الله هي باب الهداية.

ـ فالسبب الذي يمنع الإنسان من الهداية هو الجهل بالله والآخرة، ومفتاح الهداية الذي به تهتدي وتكون من أهل الجنة هو معرفة الله والآخرة.

ـ لماذا لا يتعظ الانسان ولماذا لا تؤثر فيه المواعظ وهو كل يوم يرى من مات ومن ابتلي وغير ذلك؟، فذلك بسبب هذا الجهل ولكن تكرار التذكر من خلال المواعظ أو وجود موعظة لها أثر قوي على الانسان قد تفك جهله وتنقله الى الهداية.

ـ سبب الغفلة هو عدم الانتباه، والانتباه هو وظيفة طبيعية ولكنها تكون نائمة أو مخدرة أو ميتة، لذلك فعلاج الغفلة هو استعادتها من خلال إثارة حاسة الانتباه لخطورة ما يوقن به الانسان من خلال التذكر فيؤدي ذلك في لحظة ما أن يفيق من الغفلة ويصحو من الغيبوبة وينتبه لخطورة الأمر.

ـ فهذه هي لحظة الهداية التي تكون سببا لهداية الكثير من الناس، فقد يذكر لك أحد الناس أن سبب هدايته أنه تأثر بموت قريب له أو ابتلاء ما أو موقف ما أعاد له وظيفة الانتباه فأفاق من غفلته وعرف الله والآخرة معرفة حقيقية فتغيرت حياته بسبب ذلك.

ـ واستثارة حاسة الانتباه تتم بالاستمرار في التذكر والتفكر والتدبر في مدى خطورة وأهمية الأمر حتى تعود هذه الحاسة وتتحقق.

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ﴿التفكر والتذكر أصل الْهدى والفلاح وهما قطبا السَّعَادَة وَلِهَذَا وسعنا الْكَلَام فِي التفكر فِي هَذَا الْوَجْه لعظم الْمَنْفَعَة وَشدَّة الْحَاجة إليه، قَالَ الْحسن: مَا زَالَ أهل الْعلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التَّذَكُّر ويناطقون الْقُلُوب

حَتَّى نطقت فَإِذا لَهَا أسماع وأبصار﴾(١)، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم أيضًا: ﴿وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ مَنْزِلَانِ يُثْمِرَانِ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقَ الإيمان وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَارِفُ لَا يَزَالُ يَعُودُ بِتَفَكُّرِهِ عَلَى تَذَكُّرِهِ، وَبِتَذَكُّرِهِ عَلَى تَفَكُّرِهِ، حَتَّى يُفْتَحَ قُفْلُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ﴾(٢)، ويقول أيضًا: ﴿فالفكر إِذا هُوَ المبدأ والمفتاح لِلْخَيْرَاتِ كلهَا وَهَذَا يكْشف لَك عَن فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال الْقلب وانفعها لَهُ حَتَّى قيل تفكُّر سَاعَة خير من عبَادَة سنة، فالفكر هُوَ الَّذِي ينْقل من موت الفطنة إلى حَيَاة الْيَقَظَة﴾(٣).

ـ الغرض من التذكر هو إثارة وتحفيز حاسة الانتباه على العمل مثل إيقاظ النائم.

ـ إذا أخبرت إنسانًا بأمر ما مؤثر ولم يتأثر به فهو عندئذ لم يعرف الأمر لأنه غافل لم ينتبه، وهو يحتاج لأن تكرر له الأمر أي تذكره به حتى يعرفه معرفة حقيقية فيخرج من الغفلة وينتبه، فالتذكير وسيلة لإيجاد الانتباه وبالتالي تحقيق المعرفة الحقيقية، ولكن ليس بالضرورة فقد تظل تذكر إنسانًا بالأمر فلا ينتبه، أي لا يعرف الأمر معرفة حقيقية.

ـ المعرفة النظرية بالله موجودة عند جميع الناس، أما المعرفة الحقيقية فهي التي تؤثر على مشاعر الانسان وحياته، وتتحقق المعرفة الحقيقية من خلال التذكر، لذلك يقول شيخ الإسلام لابن القيم: ﴿معرفة الله تعالى نوعان، النوع الأول: معرفة واقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي، النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه،

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢١٣) -دار الكتب العلمية- بيروت.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٤٠).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٨٣).

والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق الى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه. وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيما لا يحصيه الا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، ... ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكّر والتأمّل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله ﷺ. والباب الثاني: التفكّر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه، واحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه. وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرّده بذلك، وتعلّقها بالخلق والأمر﴾(١).

ـ أنواع الغفلة من حيث قابلية العلاج:

ـ الغفلة نوعين هما:

١ـ غفلة يمكن علاجها من خلال التذكر:

ـ الغفلة هي جهل سببه عدم الانتباه وليس عدم السماع أو الفهم لذلك فالجاهل بسبب عدم الانتباه (الغافل) مهما أسمعته ومهما أفهمته فسيظل جاهلا ولكن إذا تكرر التذكير بغرض إثارة الانتباه فقد يفيق وتعود إليه وظيفة الانتباه.

ـ والغفلة لها درجات متفاوتة فهناك من تذكره مرات كثيرة فلا يتذكر ولكن قد يتذكر في مرة بعد كثير من التذكير فيفيق ويهتدي، وقد يهتدي الانسان من أول شيء يمر عليه يذكره بالله والآخرة، والهداية من الله تعالى.

(١) كتاب الفوائد لابن القيم: (ص: ١٨٦).

٢ ـ غفلة لا يمكن علاجها من خلال التذكر:

ـ الغفلة في المراحل الأولى يمكن علاجها، لكن في المراحل المتأخرة مع الاستمرار عليها تصبح الغفلة محكمة غير قابلة للعلاج وتسمى عندئذ بالطبع على القلب والختم والران والختم والغشاوة وغير ذلك ويصبح الرجل لا يفقه عن الله ولا عن الآخرة مهما ذكرته ولا يستجيب للعلاج.

ـ فالطبع على القلب هو جهل بسبب موت وظيفة الانتباه ولا يمكن إيجاد هذه الوظيفة مرة أخرى، أي هو غفلة لا يمكن علاجها.

ـ فكثرة تذكيره بالأمر لا يفيد، ومهما ذكرته لا يتذكر، وسبب هذا الجهل هو موت وظيفة الانتباه، وهو عقاب ونتيجة للاستمرار في الغفلة التي يمكن علاجها وما ينشأ عنها من الاستمرار في المعاصي أو ما ينشأ عنها من الاستمرار في الكفر.

ـ الطبع على القلب معناه أنك مهما حدثته عن الله والآخرة لا يحدث الانتباه والانفعال بما تقول والدهشة والتعجب والانبهار من غرابة الأمر وخطورته، وبالتالي لا تتأثر مشاعره حبا وخوفا ورجاءً وبالتالي لا يخضع بقلبه وجوارحه، فإذا ذكَّره أحد بالله والآخرة لا يؤثر ذلك فيه ولا تؤثر فيه المواعظ فهو غير قادر على معرفة الله والآخرة مهما أخبرته عن الله والآخرة.

ـ مفهوم التفكير السليم (مفهوم التذكر):

ـ الطبيعي أن يوجه الإنسان التفكير والتصور للشيء الخطير، فإذا شغل الانسان تفكيره في الشيء التافه أو في ظاهر الأشياء ولم يشغل تفكيره في الشيء المهم فهو يحتاج لإعادة ضبط طريقة التفكير لكي يستخدم عقله في التذكر لحقائق الأشياء.

ـ ما الشيء الذي يستحق أن تفكر فيه وينشغل به همك؟ هل الدنيا أم

الآخرة؟ أيهما يستحق التفكير أكثر؟ العاقل يوجه تفكيره للشيء الخطير وينشغل تفكيره وهمه به، والذي لا ينشغل تفكيره وهمه بأمر خطير هو لا يعقل وهو يعطل عقله.

ـ هل يوجد شيء أخطر من اقتراب الموت والسفر إلى الآخرة ولقاء الله؟ فهذا الأمر لا يمكن أن يفارق ذهن إنسان عاقل أبدًا، وكيف ينسى الإنسان الله وهو يعيش في ملكه ويأكل من نعمه!

ـ على أي أساس يجب أن تكون القضايا التي يشغل الانسان بها همه؟:

ـ هناك قضايا كثيرة تشغل هم الناس وتحرك مشاعرهم وجوارحهم، وهذه الأمور فيها تفاوت كبير جدا بين الناس، فمن هذه الأمور المال والسعي عليه ومنها التمتع بملذات الدنيا وشهوات النساء ومنها القيام بواجبات الحياة في التعليم وفي الزواج وتربية الأولاد وفي العمل لكسب لقمة العيش ومنها العمل على حل مشاكل تواجه الانسان كالفقر والمرض والمشاكل العائلية ومنها قضية العالم الآخر الذي يسافر إليه الناس (الآخرة) وقضية وجود الخالق فوقنا بقدرته العظيمة ووجوده معناه بقدرته ورؤيته لنا وإرادته لما يحدث في حياتنا من أمور وأمره بأن نعيش حياتنا خاضعين له.

ـ هذه القضايا منها ما هو مهم ومنها ما هو أهم ومنها ما هو للتسلية المباحة كمشاهدة مباريات الكرة ومنها ما فيه ضرر وعقاب في الآخرة كالشهوات وسرقة المال والمعاصي مما لا يجب أصلا أن يشغل هم الانسان ويؤثر على حياته.

ـ يجب أولا التفريق بين القضايا المهمة والقضايا الأهم ومعرفة مدى الفارق في الأهمية بينهم، فمن القضايا المهمة عمارة الأرض واتقان

العمل والتعليم وتربية الأولاد والعيش في سعادة وسلام، ولكن القضايا الأهم هي وجود الخالق ومراده منا والانتقال الى الآخرة حيث الحياة الأبدية.

ـ والفارق بين هذين النوعين من القضايا كالفارق بين السماء والأرض لأن كل القضايا التي على الكرة الأرضية تزول بزوال الدنيا، لذلك فكلا النوعين من القضايا يجب أن يشغل الهم ولكن مع وجود الفارق، فيجب أن يكون الفارق بين انشغال الهم بالقضايا الأهم أكبر بكثير من انشغال الهم بالقضايا المهمة تماما كالفارق بين السماء والاض، وكذلك الفارق بين تأثيرها على المشاعر كالفارق بين السماء والارض، ولكن بالنسبة للعمل فقد يأخذ العمل بأمور الدنيا قدرا متفاوتا لإعداد الزاد الدنيوي الذي يأخذه المسافر أثناء سفره من طعام وشراب ولكن تظل الدنيا في يده وليست في قلبه ومشاعره وهمومه وأهدافه.

ـ لذلك فالذين ينادون بالتقدم العلمي والتكنولوجي والعمل من أجل سعادة البشر في الدنيا هم على حق وذلك من أعظم الأمور ولكن مع الأخذ في الاعتبار بين الأهم والمهم، فالأهم هو الانشغال بمعرفة الخالق والآخرة وما يتعلق بالآخرة ثم يأتي بعد ذلك أمور الدنيا ويكون الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض مع التفاوت في عمل الجوارح.

ـ فإذا كان همك منشغل بإتقان أمور الدنيا فأنت على حق وذلك شيء جميل جدا ولكن أين انشغال همك بالآخرة وهل انشغال همك بها أكبر بكثير من أمور الدنيا أم لا؟

ـ فالإنسان الذي يسافر إلى مكان مجهول لا يعرفه، وهناك يتم عرضه على محكمة تحكم عليه إما بالخلود في العذاب أو النعيم، فهو خائف من هول الأمر الذي هو مقبل عليه لأنه يتوقف عليه مصيره وحياته كلها، ولكن هناك مخاوف أخرى مؤقتة بسيطة أثناء سفره إلى هذه المحكمة

وهي هل يجد استراحات قريبة يستريح فيها أم لا؟، وهل ينفد ما عنده من ماء؟، وهل يجد مكانًا قريبًا فيه ماء؟، وهل يوجد شيء يعرضه للأذى أثناء سفره؟، كل هذه مخاوف يحمل لها هما ولكنها ليست بشيء أمام الخوف الأكبر الذي يسيطر عليه وهو ماذا يجد وماذا يكون مصيره عندما يصل إلى ذلك المكان الرهيب؟!.

ـ فكذلك الدنيا هناك بعض الأمور التي يخاف منها الإنسان والتي قد تعرضه للأذى لكنها مخاوف مؤقتة عابرة وخوفه الأكبر من يوم القيامة والحساب ومن لقاء الله تعالى وهو خوف دائم لا يفارقه.

ـ فلا يمكن لعاقل ألا ينشغل ذهنه بأخطر شيء ينتظره وينشغل بتفاهات تزول سريعا، لكننا نتناسى لقاء الله والآخرة وننشغل بغير ذلك، والعاقل يفكر في الشيء الخطير وينشغل عن التافه، ولكن إذا حدث خلل في تفكير الإنسان فأصبح يفكر في التافه وينشغل عن الأمر الخطير أصبح في عقله وتفكيره خلل.

ـ الهدف من خلق السمع والبصر والعقل هو استعمالها للتذكر وبالتالي معرفة الله تعالى:

ـ السمع والبصر والعقل هي وسائل يستخدمها الإنسان من أجل التذكر لحقيقة الأشياء، فإذا منع الإنسان نفسه من التذكر والتفكر في الأمر فقد أضاع الفائدة من السمع والبصر والعقل.

ـ ففي تفسير أبي السعود: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وأبصارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ليستعملُوهَا فِيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفُوا بكلِّ منَها ما نِيطتْ بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلُّوا بها على شؤونِ منعمِها عزَّ وجلَّ ويداومُوا على شُكرِه[1].

ـ وفي صفوة التفاسير: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار

(١) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت (٦ / ١٤٤).

والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها، فهو بمنزلة فاقدِها، كما قال تعالى: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾(1).

ـ وفي تفسير الخازن: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(2).

ـ وفي تفسير الرازي: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَة﴾ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئًا﴾(3).

ـ طرق التذكر (طرق التفكير السليم):

ـ التذكر لابد أن يكون بطريقة معينة تثير حاسة الانتباه، فهناك ستة طرق لإثارة حاسة الانتباه وهي:

1ـ المقارنة وتكرار ذلك:

ـ قيمة الشيء تعرف من خلال مقارنته بغيره فمثلًا: هل ألف جنيه هو

(1) صفوة التفاسير –دار الصابوني– القاهرة (2 / 239).
(2) تفسير الخازن –دار الكتب العلمية– بيروت (4 / 134).
(3) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب –دار إحياء التراث العربي– بيروت (28 / 25).

مبلغ كبير أم صغير؟ بدون المقارنة بشيء لا نعرف، بالمقارنة بالمليون جنيه فهو تافه، وبالمقارنة بالجنيه فهو عظيم القيمة.

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة جعل الدنيا شيء تافه لا قيمة له، وإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة لكانت الدنيا عظيمة جدًا؛ لأنه ليس أمام الإنسان شيء غيرها.

ـ فإذا انتبه الإنسان أولًا إلى حقيقة الآخرة رأى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يحدث له انفعال ذهني أو تعجب أو دهشة أو انبهار أو رهبة أو مهابة أو استغراب أو تحير أو انزعاج أو ذهول أو تهيب أو إعجاب بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو أي أمر من أمور الدنيا، وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم.

ـ فلابد من المقارنة بين قوة الله وقوة الإنسان، ورؤية الله ورؤية الإنسان وقدرة السمع عند الله وقدرة السمع عند الإنسان وبين الأمر الطبيعي والأمر الخارق للأسباب، وبين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، والمقارنة بين صحة الإنسان في الدنيا وصحته في الجنة، وقصر عمره في الدنيا أمام طول عمره في الآخرة، والمقارنة بين الشهوات والعقاب عليها، وهكذا حتى يفيق الإنسان من الغيبوبة وينتبه من غفلته إلى أن قدرة الله وهول الآخرة خطر واقع رهيب، وعندئذ تتحقق المعرفة بالله والآخرة.

٢ ـ التصور والوصف للآخرة كأنك تراها وكذلك قدرة الله وليس ذاته وتكرار ذلك:

ـ لا يمكن تصور صفات الذات للخالق سبحانه؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولكننا نستطيع أن نتصور الصفات المعنوية كالقدرة والعلم، فالذي يتصور مدى قدرة الله ومدى علمه فلا يمكن أن يفارق ذهنه صورة هذه القدرة المذهلة وهذا العلم الهائل، فنتصور مدى قدرة

الله على السمع، فسبحانه له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشئهم من جديد.

- وكذلك تصور الآخرة وما يحدث فيها وتشبيه ما فيها بما في الدنيا.

٣ - التخيل كأنك في الآخرة وتكرار ذلك:

- تخيل أنك تقف الآن على أرض المحشر في الآخرة أو أنك الآن داخل جنة الآخرة أو أنك الآن داخل نار الآخرة، أنت الآن فقط تعرف قيمة الدنيا وأنها بكل ما فيها من لذات وآلام لم تكن سوى لعب ولهو، وأنت الآن تدرك أن الناس الذين يعيشون في الدنيا في غفلة تامة عن الآخرة وأن الآخرة خطر هائل جدًا فوق كل تصورات الناس، وأنت تدرك الآن أن الأمور معكوسة تمامًا فكل تفكير الناس ومشاعرهم وأعمالهم هي في أمور الدنيا وأنت تقول: أهؤلاء أغبياء لا عقل لهم!

- الإنسان العاقل هو الذي لا يحتاج إلى أن يذهب للآخرة لكي يعرف مدى هذا الخطر ويشعر به ولكي يشعر بأن الدنيا ما كانت إلا لعب ولهو، وإنما هو يستطيع أن يدرك ذلك بأن يتصور خطورة الأمر وهو ما زال في الدنيا وهذا هو العاقل.

- فلو أن إنسانًا غُمس في النار غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل آلام

الدنيا ومشاكلها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، ولو أن إنسانًا غُمس في الجنة غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل متع الدنيا ولذاتها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، ولو إن إنسانًا عاد من الآخرة إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قليلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١)، وفي الحديث: ﴿يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضرًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ﴾(٢).

٤ ـ تصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة:

ـ يتصور الأمر كأنه يسمع عنه أول مرة، ويكرر تصوره للأمر، وفي كل مرة يتصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة.

ـ أخطر مشكلة هي التعود على الأمر، فكل يوم ينظر الإنسان إلى السماء ويرى الشمس ولا مشكلة في ذلك، والحل هو أنه ينظر إلى السماء كأنه يراها لأول مرة، وينظر إلى الشمس كأنه يراها لأول مرة وكأنه لأول مرة يسمع عن كلمة غريبة اسمها (الشمس) مثلًا.

ـ الاعتياد على سماع أهوال القيامة لن يغير من حقيقة الأهوال القادمة شيء.

(١) المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤.
(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج:٢، ص: ١٤٤٥، برقم: ٤٣٢١).

ـ أكثر المعلومات التي يسمعها الناس كثيرًا في حياتهم هي أن لهم خالقًا وأن هناك آخرة، ولكن هذا الأمر أصبح عند البعض تعود ومعلومات روتينية باهتة، فلابد أن يتصور الإنسان معنى الخالق ومعنى الآخرة كأنه يسمع عن ذلك لأول مرة.

ـ فمثلًا لابد أن يتعامل الإنسان مع النوم والموت كأنه يسمع عن ذلك الأمر لأول مرة، فيجد الأمر عجيبًا مدهشًا يلفت النظر ويستوجب انشغال البال، وكلما أراد أن ينام كأنه يسمع عن النوم لأول مرة فيتساءل ماذا يعني النوم؟ إنه سلب للسمع والبصر والكلام والحركة، فمن الذي يسلب هذه الصفات رغمًا عن الإنسان ويجبره على النوم مرات ومرات، فهو دليل على قدرة هائلة مهيمنة على الإنسان ودليل على ضعف الإنسان، وكذلك كلما قام من نومه يتساءل من أين عادت هذه الصفات إليه؟، لكن تعودنا أن ننام ونصحوا وتعودنا أن نسمع كل يوم: مات فلان، ولم نتخيل اليوم الذي نموت فيه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، وفي الحديث: «النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة»(٢).

ـ عندما يأكل الإنسان برتقالة مثلًا لابد أن ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، ويتساءل من أين أتت؟ وفي أي مصنع أو شركة تم تصنيعها؟ ولماذا صنعت بهذا الشكل؟، والإجابة أنه لا أحد من البشر يستطيع صنعها وإنما خرجت من الطين لتكون طعامًا مناسبًا ومعدًا للإنسان ومحفوظًا بطريقة معينة بحيث لا تفسد، فلابد من قوة خفية لها قدرة هائلة وخبرة هائلة وبراعة على صناعة هذه البرتقالة ولابد أن الذي صنعها يحب الإنسان

(١) الزمر: ٤٢.
(٢) التخريج: صحيح: (السلسلة الصحيحة ج: ٣، ص: ٧٤ برقم: ١٠٨٧).



ويرسل له ما يفيده، فعندئذ يكون الإنسان شاكرًا ممتنًا لمن أعطاه هذه البرتقالة وكل هذه النعم، وكلما أكل برتقالة لا تغيب هذه الصورة عن عينه، فعندئذ قد تصور الإنسان معنى كلمة (برتقالة).

ـ كذلك يتعامل مع قضية البعث كأنه يسمع عنها لأول مرة فيتعجب من الأمر ومن غرابته ثم يدرك هذه الحقيقة المذهلة.

ـ والعاقل هو الذي يرى الأمر كأنه أول مرة ولو تكرر مئات المرات لأن التعود يجعل الإنسان لا يتصور الأمر.

ـ كل إنسان يعلم أن الله يسمعه ويراه ولا يتأثر بذلك، ولكن عندما تتصور أنه لأول مرة تعلم أن هناك أحدا لا تراه له القدرة على أن يراك ويسمعك في أي مكان وطوال الليل والنهار، فلا تستطيع أن تتحرك إلا وأنت مكشوف ومراقب، فهذا يجعل الإنسان في ذهول ولا يغيب ذلك عن ذهنه أبدا لأنه كلما عمل عملا فهناك أحدا رآه.

٥ـ تصور أصل القضية:

ـ أصل القضية هي أهم شيء فيها، فإذا تناسى الإنسان الأصل أصبحت القضية بلا معنى ولا قيمة، فالعاقل يفكر في أصل القضية وحقيقتها وليس في تفاصيلها متناسيًا أصل القضية.

ـ تصور أصل القضية معناه أن يستمر في السؤال لماذا؟ وما حقيقة الأمر؟ فالإنسان يأكل ويعيش ولا يسأل لماذا يأكل ولماذا يعيش؟، وهدفه كذا وكذا ولا يسأل ماذا بعد تحقيق أهدافه؟ فهي أهداف وراءها أهداف، فلابد أن يستمر السؤال: وماذا بعد؟ الإجابة أنه بعد كل هذا يموت وتأتي القيامة وكل ما حققه من أهداف دنيوية تفنى ويأتي الحساب عليها، فمن يتصور ذلك لن يعيش من أجل أهداف دنيوية وسوف يكون هدفه شيئًا واحدًا هو الإعداد ليوم موته وما بعده من حياة.

ـ إذا وصل إلى علم الإنسان بأن هناك شيء غامض أو لغز أو مشكلة أو أمر خطير ومهم، فذلك يجعل الإنسان يفكر ما هو هذا الشيء وماذا أصنع؟

ـ وجود هذا الكون الهائل هو لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده، والموت لغز يدعو الإنسان لمعرفة ما هو وماذا بعده؟، ووجود الإنسان لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده والهدف من وجوده.

ـ فذلك يدعو الإنسان لمعرفة حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك؟ وماذا عليه أن يفعل؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته؟ وليس المطلوب المعرفة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه.

ـ والجاهل لا يفكر إلا في قيمة المال في الدنيا ولا يفكر في ضآلة المدة التي ينتفع بها بالمال وزواله سريعًا وعدم نفعه في الآخرة وأن ما يزيد عن طعام يسد جوفه وملبس يستره ومكان ينام فيه لا يحتاج إليه، فالسعادة المادية في الدنيا ضئيلة وتتحقق بثلاثة أشياء هي ما جاء في الحديث: ﴿من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها﴾[1]، فالإنسان لا يحتاج من الدنيا سوى إلى ثلاثة أمور هي: مكان ينام فيه و لقمة يأكلها وأن يكون غير مصاب بالأمراض التي تعيقه عن أن يعيش سويا، وفي الحديث: ﴿إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب﴾[2]، وعن لقمان بن عامر أن أبا الدرداء قال: ﴿أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونلبس، ويركبون ونركب، لهم فضول أموال ينظرون إليها[3] وننظر إليها معهم

(١) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٦٠٤٢ في صحيح الجامع)

(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٢٣٨٤ في صحيح الجامع)

(٣) يريد أنهم لا ينتفعون بها وإنما يقتصرون على النظر إليها، وليس في النظر نفع على الحقيقة.



عليهم حسابها ونحن منها براء﴾[1]، كما أن المتعة بين النساء متشابهة ففي الحديث: ﴿إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن الذي معها مثل الذي معها﴾[2] ، إذن فمحل الوطء والإصابة متساوٍ بين النساء كلِّهن لذلك فالعاقل لا ينخدع بظاهر المرأة.

٦ ـ تصور عجز الأسباب عن تفسير الأمر:

ـ أهم شيء يمنع الإنسان من معرفة الله هو أن يحصر تفكيره في حدود الأسباب فقط.

ـ سبب عدم الاتعاظ من الابتلاءات هو تصور أن الفاعل للابتلاءات هي الأسباب، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلًا وينسى من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان ويجعله ضعيفًا ومريضًا، ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج وينسى من الذي يسير الريح، ويتصور أن الزمن هو الفاعل للشيخوخة.

ـ الأسباب عبارة عن قوانين تسير بها الأشياء فمن الذي وضع هذه القوانين؟ الله هو الذي خلق القانون الذي يسير به الكون، ففي تفسير الشعراوي: ﴿فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون﴾[3]، فالإنسان إما أن يؤمن بالله الذي يخرق الأسباب وإما أن يؤمن بالأسباب فيكون ماديًا، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبد الأسباب، فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر، وهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله، والبشر لا يستطيعون إلغاء الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج: ١، ص: ٢١٠)

(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ١٩٣٩ في صحيح الجامع)

(٣) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (ج: ١، ص: ٥٥٨٥).

ووضعها.

ـ فمثلًا قانون الجاذبية هو الذي يجعل الشيء الذي يسقط من يدك يقع على الأرض، فهذا القانون مخلوق يلزمك أنت ولكن لا يلزم الله، فالله إذا أراد ألا يقع على الأرض ما يسقط من يدك لفعل، كما أن قانون الجاذبية لا يستطيع أن يفعل شيء فليس هو الفاعل الحقيقي، ولكن الفاعل هو الله سبحانه، فإذا سقط شيء من يدك فوقع على الأرض فنقول أنَّ سبب ذلك قانون الجاذبية مجازًا، لكن في الحقيقة الله هو الذي أوقع ما سقط من يدك على الأرض؛ لأن الله هو الذي صمم هذا القانون.

ـ وكذلك فالدواء لا يشفي والشافي هو الله، والله هو الذي جعل الدواء يؤدي إلى الشفاء؛ لأنه هو الذي خلق القانون الذي به يستطيع الدواء أن يؤدي إلى الشفاء، أي أن الله هو الذي خلق الخواص المعينة التي في الدواء والخواص المعينة الموجودة في الجسم بحيث إذا وضع الدواء نتج الشفاء، والإنسان فقط يكتشف ويعرف ما هو موجود فيستفيد من خواصه وليس يخترع ويبتكر الخواص التي تؤدي إلى الشفاء، وقد يريد الله للمريض أن يشفى بغير دواء ولا أسباب، وقد يبقيه على مرضه وإن أخذ بكل الأسباب، والإنسان مطالب بأن يأخذ بالأسباب فقط لأن الله أمره بذلك؛ لأن عدم الأخذ بالأسباب معصية.

ـ وقد يوقف الإنسان تصوره عند الحدود المادية فقط، فهو يتصور ما يحدث داخل النبات من أسباب، وعندما يسأل عن السبب يجد له سبب آخر، وعندما يصل إلى كيفية اختيار النبات لعناصر معينة يحتاجها من التربة وبدقة متناهية لتكوين مادة البرتقالة مثلا (وتسمى بالنفاذية الاختيارية) لا يجد لذلك سببًا ويعلم أن هناك قوة خفية هي التي تصنع ذلك لكنه لا يتصور ذلك الأمر ولا يلفت انتباهه إليه ولا يشغل همه به رغم أنه يرى البرتقالة ويمسكها بيده ويأكلها!

ـ عندما تتفكر في أي أمر ينبغي عدم التوقف عند الحدود المادية للأسباب، فعندما تتفكر في أي أمر تجد له مبررات علمية لحدوثه، فتبحث عن سبب هذه المبررات فتجد لها مبررات أخرى وهكذا، وعليك أن تستمر في هذا حتى يعجز العلم المادي ويقول هذه لا أجد لها مبررات فتعرف أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر، وعندئذ تشعر أن هناك قوة قاهرة تهيمن على كل شيء وتسيطر على كل شيء سيطرة كاملة وهيمنة كاملة وعلى الجميع الاستسلام والخضوع الكامل للخالق: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١)، أما التوقف عند الحدود المادية للأسباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور، وإن كان مقتنعًا أن الخالق هو الذي أوجدها، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب، فينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى كل شيء على هذا النحو.

ـ فالمشكلة أننا لا نترك أنفسنا نصل إلى عجز العلم عن تفسير الأمر ولا نتفكر في هذه النقطة لكن تفكيرنا يتوقف عند حدود الأسباب العلمية.

ـ فمثلًا الأشياء المصنوعة جاءت من خامات، وهذه الخامات من خامات أخرى، فلابد أن هناك خامات أو أشياء بدأت من العدم، وهذا لا يقدر عليه غير الخالق سبحانه، فالإنسان لا يستطيع إيجاد نفسه، والأشياء لا تستطيع إيجاد نفسها.

ـ عجز علم الإنسان عن تفسير وفهم الأمور يدل على وجود قوة خارقة للأسباب، مثل وجود الروح وخروجها.

ـالمشكلة أن الإنسان قد يقطع هذا التصور ويعتبره فلسفة، فيكون مثل

---

(١) الملك: ٤.

الذي سار في الطريق ونسي هدفه، فالغرض من التصور تحقيق الانتباه.

****

الفصل التاسع

الإعراض عن التذكر (التفكير الخاطئ)

ـ الغفلة عكس المعرفة الحقيقية.

ـ نتيجة الغفلة عن الله والآخرة هي الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا)، والغرور بالنعم يؤدي الى شعور بالقيمة والمكانة والقدر (عكس الخضوع).

ـ ونتيجة المعرفة الحقيقية بالله والآخرة هي الشعور بالضعف (يرى نفسه ضعيفا)، والشعور بالضعف يؤدي الى الخضوع.

ـ والانسان إما أن يختار الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا)، وبالتالي يشعر بالقيمة والمكانة والقدر (عكس الخضوع)، أو يختار الشعور بالضعف (يرى نفسه ضعيفا)، وبالتالي يعيش خاضعا.

ـ النفس تريد الاختيار الأول فماذا تصنع؟: تتغافل لأن الغفلة تؤدي الى هذا الاختيار، والتغافل هو الابتعاد عن التذكر لأنه يؤدي الى المعرفة الحقيقية وهو لا يريد ذلك.

****

ـ الانسان ضعيف وفي نفس الوقت لا يريد الخضوع لأن معيشة الخضوع هي أمر صعب جدا على النفس فماذا يصنع؟: يتغافل ويتناسى أنه ضعيف.

ـ إذا علمت هناك من هو أقوى منك، فهذا معناه أنك تشعر بضعف نفسك والذل له ومعناه أن تخضع لأمره إذا أمرك وإلا عاقبك، وأنت مستكبر لا تريد أن تشعر بالضعف ولا تريد أن تخضع لأمر أحد فماذا تصنع؟ تتجاهل أن هناك من هو أقوى منك فتنسى ذلك الأمر (وهذه وسيلة الحمقى)، فتكون النتيجة أن تعيش معيشة الحر غير الخاضع لأحد.

ـ فالمانع من تحقيق العبادة هو غفلة الانسان عما يوقن به، فهو يوقن بالخالق والآخرة ونزول كلام الخالق للناس على رسله ويوقن بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة وأنه ضعيف أمام الخالق ورغم ذلك لا يحقق العبادة لأنه غافل عن خطورة ما يوقن به.

ـ الهروب من الخضوع:

ـ عدم الخضوع يكون بطريقة مباشرة أو بطريقة الهروب.

ـ الطريقة المباشرة معناها أن يقول الانسان بأنه لا يريد أن يعيش خاضعا أو بأنه غير موقنا بأن عليه أن يخضع.

ـ طريقة الهروب من الخضوع معناها أن الانسان موقنا بأن عليه أن يخضع، وفي نفس الوقت هو لا يريد أن يخضع ولا يريد أن يقول بأنه لا يريد ان يعيش خاضعا فماذا يصنع؟: يبتعد عن الخضوع بطريقة الهروب وليس بطريقة المواجهة بمعنى أنه لا يقول بأنه لا يريد أن يعيش خاضعا، ويبتعد عن موجبات الخضوع بطريقة الهروب بمعنى أنه لا يقول بانه لا يريد سماع ما يذكره بالآخرة مثلا ولكن يهرب عن سماع ذلك بطريقة المراوغة.

ـ طرق الهروب من الخضوع (الاعراض عن موجبات الخضوع):

ـ موجبات الخضوع هي التذكر لمعنى العبادة والتذكر لمعنى ضعف الانسان امام الخالق والتذكر لمعنى الخضوع الكوني والتذكر للغرض من ارسال الرسل وهو عبادة الله تعالى، وطرق الهروب من الخضوع هي عدم تذكر هذه الأمور والابتعاد عن كل ما يذكر بها، وطرق الهروب من الخضوع كالتالي:

ـ أولا: عدم التذكر لموجبات الخضوع لأنها تجعله خاضعا، وهي:

١ـ لا يتذكر معنى الخضوع حتى أصبحنا نعيش في زمن ضاع فيه معنى العبادة ومقصودها، لذلك قمنا بتصحيح معنى العبادة.

٢ـ لا يتذكر مدى خطورة صفات الخالق وبالتالي مدى ضعف الانسان

٣ـ لا يتذكر معنى الخضوع الكوني.

٤ـ لا يتذكر الغرض الأساسي من نزول القرآن ودعوة الرسل؛ فالرسل جاءت لتأمر الناس بصورة مباشرة لعبادة الله تعالى.

ـ ثانيا: الاعراض عن التذكير بموجبات الخضوع لأنها تدفعه الى أن يتذكر موجبات الخضوع:

ـ وتشمل أمرين هما:

١ـ الابتعاد عن كل ما يذكر بموجبات الخضوع.

٢ـ التلهي بشغل الذهن والوقت والجوارح بأمور الدنيا حتى لا يفكر في شيء غيرها.

ـ الإعراض عن التذكر:

ـ رغم أن الإنسان يعلم بأن عليه أن يخضع لله لكنه لا يريد أن يشعر بالخضوع فيتناسى أنه واقع تحت قدرة الله ومراقبته ويتناسى أنه لن يستطيع أن يفلت منه، فكل شيء يدعوه إلى الخضوع فهو يتناساه كأنه لا

يعلمه، فالآيات الكونية وصفات الخالق ووجود الآخرة ونزول القرآن وإرسال الرسل يدعوه للخضوع، فهو يتناسى كل ذلك.

ـ المعرفة الحقيقية بما يوقن به الانسان تدعوه إلى الخضوع وهو لا يريد الخضوع، فيتناسى ما يوقن به ويهرب منه، فالإنسان إما أن ينتبه لخطورة ما يوقن به أو يتناساه ويتغافل عنه كأنه لا يعلمه.

ـ يعرض عن تذكر الغيبيات لأنه لا يحب حياة الخضوع فيهرب من الخضوع ليعيش للدنيا، فهو يؤثر الحياة العاجلة التي يراها ويعيش فيها الآن عن الحياة الآجلة الغيبية التي لا يراها، فلا يريد ترك محبته للدنيا، ولا يعتبر الدنيا مؤقتة للسفر ولا دار امتحان، لذلك فهو يتجاهل الآخرة.

ـ المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة (مع اليقين) هي السبب الذي يجعل الإنسان تلقائيًا يعيش عبدًا، لذلك فهو يتناسى الله والآخرة حتى يبتعد عن السبب الذي يجعله يعيش ذليلا.

ـ فهو يريد ويرجو ألا يكون هناك آخرة وحساب -رغم أن القضية ليست بمزاجه- لأن وجود الآخرة يفسد عليه حياته ويجعله يعيش للآخرة، فيلجأ إلى تجاهل الآخرة (نسيان الآخرة): ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

ـ ولماذا لا يريد الخضوع؟: لأنه مستكبر والخضوع مؤلم بالنسبة له ولأنه اختيار صعب.

ـ عدم تذكر الآخرة والموت كأنه لا وجود لهما:

(١) يونس: ٧، ٨



الآخرة والموت تذكر الانسان بضعفه لضآلة ما يمتلكه من دنيا فانية لذلك فهو لا يريد لن يتذكر ذلك

ـ الذي يريد أن يعيش للمتع العاجلة في الدنيا لا يريد أن يذهب إلى الآخرة، ونظرًا لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب للآخرة فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يغمض عينه عن الآخرة ويتناساها فيعيش كأنه لا آخرة رغم اليقين التام بها، وهذه حيلة الأحمق.

ـ كل إنسان يوقن يقينًا تامًا بأنه سيموت، ولكن الإنسان لا يريد أن يموت، فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يتجاهل قضية الموت ويتغافل عنها ولا يشغل همه بها ويعيش كأنه لن يموت وبذلك يتوهم أنه لن يموت!

ـ كل الناس مسافرون إلى الآخرة ولقاء الله تعالى رغمًا عنهم سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا، وكل الناس ذاهبون إلى الموت رغمًا عنهم، والفرار من الآخرة ومن لقاء الله ومن الموت وتناسي ذلك والتغافل عنه وتجاهله لن يفيدهم شيئًا، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾(١).

ـ فالهروب من الآخرة بالتغافل عنها لن يمنع من مجيئها ولكنها حيلة الأحمق، فالآخرة قادمة وشيكة والألم شديد والموت قادم، فهو عندئذ مثل النعامة التي تضع رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء، أي كأنها تقول لنفسها أنه طالما أنها لا ترى الأعداء إذن فهم غير موجودون ولا أحد يطاردها!

ـ نحن نعرف أن قدرة البشر فوقها قدرة الله وأننا نعيش تحت سيطرته وهيمنته علينا، ونعرف أن هذه الحياة ليست حياتنا المعدة لمعيشتنا، ونعرف أننا في انتظار الآخرة عن قريب، لكننا نتناسى ذلك ونعيش حياة الهارب من سيطرة الله ومن خطر الموت والآخرة، ونتشاغل عن ذلك

(١) الفرقان: ٤٠.



بالتلهي بالدنيا ومشاغلها ومظهر الدين حتى يأتي الموت، وسواء رضينا أم أبينا فنحن مقهورون تحت قدرة الله وغدا اللقاء، فماذا نحن صانعون؟

ـ فيمكن تشبيه ذلك بإنسان يعيش في منزل آيل للسقوط، لكنه لا يريد أن يغادر المنزل فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا.

ـ كذلك الذي سوف تنتهي حياته في أي لحظة، لكنه لا يريد أن يترك الدنيا التي يعتبرها داره وفيها متاعه فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا، أما العاقل فيظل تفكيره منشغلًا بهذا الأمر طالما أنه ما زال مقيمًا في هذه الدنيا.

ـ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلاقِيكُمْ﴾(١)، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

ـ الهروب من تذكر معنى الخضوع الكوني:

ـ هناك فرق بين الخضوع الكوني والشعور بالخضوع وخضوع الجوارح، فالخضوع الكوني معناه أن كل الناس أذلاء مستسلمون خاضعون قهرًا، ولا يستطيعون الخروج عن سلطان الله؛ لأنهم جميعًا واقعين تحت سيطرته وسلطانه وقوته وهم ضعفاء أمام قدرته وهيمنته عليهم، فالإنسان خاضع رغمًا عنه، والإنسان إذا عرف معنى الخضوع الكوني معرفة حقيقية تحقق عنده الشعور بالخضوع وأدى ذلك إلى

(١) الجمعة: من الآية ٨.
(٢) البقرة: ٩٦.



خضوع الجوارح فيعيش حياته خاضعًا لله تعالى.

ـ وسواء رضي الإنسان بالخضوع الكوني أم لم يرضَ، وسواء شعر به أم لم يشعر فهو خاضع رغمًا عن أنفه ولا يستطيع الخروج عن الخضوع لله إلا إذا استطاع أن يخرج من ملكه ومن تحت سمائه ومن فوق أرضه، وإلا إذا استطاع أن يمنع نفسه من الموت ومن المرض ومن البعث والوقوف بين يدي الله تعالى!، فالإنسان خاضع لله ومشيئته خاضعة لله تعالى، والإنسان لا يريد أن يعترف بأنه خاضع لله كونيًا حتى لا يشعر بالخضوع أو يعيش خاضعًا، فيتناسى أنه واقع تحت قدرة الله ومراقبته ويتناسى أنه لن يستطيع أن يفلت منه، فكل شيء يدعوه إلى الشعور بالخضوع يتناساه، والإنسان الذي يريد الهروب من الخضوع الكوني مثل الذي يريد الهروب من الموت يتناسى مسألة الخضوع الكوني ويعيش كأنه غير خاضع، فهو بذلك يحسب أنه يهرب من الخضوع الكوني، وهذا من الغباء، لأنه يكون كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء!.

ـ الاعراض عن التذكير (الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى التفكير في خطورة الغيبيات):

ـ أي الابتعاد عن التذكير بالغيبيات من سماع أو رؤية أو كلام عن الغيبيات، أي يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها فيبتعد عن التذكير أو التفكير في الغيبيات وما يتعلق بها.

ـ فهو يمنع نفسه من التفكير في مدى قدرة الله وخطورة الآخرة ويمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويستمر على ذلك حتى يفقد الانتباه إلى خطورة قدرة الله وخطورة لقائه وخطورة الآخرة فيكون كالسكران الذي لا يدري ما الله وما الآخرة ويؤدي ذلك إلى أن يعيش حياته كأنه لم يسمع عن الله والآخرة.

ـ أي يرفض أن يذكره أحد بالأمر ولا يذكر نفسه بالأمر لتغييب الانتباه بالأمر، أي أنه يتجاهل الأمر كأنه لم يسمع عنه فلا يفكر فيه ويبتعد عن ما يذكر به.

ـ فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك.

ـ فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لا يسمع.

ـ ومن صور إبعاد التفكير في الأمر اللامبالاة وعدم الاهتمام وعدم الاعتناء والتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو وأساطير وهزل ومزاح وليس جدًا، أي كأنه شيئًا تافهًا لا قيمة له وغير مهم، أي التعامل مع الأمر بمبدأ (انسَ الأمر أو كبر دماغك وعيش حياتك)، أي الهروب والتولي والابتعاد والإعراض عن الأمر.

****

التلهي

ـ التلهي يشمل أمرين هما:

١ـ شغل الهم بقضايا الدنيا على حساب تذكر الآخرة.

٢ـ شغل الوقت والجوارح بالأعمال التي تذكر بالدنيا على حساب الاعمال التي تذكر بالله والآخرة.

١ـ شغل الهم بقضايا الدنيا على حساب تذكر الآخرة:

ـ قد يشغل الانسان كل تفكيره في قضايا الدنيا ومشاغل الحياة وبالتالي لا يعطي لنفسه فرصة لتذكر الآخرة، فكلما شغل الانسان همه بأمور الدنيا كلما لم يجد في ذهنه فرصة للتذكر.

ـ فقد يكون كل هم الانسان طوال حياته هو التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك، أو يعيش كل حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه فيكون موردًا ماليًا فقط ويكون ذلك أكبر سعادة له ثم يكتشف في النهاية أنه كان يحصد الهواء ويموت ويترك أولاده يتنعمون بما ترك لهم وهم لا يقيمون له وزنًا في أنفسهم سواء في حياته أو بعد موته.

ـ كثرة مشاغل الحياة في حد ذاتها ليست مشكلة، ولكن المشكلة في أنها قد تكون على حساب وجود فراغ للهم ليتذكر الانسان ويكتشف هل هو يعيش للدنيا أم لله وهل هو غافل أم لا؟ وهل هو حقق العبادة أم لا؟ وهل حبه وخوفه ورجاءه لله أم للدنيا؟ وهل ينتظر ويترقب الحياة الآخرة

أم ينشغل عنها؟ ويفكر في حقيقة الدنيا أمام الآخرة وحقيقة نفسه أمام الخالق وقد يكتشف أنه لا يزال لا يعرف الله والآخرة.

ـ الفرق بيننا وبين السلف الصالح هو أن الآخرة ولقاء الله هو الذي كان يشغل عقولهم أما نحن فما يشغل عقولنا هو الدنيا وأمورها.

ـ مشاغل الحياة ومشاكلها وكثرة الاعمال الدنيوية والواجبات الكثيرة التي يجب على الانسان القيام بها كل ذلك يسرق وقت الانسان ويسرق عمره ويشغل همه طول وقته فلا يترك له أي فراغ من وقت او هم ليتذكر ويتفكر، كثرة الأولاد وطول وقت العمل للكسب من أهم الأسباب التي تسرق الوقت وتشغل الهم، والعجيب ان الانسان إذا وجد فراغا في الوقت وقلة ما يشغل همه من أمور الدنيا فانه يتضايق ويبحث عن ما يسلي وقته ويجعل وقته يمر مثل كثرة الجلوس على المقاهي وغير ذلك أو يشغل وقته يشيء لا يحتاج إليه وبدون داعي.

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة، فهو يعيش الحياة ويخوض فيها وينشغل بأمور الدنيا ولا يفكر فيما سواها، ففي تفسير البغوي: «﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي، ﴿وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ﴾ ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها»[1]، وفي تفسير الشيخ المراغي: «﴿ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي أن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس،

(١) تفسير البغوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: ٣، ص: ٥٧١).

ولا يعنون بما وراء ذلك، فشئون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم، لا يعرفون منها قبيلا من دبير﴾(١).

٢- شغل الوقت والجوارح بالأعمال التي تذكر بالدنيا على حساب الاعمال التي تذكر بالله والآخرة (الانشغال بغذاء الجسد على حساب غذاء الروح):

- أعمال الجوارح نوعين هما أعمال هي غذاء للروح وأعمال هي غذاء للجسد، الأعمال التي تغذي الروح هي الاعمال التي تذكر الانسان بالله والآخرة كالدعاء والأذكار وقراءة القرآن والصلاة وقيام الليل والصيام والحج والذكر والاستغفار والتفكر والرقائق وسماع الخطب والمواعظ والكلام الذي يتعلق بالله والآخرة وغير ذلك، والأعمال التي تغذي الجسد هي الأعمال التي تتعلق بالدنيا كالسعي على المال والطعام والشراب والزراعة والصناعة وإعمار الأرض والتقدم العلمي والتكنولوجي والتعليم والأخلاق والمعاملات الحسنة بين الناس وغير ذلك، ولابد من وجود الاثنين معا لأنه بغير غذاء الروح يموت القلب وتختفي المشاعر التي تتعلق بالله والآخرة، وبغير وجود غذاء الجسد يعيش الانسان في كرب كما أنه لا يستطيع القيام بالأعمال التي تغذي الروح، لذلك فالإسلام يأمر بغذاء الروح وغذاء الجسد.

- وغذاء الجسد هو أمر مشترك بين جميع الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لأن غذاء الجسد مطلوب للجميع ليعيش الناس في سعادة وهناء، لذلك ينادي به الجميع.

- الأعمال التي هي غذاء للروح تؤدي الى إحياء الانتباه ودوام بقاءه وتقويته باستمرار، وحيث أننا نعيش اليوم في زمن الغفلة فنحن أحوج الى الإكثار من الأعمال التي هي غذاء للروح على حساب الأعمال التي هي غذاء للجسد.

---

(١) تفسير الشيخ المراغي - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (ج: ٢٧، ص: ٥٦).



ـ وإهمال غذاء الروح يؤدي إلى موت وظيفة الانتباه، فالإنسان هو الذي يقوم بتعطيل هذه الوظيفة فتموت، مثلما يمتنع الانسان عن سقي الأرض فيموت الزرع، فهو المسئول عن الغفلة التي وقع فيها.

ـ وغذاء الروح أهم بكثير من غذاء الجسد، ولابد من التوازن بينهما، ولكن البعض قد يركز أكثر على اتقان الأعمال التي تتعلق بغذاء الجسد ويعتبرها أهم من الأعمال التي تتعلق بغذاء الروح ويسأل كثيرا عن رأي الدين فيما يختص بالحلال والحرام في هذه الأعمال التي تتعلق بغذاء الجسد ويهمل الأعمال التي تتعلق بغذاء الروح، وربما يختزل الدين في الأعمال التي تتعلق بغذاء الجسد فقط.

ـ الانسان يعيش حياة في الدنيا وحياة في الآخرة، ولكن الحياة الدنيا لا تزيد عن كونها ثانية أو أقل بالنسبة للحياة في الآخرة لذلك فانشغال الهم وتعلق القلب بالحياة في الآخرة لابد أن يكون أكبر بكثير من انشغال الهم وتعلق القلب بالحياة التي في الدنيا وما يتعلق بها من غذاء الجسد.

ـ الفرق بيننا وبين الصحابة هو أنه ما كان يشغل قلوبهم هو الله والآخرة، ونحن ما يشغل قلوبنا هو الدنيا.

****

ـ أثر الاعراض عن التذكر والاعراض عن التذكير على الظاهر:

ـ الإعراض عن التذكر له أثر على الظاهر، لكن لا نعرف هل هذا الظاهر ناشئ من إعراضه التام عن التذكر أم من قلة تذكره.

ـ ويظهر ذلك الإعراض من خلال سلوك الإنسان وانفعالاته وردود أفعاله وكلامه، فتجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر والتعامل كأنه لم يسمع عن الغيبيات، ولا هم له إلا المال والدنيا ولا كلام له إلا عن أمور الدنيا، وهو يعيش كأنه لم يسمع عن الدين أو كأنه لا يفهم معنى الخالق أو معنى الآخرة،

فلا هو مع الدين ولا ضد الدين ولا يوالي ولا يعادي ولا يتأثر به، ويبدو من سلوكه أنه إنسان مادي كل تفكيره في أمور الدنيا وكل عمله للدنيا، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لم يسمع، فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، كأن الأمر غير مطروح أصلًا كأنه أمر تافه، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك، فالآخرة ليست في همه ولا على باله ولا في حساباته ولا في مشاعره وليست هدفه.

ـ وقد يبدو من سلوكه حرصه الشديد على المال وكل همه وحزنه وفرحه على المال وكل عمله للمال وكل كلامه عن المال والحسد والحقد على من يملك المال.

ـ ويعيش كأنه لا علاقة له بالغيبيات، فلا يتأثر قلبه ولا عمله بالغيبيات، كأنه لا رب ولا آخرة، فيعيش للدنيا فتكون مشاعره وهمومه وأهدافه للدنيا، فمشاعره ليس فيها أي تعلق بالدين لا حب ولا كره ولا خوف ولا رجاء وكل تعلق مشاعره بالدنيا، وكذلك أهدافه للدنيا فقط.

ـ وهو إنسان مادي دنيوي يعيش للدنيا، وهدفه أن يعيش في سعادة، وإما أنه يريد السعادة لنفسه فقط أو يدعو إلى السعادة للجميع، فإذا كان يريد السعادة للجميع فهو عندئذ على خلق لا يغش أو يسرق أو يظلم غيره.

****



الفصل العاشر

الانتقال من الغرور بالنعم إلى المعرفة بضآلة النعم من خلال التذكر

ـ الانتقال من الغرور بالنعم إلى المعرفة بضآلة النعم معناه تغيير نظرة الإنسان للنعم، فبدلا من أن يرى نفسه عظيما يرى نفسه ضئيلة، وبدلا من أن يرى الدنيا عظيمة يراها ضئيلة، أي الانتقال من الغرور بالنعم إلى المعرفة الحقيقية بضعف الانسان وضآلة الدنيا.

ـ كل إنسان يعرف أن الدنيا ضئيلة ولكن ذلك لا يزيد عن كونه مجرد معرفة نظرية وليست معرفة حقيقية، فالمعرفة الحقيقية بحقيقة الدنيا والنفس تعني إزالة الغرور بالدنيا والنفس.

ـ أصعب شيء على الانسان أن يغير نظرته للحياة وللأشياء ويغير مشاعره ويغير هدفه، لأن هذا معناه أنه يحتاج إلى أن يغير عقله وقلبه بعقل وقلب جديدين!، في هذا الكتاب نبين لك كيف تغير نظرتك للحياة وللأشياء وكيف تغير مشاعرك وهدفك.

ـ إذا تم تصحيح نظرة الإنسان للأشياء رأى الأشياء على حقيقتها واكتشف أنه لم يكن يعرف حقيقة هذه الأشياء، وبناءً عليه فمشاعره وأهدافه تتغير بناء على ذلك.

ـ كيفية إزالة الغرور بالنعم (كيفية تحقيق المعرفة الحقيقية بضعف الانسان):

ـ لا يتحقق الخضوع حتى يزول غرور الإنسان بأنه يمتلك النعم

كالعين والعقل والقدرة والحركة والإرادة والمال والشهوات، لأنه يحسب أنه قوي بامتلاكه لهذه النعم والقوي لا يخضع.

ـ إزالة الغرور بالنعم (المعرفة الحقيقية بضعف الانسان) مع وجود اليقين هو الطريق الى الهداية وتحقيق العبادة.

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ﴿إعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره﴾(١).

ـ وإزالة الغرور بالنعم يتم من خلال التذكر كالتالي:

١ـ تذكر عدم الملكية للنعم:

ـ الملكية قوة وعدم الملكية ضعف، فالذي لا يملك مالًا ولا متاعًا ويشعر بملكية كل شيء لله يشعر بافتقاره وضعفه أمام الله تعالى، ولن يخضع الإنسان طالما أنه يشعر بأنه يمتلك، فالنفس تأبى أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل، وأصعب شعور على النفس هو الشعور بالذل.

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبالدنيا، فعندما يعلم بأنه ضعيف ولا يملك شيئًا وبأن الدنيا ضئيلة فانية يكون شعوره مثل شعور الإنسان الذي تخسر تجارته ويفقد وظيفته ويتركه أهله ويعيش عالة على الناس، فهو لا يستطيع أن يتمتع ولا يكون لديه طموح حيث لا يملك قدرات، ويكون سلوكه سلوك الذي لا يستطيع أن يفعل شيء وهو معتمد على الله في كل شيء، فكلما أراد أن يفعل شيئًا أو يصل لشيء قال: يا رب، وهذا لا ينفي

---

(١) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي – بيروت (٣/ ٣٥٢)

أخذه بالأسباب، فالخضوع هو الشعور بالضعف والانكسار والتبعية وعدم الحرية وأن مشيئتك لا تستطيع أن تخرج بها عن مشيئة الله.

ـ لابد أن تشعر بأنك عاري من كل شيء ومحتاج إلى غيرك أي أنك أولا تنفي كل شيء من نفسك وثانيا تثبت وتنسب كل شيء لله ، أي الرضا بأن الله له كل شيء ، وأنك جزءا من ملكه وهو يقوم بأمرك ، وأنك ذليل إلى الله محتاج إليه ، فالمشكلة هي عدم وجود المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك لكل شيء حتى النفس الذي تتنفسه، وأنت محتاج إليه فمن غيره تموت وتهلك ، فطالما أن الإنسان يظن أن ما عنده من قوة ومال وقدرات مادية ومعنوية وصحة وهواء ....الخ هي ملكا له ، فلن يشعر بالحاجة إلى الله ليعطيه هذه الأشياء ، يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(1) ، ففي ظنه أنه يمتلك من أسباب القوة ما يجعله في غنى عنه ـ سبحانه ـ وعندما يستبدل حاله من اليسر إلى العسر فإنه يتجه بكليته إلى الله ـ عز وجل ـ بعد أن زالت عنه عوارض القوة وعاش في حقيقة فقره وضعفه واستشعر حاجته الماسة إليه سبحانه ، فتراه يعود إليه متضرعا منكسرا مخلصا له الدين : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(2)، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أنهم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(3).

(١) العلق: ٦، ٧

(٢) سورة النحل: ٥٣ ـ ٥٥

(٣) يونس: ٢٢

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع ، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكا له ، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئا ، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له ، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالي بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل ، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقا لهذا العطاء ، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق، فهذا معناه أنه يشعر بأنه مالك لهذه النعم وأنه حصل عليها بكده وتعبه، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها أو تجاهل الشعور بقيمة ملكيتها لله تعالى، أي أن الإنسان يقول عندئذ بمشاعره أن الله ليس هو الرزاق الكريم المنعم الوهاب، وإنما هذه النعم ملكا للإنسان.

٢ـ تذكر المقارنة بين صفات المخلوق وصفات الخالق، والمقارنة بين الدنيا وما بها من نعم يغتر بها الانسان والآخرة:

ـ معرفة الله تؤدي الى معرفة حقيقة النفس وهذا يؤدي الى إزالة الشعور بالقدر والمكانة والعظمة والكبرياء للنفس، أي ترك العجب والغرور بالنفس وما ينشأ عن ذلك من الأماني والاستكبار.

ـ فقيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، فإذا لم تكن هناك آخرة لكانت الدنيا عظيمة

القيمة، وكذلك إذا لم ينتبه الإنسان لخطورة الآخرة فكأنه لا آخرة، فيرى الدنيا عظيمة القيمة لأنه لا يرى غيرها فتتأثر بها حياته، فهو قد يرى المال عندئذ أمرًا خطيرًا جدًا في قيمته، فهو عندئذ يعيش للمال وتتأثر مشاعره بالمال حبًا ورجاءً وخوفًا من ضياعه وتعظيمًا لقيمته وينشغل همه بقيمة المال وكيفية الحصول عليه وانفعالاته تتأثر بالمال حزنًا وفرحًا وغضبًا، وخلقه السيء يرتبط بالمال حسدًا لغيره وحقدًا وطمعًا في المال، وأكثر كلامه عن المال وكيفية الحصول عليه، وكل عمله للحصول على المال وربما يقع في السرقة والرشوة للحصول على المال وغير ذلك، كل ذلك ينشأ من كونه يرى المال عظيم القيمة جدًا.

ـ إذا أغمض الإنسان عينه عن الآخرة رأى الدنيا عظيمة فتتعلق بها مشاعره وأهدافه، وإذا نظر إلى الآخرة رأى الدنيا ضئيلة فتعلقت مشاعره وأهدافه بالآخرة ولم تتعلق بالدنيا، وكذلك إذا أغمض الإنسان عينه عن الخالق رأى نفسه عظيمة فتتعلق بها مشاعره وأهدافه، وإذا نظر إلى الخالق رأى نفسه ضئيلة فتعلقت مشاعره وأهدافه بالخالق ولم تتعلق بنفسه.

ـ فهذه ثلاثة أعمال قلبية يجب تغييرها هي نظرة الإنسان للأشياء ومشاعره وهدفه، والذي يسعى لتحقيق هذه الأعمال القلبية يبدو في الظاهر أنه لا يفعل شيئًا؛ لأنها أعمال قلبية غير ظاهرة رغم أنه يحقق أخطر شيء في الدين، والمشكلة أن الإنسان قد يحسب أن هذه الأعمال القلبية متحققة عنده في حين أنها قد تكون غير موجودة تمامًا، فيحسب أنه يعرف الله ويحبه ويعيش له، وفي الحقيقة هو أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب غيرها ولا يعيش إلا لها.

ـ إذا قارنا الدنيا بالآخرة فالدنيا لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال؛ لأنها حياة قصيرة جدًا وتافهة جدًا، بل إنها ليست بحياة أصلًا: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ﴾(١)، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٢)، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(٣)، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٤) ، واللعب واللهو هو الشيء الذي ليس له قيمة فلا ينفع ولا يضر وليس له أهمية ولا يهتم الإنسان به ولا يكترث به.

ـ وجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، لأن الدنيا بالمقارنة بالآخرة تساوي صفر وكل آلامها ولذاتها تساوي صفر ومدة البقاء فيها تساوي صفر رغم أنها سنوات طويلة لكنها في حقيقتها تساوي صفرا أمام مدة البقاء اللا نهائية في الآخرة، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة، وأن الستين سنة (مثلًا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة.

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئًا بالمقارنة بالآخرة، فمن يعرف الآخرة ويوقن بها تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره؛ لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئًا، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها وشهواتها على أنه عنده قدر كبير من الطين، فلا ينظر له نظرة انبهار، وينظر إلى الفقير المعدوم على أنه عنده قدر قليل من الطين، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه؛ لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسكين قد أتعب نفسه وأخذ منه قدرًا من الطين، وهذا لا يمنع من أن يطالب بحقه، أما الذي لا يعرف الآخرة إذا كان مظلومًا أو فقيرًا فإنه يكون دائم التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى، وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) الأنعام: ٣٢.
(٣) محمد: ٣٦
(٤) العنكبوت: ٦٤

قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدًا، وإذا كان ظالمًا أو غنيًا فإنه يكون دائم التهلل والفرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره، والذي لا يعرف الآخرة يكون خائفًا خوفًا شديدًا جدًا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنه لا يريد أن يموت، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوته أو ينقص منه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة كبيرة جدًا على أن يفقد غيره من الناس متع الدنيا وألا يحصلوا على شيء من متعها حتى يكون هو الأعلى، وذلك لأن الدنيا ومناصبها وأموالها وشهواتها هي في نظره عظيمة وكبيرة جدًا ويوم القيامة يُفاجأ بأن كل ذلك كان مجرد طين وأنه كان حريصًا على جمع الطين!.

ـ وعندما يعرف الإنسان الآخرة تتغير نظرته تجاه صاحب الأموال الهائلة الذي يعيش من أجل جمع المال يراه مسكينًا غبيًا يُورد نفسه موارد الهلاك، وعلى العكس فإنه ينظر إلى الإنسان المتصل بالله نظرة إكبار وتعظيم ويحسده على ما عنده من إيمان، وينظر إلى الأعمال الهائلة التي يعملها الذين يعيشون للدنيا فيراها لهوًا ولعبًا رغم أنها عند أهل الدنيا أعمال عظيمة جدًا.

ـ فالناس أمامهم جبل من الذهب الحقيقي وجبل من الطين، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم.

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء؛ لأن الدنيا ليست إلا طينًا، فالظالم أخذ كثيرًا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين.

ـ لو كانت قيمة الدنيا أكبر من صفر ولو بذرة واحدة لمنع الله الكافر من الحصول على أي شيء من الدنيا ولو حتى شربة ماء لن يأخذها، ولكن لأن الدنيا لا تساوي شيئًا فالذي معه من الدنيا مثل الذي ليس

معه شيء، فإن الله يعطي للجميع، ففي الحديث: ﴿كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا﴾(١)

- فالدنيا أشبه بحلم في المنام ثم يفيق منه الإنسان، ﴿عن يونس بن عبيد، قال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه... قيل لبعض الحكماء: أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: «أحلام النائم»﴾(٢)، وفي إحياء علوم الدين: ﴿وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام﴾(٣).

٣- تذكر المقارنة بين قصر العمر في الدنيا أمام الخلود في الآخرة:

- الخلود في الآخرة جعل عمر الإنسان في الدنيا مجرد ثوانٍ، فهل يهتم الإنسان بحياة مدتها ثوانٍ أم بحياة مدتها ما لا نهاية؟ وهل يهتم بما يحدث له من خيرٍ أو شرٍ في مدة لا تزيد عن ثوانٍ؟

- الخلود في الآخرة ليس أمر بسيط يمكن أن نمر عليه مر الكرام، فالخلود في النار معناه أن يظل الإنسان في العذاب داخل النار ليس لمدة ساعة -وإن كان ذلك مروع جدًا- وليس لمدة يوم كامل، ولا لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة، ولكن للأبد من غير أن يموت، فمقارنة ذلك بأيام الدنيا وآلامها تكون الدنيا لحظات، حتى لو عاش الإنسان في الدنيا مائة عام تكون لحظات تمضي سريعة، وكذلك الخلود في نعيم الجنة وملذات الجنة ليس لمدة يوم - وإن كان

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماحة، ج ٣، برقم: ١٣٧٦).
(٢) الزهد لابن أبي الدنيا - دار ابن كثير، دمشق (ج: ١، ص: ٣١، ٣٢).
(٣) إحياء علوم الدين -دار المعرفة- بيروت (٤ / ٤٥٥).

ذلك غاية في المتعة - وليس لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة، ولكن للأبد من غير أن يموت، إنها السعادة الأبدية في متعة ولذة بلا حدود وإلى الأبد ومع الجميلات الفاتنات الساحرات من الحور العين، قارن هذا أمام السنوات الحقيرة المعدودة في الدنيا، فلا وجه للمقارنة أصلًا، فإنك في الجنة سوف تبقى شبابًا للأبد بلا مرض ولا ضعف ولا موت مع كل ألوان المتع.

ـ فإذا كانت مشاعر الإنسان تتعلق بسعادة مدتها ثانية -هي سعادة الدنيا- فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة أو هو غير موقنٍ بالآخرة، وهو أحمق لا يعقل.

ـ إن كل شيء منتهٍ فهو ضئيل، وكل شيء خالدٍ فهو عظيم، فالدنيا زائلة ومنتهية وليس فيها خلود، والمتع والشهوات التي تنتهي لا قيمة لها، ولكي يشعر الإنسان بذلك يسأل نفسه: وماذا بعد أن يأكل ويشرب وينام ويعمل ويتمتع ويقوم بأمور الدنيا؟ فالإجابة: إن كل ذلك إلى زوال وبعد ذلك القيامة.

ـ قال مالك بن دينار: «لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى»[1].

ـ فالعمر ما هو إلا يومان، يوم ذهب وباقي يوم، وإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة والقلق من اقترابه من الآخرة فهذا يدل على أنه لا يعرف الآخرة أو لا يوقن بها، وبالتالي لا يتعامل مع هذه الأمور على أنها جد لا هزل فيه وتظل هذه المعاني مجرد كلام لا يؤثر فيه؛ لأن خاصية الانتباه للآخرة قد ماتت عنده، وغدًا يُفاجأ بالآخرة أمام عينه حقيقة واقعة في أقل من ثانية

---

(١) أضواء البيان -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - لبنان (ج: ٨، ص: ٥٠٤).

ولكن لا ينفع الندم.

ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾(١)، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢)، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾(٣).

ـ وفي الحديث: ﴿الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ﴾(٤)، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ﴿مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصًا لنا فقال: ما هذا؟ فقلنا: قد وَهَى فنحن نصلحه، قال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك﴾(٥) أي الآخرة قريبة ووشيكة حتى كأنه لا وقت للانشغال بشيء غيرها.

٤ ـ تذكر ضعف الإنسان في ذاته:

ـ فالإنسان مغرور رغم أنه ضئيل القيمة فأوله نطفة مذرة (أي نطفة لا قيمة لها ولا حياة فيها) وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة (أي يحمل في أمعاءه البراز النتن أثناء حياته).

ـ الغرور بالنعم دليل على غياب المعرفة الحقيقية (الغفلة):

ـ معرفة الخالق تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيشعر بالذل فيرى ضآلة نفسه فلا يغتر بنفسه ولا يعيش من أجل نفسه ولكن من أجل الخالق، فإذا تعلق قلبه بتحقيق رغبات نفسه فهذا دليل على أن الإنسان

---

(١) الشعراء: ٢٠٥ـ٢٠٧.
(٢) المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤.
(٣) يونس: من الآية ٤٥.
(٤) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣١١٥ في صحيح الجامع).
(٥) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٨، برقم: ٢٣٣٥).

لا يزال لم يعرف حقيقة نفسه وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الخالق سبحانه.

ـ وكذلك فمعرفة الآخرة تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة الدنيا فلا يتعلق بها قلبه ولا يعيش لها، فإذا تعلق قلبه بالدنيا فهذا دليل على أن الإنسان لا يزال لم يعرف حقيقة الدنيا وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الآخرة.

ـ وطالما أن الإنسان لا يزال ينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة فهذا يدل على أن معرفته بالآخرة لم تتحقق أو أنه غير موقنٍ، لأن من عرف حقيقة الآخرة وحقيقة ما بها من نعيم فإنه بالضرورة ينظر إلى شهوات الدنيا والأموال نظرة احتقار.

****

الفصل الحادي عشر

تحقيق المعرفة الحقيقية بالغيبيات من خلال التذكر

ـ تحقيق المعرفة الحقيقية بالغيبيات يتم من خلال التذكر لمدى خطورة الغيبيات، والتذكر والتفكر هو التفكير العميق بطريقة تثير حاسة الانتباه النائمة حتى تصحو ويفيق الانسان بعد الغفلة.

ـ لو أن إنسانًا سكرانًا يقف في ميدان المعركة، والقنابل والرصاص يدور من حوله في كل اتجاه، ولكنه هادئ جدًا غير مضطرب لأنه سكران، فعندما تحدثه بالخطر الهائل من حوله ليفيق تجده يتعجب من قولك ولا يلقي له بالًا، فقدرة الله الهائلة تحيط بنا وفي أقل من لحظة نرحل إلى حياة كل ما فيها هائل وعجيب لكننا هادئين تمامًا!

ـ عدم الانتباه لخطورة الأمر وعدم التأثر به معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الغيبيات وكأنه لم يسمع عنها، فالغيبيات من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا تؤثر فينا ونتأثر بها؟ ذلك لأننا غافلون نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر.

ـ المتغافل عن حقيقة وجوده وحكمة خلقه هو مثل رجل دخل مغارة مظلمة في مكان موحش، فوجد عند مدخلها بقايا لجثة إنسان، فما كان منه إلا أن وضع رأسه وأسلم جفنيه للنوم، غير آبه بما يحتمل أن يكون في جوف هذه المغارة من وحوش ضارية، وهو يمنّي نفسه بالفرار إذا استيقظ، مع أن الموت قد يفاجئه في أي لحظة، ولذلك ففي الحديث:

﴿ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها﴾(١).

ـ فهذا الرجل على يقين تام بأن هذه المغارة فيها مخاطر كبيرة ورغم ذلك فهو يتجاهل هذه المخاطر وينام كأنه لا شيء، فهذا الرجل ليس لديه شعور بخطورة الأمر.

ـ لو افترضنا أن الناس يرون الغيبيات من حولهم، فهم يرون الملائكة تسير حولهم ويرى كل واحد قرينه من الشيطان يسير معه، وكذلك يرون الله ويرون الكرسي والعرش ويرون الجنة ويرون نور الحور العين التي تطل من نوافذ الجنة، ولكن كان هناك إنسانًا أعمى يعيش وحوله الناس مبصرون، والناس يقولون له حولك الآن ملائكة هائلة مخيفة ويسير معك الآن قرين من الجن ويراك الخالق فبماذا يشعر هذا الأعمى؟ إنه يشعر بالرهبة والرعب والخوف وربما ما استطاع أن ينام وهمه منشغل بهذا الأمور المذهلة.

ـ لقد خلق الله الناس وأعماهم عن رؤية الغيبيات من حولهم ليختبرهم: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢).

ـ فالملائكة والجن مثلًا ليسوا مصنوعين من مادة كالهواء بحيث لا تراها ولكن المشكلة عندك هي أن عينك ممنوعة من رؤية الملائكة والجن الموجودين معك الآن وأنت تقرأ هذه السطور.

ـ لو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يجد أهل الدنيا يعيشون في حالة من السكر في غياب تام عن الانتباه لما في الآخرة من خطر فينادي عليهم: أفيقوا من الغيبوبة!

(١) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٥٦٢٢ في صحيح الجامع).
(٢) ق: ٢٢.

ـ فالمشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدًا فوق كل التصورات، فالجنة فيها متع ونفع كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بلذة الشوق تجاهها، وإذا كان عنده شعور بلذة الشوق لها فلا يتناسب أبدًا مع حجم المتع والملذات الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ والنار فيها ضرر كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بألم الخوف من مهابتها وألم الخوف من دخولها، وإذا كان عنده شعور بألم الخوف من مهابتها فلا يتناسب أبدًا مع حجم الضرر والألم الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ بل إن الإنسان مهما كان يقينه ففي يوم القيامة سوف يكتشف أن حجم الألم أو اللذة كان يفوق كل تصوراته عندما يرى الملائكة ويرى الجنة والنار ويجد أن الدنيا قد انتهت وأنها ليست بشيء على الإطلاق!، فهو عندئذ يعلم الحقيقة واضحة ولكن بعد فوات الأوان، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا، ففي اللحظة التي يموت فيها الإنسان فإنه يرى الملائكة ويرى الأهوال ويعلم أنه كان في الدنيا أعمى لا يرى شيئًا والآن أصبح يرى، وأنه كان أحمقًا لا عقل له والآن أدرك الحقائق ولكن لا يستطيع أن يعود ولو للحظة واحدة، فالغافل يرى أمر الآخرة بعيدا جدًا ولا يعلم أنه في لحظة واحدة مفاجأة مباغتة من ليل أو نهار قد يأتيه عذاب الآخرة فورًا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَو نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[١].

ـ الله سبحانه له قدرات هائلة جدًا فوق كل التصورات ولو اجتمع البشر جميعًا لن يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ولو بسيطًا مما يصنعه الخالق

(١) يونس: ٥٠، ٥١.



كأن يخلقوا ذبابة مثلًا، وعلم الله بكل شيء حتى ما سيكون ومقدرته على كل شيء فوق كل التصورات، ولكن الإنسان لا يشعر بالخوف من مهابة هذه القدرات، ولا يشعر بالانبهار والإعجاب والحب لهذه الصفات الخارقة التي تصل إلى الكمال، ولا يشعر بالشوق والرجاء في الجنة بما فيها من المتع والحور العين والخمور والملذات التي تفوق كل التصورات، ولا يشعر بالخوف والرعب والفزع من آلام النار المحرقة.

ـ وجميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود المعرفة الحقيقية بالغيبيات.

ـ العجيب أن الإنسان يعيش في هدوء تام وغفلة تامة عن هذه المخاطر الهائلة، فهو يوقن بها ولكن لا يشعر بخطرها مطلقًا.

ـ وأراد الله أن تكون الدنيا معزولة تمامًا عن هذه المخاطر وهادئة تمامًا، فالإنسان لا يرى الغيبيات بعينه فلا يرى تلك المخاطر، وجعل الله ذلك ليختبر الإنسان، والرسل جاءت تحذر من هذه المخاطر ولكن لا حياة لمن تنادي، ولكن بعد لحظات من الآن نجد أنفسنا واقفين على أرض المحشر لنتذكر تحذير الرسل ولكن ذلك لا ينفع.

ـ فالإنسان يعيش وسط خطر رهيب وعلى حافة هاوية سحيقة وأمامه كم هائل لا يستطيع تصوره من شهوات الحور العين والملذات والطعام والشراب، لكنه معزول تمامًا عن رؤية كل هذا وهو يعيش في هدوء تام، بل على العكس تبدو الحياة حلوة خضرة بما فيها من شهوات تبدو عظيمة القيمة في حين أن الحقيقة عكس ذلك تمامًا، فالمتع التي نعيشها ليست هي المتع، والآلام التي نعايشها ليست بآلام، وإنما المتع هي متع

الجنة والآلام هي آلام النار ونحن نوقن بذلك ولكننا نتناسى ونتغافل.

- الحياة عند لحظات وقوع الخطر:

- عندما تقع كارثة معينة أو توشك أن تقع أو عندما يتعرض الناس لخطر معين ما الذي يحدث؟، إن الناس يعيشون لحظات الخطر في رعب وخوف وهلع وترقب لما يمكن أن يحدث، كل الناس يتركون عملهم ولعبهم ويتوقفون عن الطعام والشراب ولا ينشغلون بأمور الدنيا مطلقًا، منهم من يجري ومنهم يموت من هول الصدمة ومنهم من يصاب بالهستيريا.

- السنوات التي نعيشها في هذه الحياة ولو كانت مائة سنة ليست إلا لحظات وقوع الخطر، والخطر الذي نتعرض له هو أننا الآن مسافرون في لحظات إلى الآخرة بكل ما فيها من أهوال لنعيش فيها حياة أبدية وبلا رجعة، وكذلك الخطر الهائل جدًا الذي هو قدرة الله وعلمه ومراقبته لنا، فقدرة الله معنا في كل مكان أينما ذهبنا ولو في الحصون والمخابئ المحصنة، وقدرة الله هائلة جدًا فهي أمر مخيف ومرعب، وكذلك علم الله ومراقبته لنا ورؤيته لنا في كل مكان ولو في الظلام ولو داخل الحجرات المغلقة، نحن نعيش في حصار تام ونخضع لهيمنة تامة لن نستطيع أن نفلت أو نهرب.

- أعمال الدنيا كلها عند لحظة وقوع الخطر ما هي إلا لعب ولهو، والدنيا ما هي إلا لحظات الخطر، والعجيب أن هناك نائمون وآخرون يلعبون والخطر يحيط بهم فهؤلاء لا عقل لهم قد ماتت عقولهم، وهناك آخرون قد أخرجوا كل أعمال الدنيا من قلوبهم وشمروا سواعدهم ولاذوا بالفرار في رعب وخوف لا يأمنون ما الذي يمكن أن يحدث لهم أو يصيبهم من هذا الخطر الهائل، فهؤلاء هم أصحاب العقول وهؤلاء هم أولوا الألباب: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ

(٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

ـ الفارق بين الخيال والسحر وبين الغيبيات:

ـ الفارق في أمرين هما:

١ـ الغيبيات أعجب وأغرب من الخيال والسحر، فمثلًا الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله يقول للشيء كن فيكون ولا يعجزه شيء.

٢ـ الغيبيات حقيقة، أما الخيال والسحر فهو وهم.

ـ مثال يوضح حجم الخطر الهائل الواقع علينا:

ـ الدنيا عبارة عن حجرة هادئة تمامًا وساكنة، وداخل هذه الحجرة يوجد رجل يلهو ويلعب وسط هذا الجو الهادئ، وخارج الحجرة توجد نار هائلة تقترب وتوشك أن تشتعل بالحجرة، والرسل جاءت تدق الباب بشدة وتنادي بصوت عالٍ: احذروا النار احذروا النار! وتنادي على من في الحجرة أن ينظر إلى الشباك ليرى النار، وتدله على ممر للنجاة وسط النار يؤدي إلى حدائق وقصور فيها الأمان والمتع والملذات (الجنة)، فسمع الرجل النداء ورأى النار من الشباك، ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه كأنه لم يسمع النداء وكأنه لم يرَ النار من الشباك وكأنه لم يفهم ما قالته الرسل، واستمر في لعبه ولهوه وسط الجو الهادئ داخل الحجرة، ولم تتأثر مشاعره ولم يتحرك للهرب، فكأن هذا الرجل لا سمع له ولا بصر له ولا عقل له ولا مشاعر له وكأن جوارحه لا تعمل فكأنه ميت، فرغم أن هذا الرجل يلعب ويلهو لكنه في الحقيقة ميت! فمهما أخذت تنادي فيه: احذر النار! فكأنما تكلم ميتًا لا روح فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ

---

(١) الأعراف: ٩٧ـ ٩٩.

الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(١)، فهذا الرجل كالأنعام يأكل ويشرب ويتناسل وينام، والبهائم لا تفقه خطاب البشر مهما ناديتها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢)، فما زالت الرسل تدق الباب وتنادي وهو يستمع إليهم وهو يلعب مثلما يستمع إلى أمر تافه أو لا قيمة له: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(٣).

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم، فكان طائفة منهم لم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا، وكأن شيئًا لم يكن، وكأنهم لم يسمعوا، وكأنهم كالحائط الذي لا يحس، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولاذوا بالفرار فنجو من الجيش، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الحديث: ﴿إنما مَثَلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل

---

(١) النمل: ٨٠.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) الأنبياء: ١ ـ ٣.

من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق(١)، ومعنى (النذير العريان) أن الرجل إِذا كَانَ على مَكَان عَال فَبَصر بالعدو نزع ثَوْبه فألاح بِهِ لينذر القوم، فَيبقى عُريَانا، وعري النذير أبلغ فِي الْإِنْذَار؛ لِأَن القوم إِذا رَأَوْهُ عُريَانًا علمُوا أَن الأمر عَظِيم، وقيل معناه أَنَا النَّذِير الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوّ، فَأَخَذَ ثِيَابِي، فانفلت منهم، فَأَنَا أُنْذِركُمْ عُرْيَانًا، وفي حديث آخر: ﴿مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها﴾ (٢).

ـ فالإنسان الغافل يعيش كأن حياة البشر على الأرض والمنظومة الكونية ليس لها أحد يسيطر عليها ويحكمها وكأن كل إنسان يعيش حياته كيف يشاء، كأن البشر موجودون من تلقاء أنفسهم ولا توجد حكمة من إيجادهم، ويتغافل عن كل الأخطار التي حوله ويعيش في الحياة هادئًا مطمئنًا كأن حياته إنما هي على ظهر هذه الأرض، فهو مطمئن وراضٍ بالحياة الدنيا رغم أن وجود الإنسان على الأرض ليس حياة يقيم فيها ويسكن ولكنها مجرد طريق وسفر واختبار وليست معدة للمعيشة، والحياة التي يعيشها الناس ويقيمون فيها هي في الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣)، فالحياة التي يعيش فيها الإنسان ويأكل ويشرب ويلبس ويقيم هي الآخرة أما هذه الحياة التي نعيشها فهي حياة كاذبة مؤقتة مثل الحياة التي يعيشها عابر السبيل ليصل

(١) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج:١، برقم ١٤٨، وهو أيضًا في صحيح الجامع برقم ٥٨٦٠).
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٨٥٨ في صحيح الجامع).
(٣) يونس: ٧، ٨.

إلى بيته ووطنه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)، «الحيوان» أي الحياة الحقيقية وفي الآية: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(٢) أي لحياته في الآخرة، لذلك من الناس من تكون قضيته كيف يعيش حياته وكيف يقوم بشئون معيشته وكيف يدبر أموره المعيشية وهو لا يدري أنها ليست بحياة وأنها مجرد سفر أوشك أن ينتهي، أما الذي يدرك أنه على سفر فهو منشغل بسفره عن هذه الأمور المعيشية المؤقتة فهو لا يبالي بلقيمات تعينه على سفره كيفما اتفق، ولا يبالي كيف تكون هذه الحياة المعيشية العابرة؛ لأنها زائلة سريعًا فتكون عنده كيفما اتفق.

ـ عدم رؤية الخطر لا يمنع وقوعه:

ـ عدم رؤية الملائكة والجن من حولنا، وعدم رؤية الله، وعدم رؤية الجنة والنار الموجودتين الآن كل هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فكل هذا واقع سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا الأمر أم انتبهنا له، ونحن بعد وقت وشيك من الآن سوف نجد أنفسنا في الآخرة ونجد أنفسنا واقفين أمام الله ونرى الملائكة والجنة والنار أمامنا، سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا ذلك أم انتبهنا له.

ـ فنحن نعيش في عزلة تامة عن الخطر الهائل في حياة هادئة تمامًا مناقضة تمامًا للحياة الحقيقية، ونحن معزولون تمامًا عن رؤية الخالق ورؤية الملائكة والجن، ومعزولون تمامًا عن رؤية ما يحدث في القبر ورؤية أهوال الحساب ورؤية الجنة والنار، وعلى العكس تمامًا نعيش في حياة خادعة تمامًا في ظاهرها، فتبدو كأنها حياة الإقامة والخلود وكأنه لا حياة بعدها.

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) الفجر: ٢٤.



ـ فظاهر الأمور في الدنيا على عكس حقيقتها، وهذه خدعة كبيرة جدًا لا يفطن إليها إلا الذي يتأمل ويتدبر الحقيقة دون أن ينخدع بالظاهر، وفي تفسير ابن كثير: ﴿﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أَيْ هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة﴾[1].

ـ وبالتالي يعيش الإنسان في هدوءٍ تامٍ جدًا ومحاطٍ بسورٍ هائلٍ جدًا يعزله تمامًا عن الخطر الذي يحيط به من كل جانب، وبالتالي كلمًا نظر الإنسان إلى ما وراء الحائط تذكر ثم إذا نظر داخل الحائط نسي، والعاقل هو الذي لا يغفل نظره عن الواقع الحقيقي الذي هو الخطر المحيط به وليس الواقع المزيف الذي هو مجرد سور يعزله عن الخطر.

ـ المعرفة الحقيقية بوجود الملائكة والجن من حولنا:

ـ ربما تسمع أساطير عن إنسان رأى عفاريت وأشباح أو أن مكانًا معينًا مسكونًا بالعفاريت، هذه أمور مرعبة، فالملائكة من حولنا الآن أشد رعبًا من هذه العفاريت فضلًا عن أنها حقيقة، فأي عاقل يوقن بأنه يعيش وحوله كائنات أكثر رعبًا من العفاريت ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابتها، وأي عاقل يوقن بأنه سوف يرى هذه الملائكة ويرى الأهوال يوم القيامة ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابة الأمر!

ـ وجود كائنات تختلف عن البشر ولا يراها الناس ولها قدرات هائلة هو أمر مدهش وعجيب ومذهل، لكن بالنسبة للغافل هو أمر عادي؛ لأنه في حقيقة الأمر هو يجهل هذا الأمر.

ـ فهذه الكائنات عجيبة من حيث تكوينها وصفاتها وقدراتها ومن حيث وجودها معنا ومن حيث أننا لا نراها، لكن كل هذا لا يثير انتباه الغافل عنها، وهو يعيش كأنها كالعدم أو كأنها كائنات عادية جدًا وليس

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٥٧).

فيها أمور تدعو للدهشة، وذلك رغم يقينه التام بوجودها.

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أنك غافل تمامًا عن وجود الملكين معك الآن وفي كل وقت.

ـ وكيف تكون حياة الناس لو أن الله جعل الناس يرون الرقيب والعتيد وهما يسيران مع كل واحد في كل لحظة؟! وهل عدم رؤية الناس لهم تغير من حقيقة وجودهم معنا شيئًا؟ وماذا أيضًا لو أن الله كشف الحجب فرأى الناس الله وهم في الدنيا؟ وهل هذا يغير من حقيقة وجود الله شيئًا؟ ولكن لا يشعر الإنسان بالمهابة من وجود الله ومن وجود الملائكة رغم وجود الاقتناع التام بوجود الخالق ووجود الملائكة.

ـ فلابد أن يشعر الإنسان بأن وجود الجن والملائكة حقيقة واقعة حوله الآن في هذه اللحظة وفي كل وقت، ولا يمكن لإنسان عاقل أن تغيب صورة هذه الملائكة والشياطين وهي تعيش معه وتلازمه عن ذهنه أبدًا.

ـ تصور لو أن الناس ترى الملائكة حولها وفي الطرقات لصعق الناس جميعًا وماتوا من هول ما يشاهدونه، ففي تفسير الخازن: ﴿ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا﴾ يعني ولو أرسلنا إليهم ملكًا لجعلناه في صورة رجل، وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس، كما جاء جبريل إلى النبي (ﷺ) في

صورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين، وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولما رأى النبي (ﷺ) جبريل في صورته التي خُلق عليها صعق لذلك وغشي عليه﴾[1]، وفي تفسير القرطبي: ﴿ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا؛ إذ لا يطيقون رؤيته﴾[2]، وفي تفسير الثعالبي: ﴿لماتوا من هول رؤية الملك في صورته﴾[3]، وفي تفسير روح المعاني: ﴿﴿ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر﴾ أي أمر هلاكهم لعدم قدرتهم على تحمل مشاهدته﴾[4]، أي يموت الإنسان من شدة الرعب والفزع من رؤية هذه المخلوقات المرعبة جدًا الهائلة في ضخامة خلقتها.

ـ لماذا تخاف الملائكة من الله؟ إنها تخاف من هيبة الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[5]، وهذا الخوف يؤدي بهم إلى عمل دائم هو أنهم يسبحون الله تعالي، وفي الحديث: ﴿مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس[6] البالي من خشية الله[7]، إن الملائكة عرفت عظمة الله وعظمة قدره وعظمة قدرته معرفة حقيقية أدت إلى الشعور بالمهابة والحب لله، وأنت أيضًا إذا كنت تعرف قدرة الله معرفة حقيقية فلابد أن ينشأ عن ذلك الشعور بالمهابة والحب لله تعالى.

****

(١) تفسير الخازن –دار الكتب العلمية– بيروت (٢ / ١٢٠).
(٢) تفسير القرطبي –دار الكتب المصرية– القاهرة (٦ / ٣٩٣).
(٣) تفسير الثعالبي –دار إحياء التراث العربي– بيروت (ج: ٢١، ص: ٤٤٧).
(٤) تفسير روح المعاني –دار الكتب العلمية– بيروت (ج: ٧، ص: ١٠٧).
(٥) الرعد: من الآية ١٣.
(٦) الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج.
(٧) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٥٨٦٤ في صحيح الجامع).

الفصل الثاني عشر

المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة في الآخرة

ـ تتحقق المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة في الآخرة من خلال التذكر لمدى خطورتها.

ـ الآخرة شيء مهيب ومخيف ومرعب ومفزع ويدعو إلى القلق، فبدون أن يحدث خوف مهابة من الآخرة فالإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة.

ـ وطالما أن مشاعر الإنسان لم تتأثر بالآخرة (الخوف والرجاء) وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة وكأنه لم يسمع عنها.

ـ فلا تتحقق المعرفة بالآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهن المؤمن يشعر بخطورتها وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه؛ لأنها الخطر المترقب والحياة المنتظرة.

ـ لو قالوا لك أن الكرة الأرضية معرضة لخطر ما محقق ووشيك مثل نزول نيزك ضخم يحطم الأرض أو تعرض الأرض لأشعة تهلك البشر وأن هذا الخطر حقيقة سوف تقع، فماذا يمكن أن يكون سلوك الناس عندئذ؟، هل يكون همهم مشاغل الحياة والأكل والشرب والبحث عن الشهوات والذهاب للعمل أم يكون همهم مُنصَبًّا على هذا الأمر الذي سوف يهلك البشرية كلها، إن هذا الخطر واقع فعلًا وهو أنك سوف

تموت قريبًا وسوف يموت كل البشر وسوف تدمر الأرض وكل الكون، فلماذا لا يشغل هذا الأمر بال الناس ويفكرون فيه؟ ذلك لأنهم يتجاهلونه بينما يفكرون ويهتمون بأمور الدنيا.

ـ وكذلك لو حدثَ حدثٌ كوني كبير ثم قيل إن القيامة سوف تقوم الآن مثلًا، فماذا يمكن أن يفعل الناس؟ إنهم لن ينشغلوا بأي أمر من أمور الدنيا وسوف يهرعون إلى الصلاة والعبادة خائفين وجلين مترقبين الآخرة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهم في غفلة معرضون﴾(١).

ـ ونوضح الأمر بمثال آخر:

ـ كان أحد الناس يجلس على مكتبه داخل أحد المباني الكبيرة يؤدي عمله في هدوء، ثم فجأة دق جرس الإنذار، لكنه لم ينزعج وبقي هادئًا في مكانه جالسًا على مكتبه، رغم أنه كان يعلم أن جرس الإنذار يعني أن هناك حريق بالمبنى وأنه سوف يسقط ويوقن بذلك تمامًا، وأسرع الناس في المبنى يلوذون بالفرار وهم ينادون على هذا الرجل الجالس على مكتبه: احذر النار احذر النار! ألا تعلم أن هناك حريق كبير بالمبنى؟ فيقول لهم في برود أعلم ذلك، وبقي في هدوءه منشغلًا بأعماله، وظل الناس ينادون عليه حتى نبح صوتهم من كثرة النداء، لكن لا حياة لمن تنادي، فكأنما ينادون رجلًا لا عقل له أو ينادون أصمًا لا يسمع أو ينادون جمادًا من الجمادات أو ينادون رجلًا ميتًا ليس لديه أي إحساس أو عقل أو وعي، إنه فعلًا ميت وليس بحي، وكما يقول الشاعر: لقد أسمعت إذ ناديت حيًا، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيًا: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيًا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٢)، ﴿إِنَّكَ

(١) الأنبياء: ١.
(٢) يس: ٧٠.

لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(١)، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ﴾(٢).

ـ فهذا الرجل كان عليه أن يتصور خطورة الأمر فيشعر بالمهابة، ويخاف من الضرر إذا لحقته النار، ثم يسرع للهرب.

ـ فكذلك الذي يقول بأنه يوقن بالآخرة وبسقوط الدنيا وبأنه راحل إلى الآخرة ثم هو لا يتصور هذا الخطر ولا يخافه ولا يسرع بالاستعداد لذلك ويعيش في الدنيا هادئًا منشغلًا بأمور الدنيا التي سوف تسقط حالًا يسمع الموسيقى ويأكل الحلوى!

ـ إن الرسل جاءت لتنذر الناس بوجود الآخرة والجنة والنار، وهذا الإنذار أشد من الإنذار بوجود حريق أو خطر ما، ورغم ذلك هناك من لا ينزعج للأمر ولا يتصور خطورته ويدعي أنه يخاف الآخرة.

ـ معرفة الإنسان بأن هناك عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه مجهز ومعد لاستقبالنا حينما نصل إليه لابد أن تكون معرفة حقيقية، لكن مات المعنى لكلمة (الآخرة)، ولإحياء هذا المعنى يجب التعامل مع الآخرة كأن الإنسان يسمع عنها لأول مرة.

ـ تصور خطورة الآخرة يكون من أربع نواحٍ هي:

١ـ تصور الآخرة كعالم آخر رهيب، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من الآخرة:

ـ فلو افترضنا مثلًا أن الآخرة فيها جنة فقط، وكل الناس ينتقلون من حياة الدنيا إلى الحياة في الجنة، فهذا أمر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة فهو انتقال من حياة إلى حياة مختلفة تمامًا وأعلى بكثير جدًا مما يدعو

(١) النمل: ٨٠.
(٢) الأنعام: ٣٦.



إلى الشعور بالمهابة، ولو افترضنا جدلًا أن كل الناس لن يدخلوا النار فوجود النار نفسها تدعو إلى الشعور بالمهابة من مدى ضخامتها وشدتها وعجبها رغم أنهم لن يدخلوها، وكذلك الوقوف على أرض المحشر وما يحدث على أرض المحشر من أمور الحساب هو أيضًا أمر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة.

- فلابد أن يتصور الإنسان أنه يسمع عن الآخرة وما فيها لأول مرة فيتعجب من الأمر.

- كما يؤدي هذا التصور إلى كراهية النار وحب الجنة.

٢- تصور الآخرة كصورة من صور قدرة الله: وتتمثل في قدرته على البعث وقدرته على الثواب والعقاب الهائل وقدرته على خلق الجنة والنار الهائلتين، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من الله سبحانه.

٣- تصور الآخرة كثواب وعقاب، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من مبدأ الثواب والعقاب وخوف العقاب ورجاء الثواب.

٤ - تصور معنى الخلود في الآخرة.

- المعرفة الحقيقية بعذاب القبر وسؤال الملكين:

- أنت توقن تامًا بعذاب القبر وسؤال الملكين، لكن لو قام إليك أحد الموتى ليخبرك عما كان من سؤال الملكين وعذاب القبر فتقول له وأنت بارد القلب: أنا أعرف ذلك وأكثر منه، فلو جاء بعصاة وضربك بها لكان محقًا ويقول لك: أنت ليس لديك أي تصور عن عذاب القبر؛ لأنك لا تشعر بمدى خطورة هذا الأمر وألم هذا العذاب.

- فإذا لم يحدث لك خوف مهابة من عذاب القبر وسؤال الملكين فأنت تماما مثل الذي لم يسمع عن شيء اسمه عذاب القبر أو سؤال الملكين برغم وجود اليقين بذلك.

ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على البعث:

ـ لو أن إنسانًا مات منذ سنين وبلي جسمه ثم أخبروك أنه سوف يقوم حيًا يسعى إليك وتراه وتتحدث معه، إنه أمر مرعب يجعلك ترتعد وتخاف، وسبب هذا الرعب أن ذلك الأمر خارق للأسباب، إن هذا الأمر سوف يحدث بالفعل لجميع الناس ولكن أنت ستكون واحدًا من هؤلاء الذين يقومون بعد أن ماتوا وفنيت أجسامهم، إن هذا الأمر حقيقة فعلية وقادمة قريبًا، فإذا لم تتحير وتتعجب من مدى قدرة الله على إحياء الأموات وتشعر بالمهابة من البعث ويتأثر همك بهذا الحدث المنتظر القريب الهائل حينما تقوم من موتك ويقوم معك كل الناس فهذا معناه أن قضية البعث ليس لها قيمة في مشاعرك، فأنت غافل عنها كأنها لن تحدث على وجه الحقيقة، فالبعث والحياة في الآخرة هي أخطر قضية في حياة أي عاقل، فلماذا لا ينشغل بها عقل الإنسان ويشعر بالمهابة؟ ذلك لأنه لا يزال جاهلا لا يعرف البعث والآخرة تماما مثل الجاهل الذي لم يسمع عن شيء اسمه البعث أو الآخرة.

ـ بل إنك كنت ميتًا ثم أحياك الله، فكنت نطفة ميتة لا روح فيها في رحم أمك ثم نفخ الله فيك الروح فأصبحت حيًا، وهذا ما تراه كل يوم لجميع الناس حيث يخلق الله الأطفال في الأرحام من نطفة لا قيمة لها وينفخ فيها الروح، إن ذلك أشد عجبًا وغرابة وليس سحرًا ولكنه حقيقة وخرق للأسباب، فلماذا لا تشعر بالتحير والتعجب من مدى عظمة الخالق وقدرته فتشعر بالاستسلام والخضوع لقدرة الله: ﴿قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾(١)، ولماذا لا تشعر بضعفك وضآلتك حيث يفعل الله بك ما يشاء فيحييك ثم يميتك ثم يحييك؟:

---

(١) عبس: ١٧ ـ ١٩.



﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾[1].

ـ الأرض بقيت بدون بشر لمدة أكثر من ٤ مليار سنة، والحيوانات والنباتات كانت تعيش على الأرض لأكثر من ٢٠٠ مليون سنة ولم يكن هناك بشر على الأرض طوال هذه المدة، والإنسان ضئيل جدا وعمره منذ خلق ادم هو فقط عشرة ألاف عام تقريبا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وهذا معناه أن يشعر الانسان بضعفه.

ـ والزروع تراها أمام عينك بذور ميتة تتحول إلى أشجار حية تتنفس وتكبر ثم تموت، فإذا لم يؤثر كل هذا في الإنسان فيشعر بالرهبة من أمر البعث وخطورته ويشعر بالخضوع والاستسلام لله، فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف خطورة معنى البعث ولا الآخرة.

ـ فلو أن إنسانًا وضع في يده حفنة من التراب ثم قال لك انظر إلى هذا التراب فلما نظرت إليه وجدته يتحول إلى برتقالة! إنك تقول إن هذا الإنسان ساحر، إن هذا الأمر يحدث بالفعل ولكن الساحر هنا ليس إنسانًا ولكنه بذرة البرتقال حيث تستطيع بذرة شجرة البرتقال أن تستخدم تراب الأرض وتحوله إلى برتقال! وهكذا كل النباتات والزروع، وفي الحقيقة فإن بذرة البرتقال ليس لديها القدرة على عمل ذلك، ولكن هناك قوة خارجية خفية هي التي تمكن بذرة البرتقال من هذا العمل، فالبذرة هي جماد تحول إلى كائن حي (نبات): ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) البقرة: ٢٨.



قَدِيرٌ﴾(١).

ـ الذي يعيش للآخرة يتعامل مع البعث والآخرة على أنها حقيقة واقعة وجد لا هزل فيه وخطر محقق، والذي يعيش للدنيا يتعامل مع البعث والآخرة كأنها لعب أو أمر غير مهم ولا يأخذها مأخذ الجد ويتغافل عنها رغم اليقين بها.

ـ تصور خطورة الآخرة:

ـ إن الآخرة فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من كابوس مرعب وأشد رعبًا من رؤية أشباح وأعجب من السحر، لكن الآخرة في مشاعر البعض هي عالم عادي جدًا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه مثل حواديت، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّور فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾(٢).

ـ عندما يرى الإنسان كابوسًا مرعبًا فإنه قد لا ينام عدة أيام؛ لأنه كلما نام رأى الكابوس، ويكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس؛ لأن فيها أهوالًا أشد من أي كابوس، فضلًا عن أنها حقيقة وليست كابوسًا، فالذي يعرف خطورة معنى الآخرة لا تفارق صورة الآخرة ذهنه.

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بالآخرة رغم ما بها من أهوال وأنها المصير، لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بالآخرة؟! وكأنه

(١) الروم: ٥٠.
(٢) يس: ٥١، ٥٢.



لا يوجد أي شيء يدعو للهم بالآخرة! فهو في غفلة تامة عن الآخرة فلا يوجد أي تأثر بالآخرة سواء سلبًا أو إيجابًا فلا يخاف الآخرة ولا يكرهها ولا يحبها؛ لأنه لا يشعر بها أصلًا وكذلك كل الغيبيات.

ـ المعرفة الحقيقية بالآخرة مع وجود اليقين تؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياته من أجل الإعداد للآخرة، فتكون حياته كلها كالذي يرتب أموره ويعد حقائبه ويجهز نفسه ويستعد للرحيل، فلا يعيش حياة المقيم، وإنما حياة الإعداد والترتيب والاستعداد النفسي والتأهب للمرحلة القادمة الخطيرة.

ـ عندما يشعر الإنسان بالآخرة فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته؛ لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة، ويشعر بأن السعادة إنما هي في الجنة، فتكون الجنة هدفه وطموحه وغايته ومستقبله؛ لأنه سوف يشعر بأن الحياة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من الأعمال الضخمة هي حياة كاذبة ومجرد لعب ولهو مثل لهو ولعب الأطفال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)، فالمكان الطبيعي لمعيشة البشر ليس الكرة الأرضية وإنما هو الآخرة، والكرة الأرضية ليست إلا مكانًا هبط إليه آدم ليتم اختباره وذريته ثم يعودون إلى حيث ديارهم وأهليهم وأوطانهم في الآخرة، أما إذا ظل الإنسان غافلًا تلهيه الدنيا فغدًا سوف يشعر بالآخرة حين لا ينفع الندم: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢).

ـ الدنيا هادئة تمامًا ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل:

---

(١) العنكبوت:٦٤، ومعنى (الحيوان) أي الحياة الحقيقية.

(٢) الفجر: ٢٤، ومعنى (لحياتي) أي حياته الحقيقية في الآخرة.

ـ الدنيا لها ظاهر وباطن، والآخرة كذلك، والظاهر عكس الباطن تمامًا، فظاهر الآخرة أننا لا نراها، وظاهر الدنيا زينة هائلة توحي بأن الدنيا عظيمة في متعها وآلامها، والعاقل هو الذي لا ينخدع بالظاهر ويفكر في الباطن ليعرف حقيقة الشيء.

ـ فمثلًا لو كان في يدك ظرف فارغ لا شيء فيه ومكتوب عليه مليون جنيه، فالذي ينظر إلى المكتوب على ظاهر الظرف ولا ينظر إلى حقيقة ما بداخله هو أحمق لا عقل له، فالمكتوب على الظرف هو زينة الدنيا، وما بداخل الظرف هو حقيقة الدنيا، والعكس لو كان في يدك ظرف مكتوب عليه صفر ولكن بداخله مليون جنيه فالعاقل هو الذي ينظر إلى داخل هذا الظرف ليعرف حقيقته، فالدنيا والآخرة كاذبتان تقولان عكس ما بداخليهما تمامًا.

ـ العاقل هو الذي لا ينخدع بهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به، ويسارع بالفرار قبل الكارثة والطامة الكبرى.

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة)!!:

ـ مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم، فنحن مقبلون على خطر عظيم وحدث هام جدًا، والعد التنازلي مستمر الآن، ويوشك أن نلحق بالآخرة، لكننا لا نشعر بذلك، ونظن أن الأيام طويلة والعمر مديد، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين الدنيا والآخرة، فعندئذ تشعر بمدى خطورة الآخرة ومدى ضآلة الدنيا فتشعر بالمهابة من ذلك الخطر العظيم (الآخرة).

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا.

ـ فلو أن رجلًا عاد إلينا من الآخرة، ماذا يمكن أن يقوله؟ إن هذا الكتاب عبارة عن تصور لما يمكن أن يقوله ذلك الرجل، إنه سوف يجد الناس على يقين واقتناع تام بالله واليوم الآخر وكل ثوابت الدين، وربما عندهم تفاصيل قد أيقنوا بها أكثر منه هو نفسه، ورغم ذلك فالله والآخرة ليس لهما وجود في شعور البعض ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، إنه سوف يَعجب من هذا الانفصام التام الذي يتمثل في وجود مسلمين يقرون بالغيبيات، ولكن الغيبيات غائبة تمامًا من شعور بعضهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، فكيف يوقن الإنسان بالآخرة التي هي المستقبل والمصير ثم لا يشعر بالمهابة وخوف العقاب وكيف لا يشعر بالغربة وهو مسافر إليها؟! وكيف يوقن الإنسان بالله الذي صنع بقدرته كل البشر والكون وهم مقهورون تحت قدرته ثم لا يشعر بالمهابة والحب إعجابًا بقدرته وخوف العقاب ورجاء الثواب؟! ذلك لأن المعرفة بخطورة الأمر لم تتحقق بعد.

ـ الإنسان قد يتجاهل الآخرة فتصبح كأنها لا قيمة لها، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره، وهو بذلك قد أفرغ الكلمة من محتواها، مثل الطفل الذي في يده أسد مصنوع من البلاستيك فهو يلعب به رغم أنه يوقن تمامًا أنه أسد لكنه مسلوب القوة، فكلمة (الآخرة) تعني الأهوال والمصير والمستقبل، لكن كلمة (الآخرة) عند الغافل هي كلمة ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها تأثير على المشاعر والهموم والأهداف.

ـ الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(١)، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾(٢)، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا، ورغم ذلك فإن مشاعر الناس تجاه الآخرة وأمور الدين فاترة باردة، في حين تتفاعل مشاعرهم وانفعالاتهم تجاه أمور الدنيا الفانية، فالآخرة أمر جاد جدًا وخطير جدًا ولا يحتمل التراخي، ونحن نتعامل معه بلا مبالاة وفتور شديد بغير جدية وإدراك لخطورته، هذا معناه أن هناك غفلة تامة عن الخطر العظيم الذي نحن مقبلون عليه، إن الآخرة هي خطر عظيم جدًا نحن مقبلون عليه حتمًا بعد وقت ضئيل جدًا يمر سريعًا دون أن ندري.

ـ وكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب على المنبر فذكر الآخرة تحركت مشاعره وانفعل بشدة ففي الحديث: ﴿وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم﴾(٣).

ـ الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه:

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قصيرة وغدًا اللقاء رضيت أم لم ترضَ، أعجبك الأمر أم لم يعجبك، شعرت بذلك أم لم تشعر، ومهما كانت الظروف والأوضاع من الفقر أو الغنى، من الراحة أو التعب من طاعات أو معاصٍ، ومهما تبدلت الظروف والأوضاع فذلك لن يغير من حقائق الأمور شيء، وقد سبقك الكثير إلى هناك والدور في انتظارك قد أوشك فعلًا وتكاد تصل، وهذا التغافل والتعامي لن يغير من حقائق الأمر شيئًا، فالملكين من حولك، والله ناظر إليك، والآخرة أمامك، سواء رضيت أم لم ترضَ، سواء أخذت

(١) الحج: ٢.
(٢) صّ: ٦٧، ٦٨.
(٣) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: ٣، ص: ١٨٨، برقم ١٥٧٨).



تبرر لنفسك ما تفعل أم لم تأخذ، فالحقائق الغيبية التي نعيش فيها والتي هي في انتظارنا رهيبة، ولكن أين مَنْ عنده مشاعر يحس بها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١)، فإنك تظن أنك تفر من الموت بأن تتغافل عن أن تشعر به وإن كنت مقتنعًا به تمامًا وأنه ملاقيك، ففي الحديث: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزًى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»(٢)، وكل الناس سوف يذهبون إلى الآخرة، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن الذهاب إلى الآخرة إن استطعت!: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾(٣)، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة، فماذا أنت صانع؟!.

ـ تصور لو أن رجلًا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يقول للناس: ليس أمامكم إلا ثواني معدودة والعد التنازلي مستمر، فأنتم مقبلون على خطر هائل جدًا من أشد ما يمكن ويوشك أن تلحقوا بالآخرة فأدركوا أنفسكم، لكنه سوف يجد الناس هادئين تمامًا ويعتبرون أن هذه الحياة التي يعيشونها سنوات طويلة وعمر مديد وليست ثواني معدودة، ويعتبرون الذهاب إلى الآخرة مثلما يتسلى الإنسان بلعبة مملة قد مل منها، إنه سوف يجد الناس يعيشون في هروب وتجاهل للموت، وهروب وتجاهل للآخرة، وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، رغم أن هذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق

---

(١) قٓ: ٣٧.

(٢) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٧٣ في صحيح الجامع).

(٣) الأنعام: ١٣٤، ١٣٥.

الأمور شيئًا، فالخطر قائم وهم مقبلون عليه، رضوا أم لم يرضوا والأمر خطير وعظيم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾(١)، فهم يعيشون في غيبوبة مثل السُّكْران الذي لا يدري ما الذي ينتظره، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فينظر إلى الآخرة بفتور شديد ومشاعر باردة، رغم أن الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(٢)، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا.

ـ الشعور بمدى الخطر في الآخرة:

ـ إن كلمة الآخرة تعني المصير المرعب والمخيف الذي أنت مقبل عليه، وتعني الأهوال العظيمة، فلماذا لا تشعر بالمهابة والقلق من أهوال القيامة؟، فمن أسماء الآخرة (يوم الحسرة) و(يوم الزلزلة) و(يوم تشخص فيه الأبصار)، و(الغاشية)، وفي تفسير البحر المحيط: ﴿﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ والغاشية: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة﴾(٣)، ﴿يومًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾(٤)، إن الآخرة هي أخطر شيء في حياة الإنسان، وأهوال القيامة من أشد ما يمكن ومن أخطر ما يمكن، وما نشعر به من ذلك الخطر لا يساوي واحد على مليون من خطورة الآخرة، فالأمر يقابله البعض ببرود في حين مع أي أمر من أمور الدنيا تجد المشاعر تتفاعل والخوف شديد، وانظر إلى شدة خوف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين والصالحين من الآخرة، فلو جاء

(١) صّ: ٦٧، ٦٨.
(٢) الحج: ٢.
(٣) البحر المحيط -دار الفكر- بيروت (ج: ١٠، ص: ٤٨٠).
(٤) المزمل: من الآية ١٧.



إلينا إنسان من الآخرة فرأى حالنا لأصابته سكتة قلبية من حال البعض وبرود أعصابهم تجاه هذا الخطر المحدق، انظر كيف يعبر القرآن عن هذا الخطر: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(١)، فهل رأيت إنسانًا أصابه السُّكْر من شدة العذاب، إن الذي يقول إن ما يحدث في الآخرة هو خيال لا يصدق هو أفضل حالًا من الغافل عن الآخرة رغم خطأه الفادح، وإن الذي يشعر بخطورة الآخرة على أنها فيلم مرعب يثير الفزع والرعب من أفلام السينما فهو رغم خطأه الفادح أفضل حالًا ممَنْ تكون الآخرة في شعوره عادي! فلابد أن تشعر بمدى ما أنت مقبل عليه، وكيف لا يهتم إنسان بأن يشعر بما هو مقبل عليه.

ـ إن الآخرة التي في مشاعر البعض تختلف عن الآخرة الحقيقية، فإن الآخرة التي في مشاعر بعض الناس اليوم هي آخرة أليفة ودودة لا مشكلة فيها ولا خطر فيها، وإن شعورهم بالآخرة مثل شعورهم بأي شيء عادي! إنك لو قارنت بين خطر الآخرة وبين أي أخطار أو مخاوف في الدنيا فسوف تجد أن الآخرة لا تمثل في مشاعرك خطرًا حقيقيًا أو أهمية حقيقية مثل أي خطر تواجهه أو تتعرض له في الدنيا فتجد المشاعر متفاعلة به والبال مشغول، وذلك رغم الفارق العظيم بين كل أخطار ومخاوف الدنيا وبين خطر الآخرة، إن الذي لا يتأثر بشيء مؤثر جدًا فإنه غافل عنه كأنه لم يسمع عنه، فهو لا عقل له، إن الآخرة أمر مؤثر جدًا وخطير جدًا ولكن لا يوجد تأثر بها!!

ـ فكلمة (الآخرة) عند من لم يشعر بخطورتها تختلف عن كلمة

(١) الحج: ٢.



(الآخرة) عند من يشعر بخطورتها وأنها أمر فعلي حقيقي وحقيقة ماثلة فعلًا، فالأول يراها أمرًا عاديًا ومجيئها لا يمثل خطورة، والثاني خائف منها: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أنها الْحَقُّ ألا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (١)، والأول سوف يُفاجأ المفاجأة الرهيبة بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يسمع عنها لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة، أما الثاني فكان يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجأ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى.

- عدم الانتباه لخطورة الآخرة جعل كلمة (الآخرة) اسمًا فقط بلا مسمى حيث تم إفراغ الكلمة من المعنى والقيمة، فأصبحت الآخرة مجرد شكل فقط تم تفريغه من قيمته وتم حجب جميع أثره حيث حدث إفراغ لكلمة (الآخرة) من محتواها الحقيقي فأصبحت كأنها عديمة الأهمية، فهو يتعامل مع كلمة (الآخرة) كأنها تتحدث عن بشر غير موجودين على الأرض وأن هؤلاء البشر سوف يذهبون لعالم آخر غير الأرض، إذن فالقضية لا تخصه هو ولا تعنيه ولا تضره ولا تنفعه فلا يشعر بقيمتها، ولا مانع من أن يوافق عليها فلا يستشعر خطورتها لأنها لا تخصه، فهو يتعامل مع المعلومة كأنها تخاطب بشرًا آخرين في كوكب آخر ليسوا على الأرض فلا يخصه الأمر، كأن الكلام ليس موجهًا له، أو كأن هذا الكلام باللغة الإنجليزية وهو لا يعرف غير العربية فبالنسبة له كأنه طلاسم.

- الشعور بالمهابة من هول الآخرة:

- الإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم

(١) الشورى: ١٨.

أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية، ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها، أما الذي يشعر بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة.

ـ إن الطالب إذا دخل الامتحان فمن هول الموقف قد يتلعثم ولا يستطيع الإجابة، وبعض الناس إذا تعرض لصدمة شديدة فإنه قد يفقد الذاكرة، فنحن في الدنيا في حالة امتحان عصيب عليه رقيب وعتيد لكننا غافلون عنه.

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا﴾ [المائدة: ١٠٩] واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام ﴿لا علم لنا﴾ فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي أنه قال: نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلًا آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون لا علم لنا﴾[1].

ـ وفي الحديث: ﴿إنكم تحشرون حفاة عراة، قلت: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك﴾[2]، وذلك من شدة الخوف من هول الموقف.

ـ إن الذي يقف أمام القاضي ينتظر حكم المحكمة هل يحكم عليه بالسجن أم بالبراءة فهو قلق جدًا لدرجة أنه قد لا يستطيع الوقوف على رجليه فيجلس على ركبتيه من هول الترقب والانتظار وليس من التعب،

(١) تفسير المحرر الوجيز –دار الكتب العلمية– بيروت (ج: ٢، ص: ٢٥٦).
(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: ٤، ص: ١١٤، برقم: ٢٠٨٤).



ففي أيسر التفاسير: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾: أي كل أمة ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها»[1]، وفي تفسير الخازن: «﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي»[2]، وفي تفسير الخازن أيضًا: «﴿وترى كل أمة جاثية﴾ قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوًا»[3].

******

(١) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (ج:٤، ص: ٦٢).
(٢) تفسير الخازن –دار الكتب العلمية– بيروت (ج ٥، ص: ٤٠٢).
(٣) تفسير الخازن –دار الكتب العلمية– بيروت (ج ٤، ص: ٣٥٥).



الفصل الثالث عشر

المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة في الجنة والنار

ـ الجنة هي حياة مليئة بالأفراح والورود وبكل ألوان السعادة والملذات والفتيات الجميلات والخمور والشهوات والقصور وكل ما تتخيله من ألوان المتع.

ـ إذا كنت لا تزال لا تشعر بالمهابة من مدى ما في الجنة والنار من عجب وخطر فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار، وإذا كنت لا تزال لا تشعر بالشوق للجنة وحب الحور العين والخوف من النار فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار.

ـ إن متع الدنيا تجد المشتاقين إليها، فأين المشتاقون إلى الجنة؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ومَنْ يدَّعي أنه يشتاق إلى الجنة وليس عنده نفس الحالة النفسية لشخص يشتاق إلى محبوبه فهو كذاب.

ـ إذا سمع الإنسان عن وجود كنز وتأكد من وجوده في مكان ما، فإنه يسعى ويلهث وراءه ويحلم بأن يجد فيه الذهب والياقوت والمرجان ويكون ذلك هدفه، ولكن إذا سمع عن وجود الجنة التي هي كنز هائل به الذهب والياقوت والمرجان فلا تجده يلهث وراءه ولا يشتاق إليه ولا ينشغل به همه ولا يتخيله ولا يحلم به، ذلك لأنه لا يزال لا يعرف الجنة أو أنه يشك في وجودها.

ـ المعرفة الحقيقية بالجنة:

ـ يتحدد ذلك من خلال وجود عنصر الانتباه أو وجود أثر المعرفة كالتالي:

١ـ وجود عنصر الانتباه: ويتمثل ذلك في الشعور بالمهابة من مدى ما في الجنة من متع ولذات عجيبة جدًا ومذهلة وتفوق كل التصورات والانبهار بها.

٢ـ وجود أثر المعرفة الحقيقية: أي وجود الشعور بالشوق والحب للجنة والشعور بالأمل والرجاء فيها والشعور بالخوف من فواتها، والشعور بالصبر والترقب والانتظار للوصول إليها.

ـ فعندما يسمع الإنسان أن هناك شيئًا فيه ألوان هائلة من المتع، فإنه يحب ذلك الشيء، فالجنة فيها كل ألوان المتع والملذات فإذا لم تشعر بلذة الحب للجنة، فهذا معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف الجنة أو أنه غير موقن بالجنة.

ـ ولابد من وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للحب والشوق والرغبة في الجنة، فالحب عبارة عن متعة ولذة، فمن لم يجد في محبة الجنة متعة ولذة فهو لا يحب الجنة.

ـ وكثير من الناس يدَّعون حب الجنة والشوق إلى الحور العين، فهل عندك نفس الحالة النفسية الموجودة عند محب يشتاق إلى محبوبته؟ إذن فالحور العين لا وجود لها في مشاعرك، كأنها مصنوعة من البلاستيك وليست نساء جميلات.

ـ الانتباه إلى خطورة الشهوات والآلام!:

ـ هذه الحياة التي نعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة؛ لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، وإنما الدنيا عبارة عن طريق يؤدي إلى الآخرة، فنحن الآن في حالة سفر وليس إقامة.

ـ فكلمة (الشهوات) تعني الجنة، وكلمة (الآلام) تعني النار، ولكن قد تطلق كلمة (الشهوات) مجازًا ويقصد بها شهوات الدنيا، لكن في الحقيقة لا وجود للشهوات إلا في الجنة، وكذلك قد تطلق كلمة (الآلام) وما في معناها كالمتاعب والمشاكل وغيرها مجازًا ويقصد بها آلام الدنيا ومتاعبها ومشاكلها وهمومها لكن في الحقيقة لا وجود للآلام والمتاعب والمشاكل والأحزان إلا في النار.

ـ وكذلك كلمة (إقامة) وما في معناها كالسكن والمأوى تعنى الإقامة والسكن والمأوى في الحياة الآخرة وليس في الحياة الدنيا لأن الدنيا ليست دار إقامة وسكن ومأوى، إنما هي مجرد طريق يمر فيه الإنسان ليصل إلى الآخرة، ولكن قد تطلق هذه العبارات مجازًا ويقصد بها الحياة الدنيا.

ـ فما في الدنيا من طعام وشهوات ليس إلا مجرد اسم فقط: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١)، وفي الحديث: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»(٢)، وفي الحديث: «إن مَطعم ابن آدم قد ضرب مثلًا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير»(٣)، وفي

---

(١) البقرة: ٢٥.

(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٤١٠ في صحيح الجامع).

(٣) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٢١٩٥ في صحيح الجامع).

حديث آخر: ﴿والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع﴾(١)، وفي الحديث: ﴿يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة فيغمس فيها، ثم يقال له: أي فلان هل أصابك نعيم قط؟ فيقول لا ما أصابني نعيم قط، ويؤتى بأشد المؤمنين ضرًا وبلاءً فيقال: اغمسوه غمسة في الجنة، فيغمس فيها غمسة، فيقال له: أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء؟ فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء﴾(٢).

ـ إذن فالسبب وراء الوقوع في شهوات الدنيا، وسبب عدم رضا الإنسان وانفعاله بآلام الدنيا هو ضعف أو غياب المعرفة بشهوات الجنة وآلام النار أو ضعف أو غياب اليقين، فقد يكون الإنسان موقنًا بالجنة والنار لكنه يعيش شهوات الدنيا على أنها هي الجنة ويعيش آلام الدنيا على أنها هي النار بالنسبة له لغياب أو ضعف المعرفة.

ـ كل الناس يحبون الشهوات ويحبون النظر إلى العورات، فمنهم من يرى ذلك في الدنيا فيحبون شهوات الدنيا ويحبون النظر إلى نساء الطين، ومنهم من يرى ذلك في الجنة فيحبون شهوات الجنة ويتصورون في عقولهم الحور العين وجمالهن ويشتاقون لهن ويعدون المهر الذي يصلون به إلى الحور العين بالإيمان والتقوى، وهؤلاء هم العقلاء.

ـ الإنسان يحب متع النساء والخمور والقصور ويعيش لذلك، فمن الناس من يرى أن هذه المتع في الدنيا فيعيش لها، ومنهم مَن يرى أن هذه المتع في الجنة فيعيش لها وقلبه يشتاق إلى نساء الحور العين وجمالهن ولذة الخمور وفخامة القصور.

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٧١٠٠ في صحيح الجامع).
(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجة ج: ٢، ص: ١٤٤٥).

ـ فالذي يبحث عن شهوة النساء الفاتنات لا يجب أن يبحث عنها في الدنيا وإنما يبحث عنها في الجنة، والذي يتطلع إلى مسكن فاره أو قصر مشيد يتطلع إلى ذلك في الجنة، والذي يتطلع إلى أن يشرب الخمور ويرقص مع النساء يتطلع إلى ذلك في الجنة، وهكذا.

ـ إذن فمن لا يشعر بأي قدر من حب الجنة والشوق لها والتعجب (الشعور بالمهابة) من مدى ما فيها من ألوان النعيم هو في حقيقته يقول بمشاعره أن الجنة أساطير الأولين وحواديت الشاطر حسن! رغم اليقين التام بالجنة، فالحور العين بالنسبة له كأنهن نساء خيالية وليست نساء حقيقية فيها لذة أمتع من كل نساء العالم!، فلو كان يشعر بمدى جمالهن حقًا لعاش من أجل الوصول إليهن وزهد في نساء الطين!

ـ شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر:

ـ الجنة هي أعجب من الخيال والسحر، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد؛ لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، والقضية ليست فقط في التصديق ولكن في انتباه الإنسان لهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ كل ما يمكن أن تتخيله من المتع والشهوات من نساء فاتنة ساحرة وخمور وكل ألوان الطعام والشراب وكل ألوان المرح والترفيه فشهوات الجنة أكبر من ذلك، وكل شيء بمجرد أن تتمناه يتحقق لك كأنه سحر لكنه حقيقة، وكل هذا موجود الآن في الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ

وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾(١)، ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾(٢)، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(٣)، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٤)، وفي الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾»(٥).

ـ والساحر يسحر لك أشياءً تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر، فضلًا عن أنها حقيقة وليس سحرًا، فلماذا لا يحدث خوف من مهابة الأمر؟ ولماذا يحدث الحب والرجاء لشهوات الدنيا ونساءها في حين لا يحدث ذلك لشهوات الجنة التي هي أعظم بكثير؛ ذلك لأن الإنسان إما أنه لا يعرف الجنة كأنه لم يسمع عنها مطلقًا أو أنه لا يوقن بها.

ـ الشعور بوجود الجنة:

ـ تصور لو أن هناك كوكبًا آخر في السماء غير الأرض عليه سكان من البشر يعيشون حياة غاية في التطور والرفاهية، فمن يعيش على هذا الكوكب يعيش في متع متناهية لا حد لها، وينال كل ما يشتهي ويتمنى ولا يتعب ولا يعمل، ولكن تركيبة البشر هناك مختلفة عن تركيبة البشر على الأرض، فهم في شباب دائم وصحة دائمة وأجسادهم مصممة بحيث أنها غير قابلة للمرض أو الموت وهم يأكلون ويتنعمون كيفما شاءوا وكل ما يريدونه يتحقق فورًا وكأنه سحر، لذلك من أراد الوصول إلى

---

(١) الزخرف: ٧١.
(٢) الأنبياء: ١٠٢.
(٣) فصلت: ٣١،٣٢.
(٤) ق: ٣٥.
(٥) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٥، ص: ٣٤٦، برقم: ٣١٩٧).

هذا الكوكب من سكان الأرض فلابد أن يتغير جسده ويتكون من جديد حيث يموت أولًا ثم يتشكل جسده من جديد ثم يُصعد به إلى هناك بدون مركبة فضائية.

ـ فكذلك الجنة موجودة الآن، وسكانها الآن هم الحور العين، ومن يصل إليها هم المؤمنون، وفيها عالم آخر كامل من المعيشة في حياة الخلود، وفي الجنة الآن الحور العين وهن ينظرن إليك ويرونك الآن في الدنيا، ففي الحديث: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»(١).

ـ الشعور بالمهابة والشوق للجنة:

ـ تخيل لو أن رجلًا أخبرك بأنه على موعد مع فتاة جميلة ولكنها تسكن في مكان ما فوق السحاب، وأنه لن يصعد إليها بطائرة، ولكنه سوف يصعد إليها بعد أن يموت! لأنه سوف تحل الروح في جثته ثم يطير فوق السحاب ليلقاها! إنك سوف تقول: إن هذا هراء وأساطير وخرافات، فما بالك أن وجود الحور العين أمر أعجب من ذلك، فأنت فعلًا على موعد مع فتيات حسناوات جميلات في مكان آخر غير العالم الذي نعيش فيه، وسوف تلقاهن بعد أن تموت ويتحلل جسدك في التراب، ثم تحل فيك الروح وتذهب للقائهن إن كنت من أهل الإيمان، وهذا الأمر قريبًا جدًا، فما العمر في الدنيا إلا لحظات! فإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة من هذا الأمر العجيب فكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الجنة أو أنه لا يوقن بها.

ـ تخيل أن رجل يحب امرأة جميلة، ويشتاق إلى لقائها بماذا يشعر؟ فإن الحور العين أجمل من ذلك بكثير واللقاء بهن حق، فلماذا لا تشعر

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٧١٩٢ في صحيح الجامع).

بالحب للحور العين؟ ولماذا لا تشتاق وتحلم بلقائهن؟ ولماذا لا تسبح بخيالك مع فتاة أحلامك من الحور العين فإن كل محبوب يفكر في محبوبه؟ أليست الحور العين حقيقة أم أنها مصنوعة من البلاستيك؟ وأليس الوصول إليهن قريبًا جدًا؟ ففي الحديث: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»(١)، وإذا كانت حور الطين يلهث وراءها الكثيرون ويعيشون من أجلها فما بالك بحور العين، إن لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار، فهل تشعر أن الحور العين الآن تشتاق إليك وتنتظرك إلى أن تلقاها، إن كلمة (الحور العين) هي كلمة موجودة وراسخة في الاقتناع لكن في المشاعر لا يوجد شيء اسمه الحور العين ولا يزال الإنسان لا يعرف شيئًا اسمه (الحور العين).

ـ تخيل مكانًا ما به كل ألوان المتع والملذات من نساء وخمور ورقص وطعام وشراب، فإن الجنة بها أعجب من كل ذلك، فلماذا لا تشعر بحب الجنة وتشتاق للوصول إلى متعها؟ أين الرغبة الحقيقية والشوق إلى الجنة؟

ـ تخيل لو علم الناس بوجود كنز كبير يمكن الوصول إليه، تصور كيف ستكون مشاعرهم متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز، وسوف يشغل ذلك الكنز بالهم وأكثر همهم، فالجنة كنز حقيقي هائل لا ينفد، فلماذا لا تتجه إليه المشاعر والتطلعات مثلما تتجه لكنز من كنوز الدنيا؟ ذلك لأن ذلك الكنز الحقيقي (الجنة) في مشاعر البعض إنما هو كلام نظري فقط كأساطير الأولين!!

ـ تخيل أن العلم قد توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت، فسوف تجد الناس

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣١١٥ في صحيح الجامع).

يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم، فالإنسان في الجنة يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله، ورغم ذلك لا تجد أي شعور أو رغبة أو انشغال الهم بهذا الإعجاز الهائل القريب جدًا؛ ذلك لأن الإنسان غير منتبه لخطورة الجنة وبالتالي لا يزال لا يعرف ما هي الجنة كأنه لم يسمع عنها.

ـ وفي الحديث: ﴿إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع، حاجة أحدهم عرق يفيض من جلده فإذا بطنه قد ضمر﴾(١)، وفي حديث آخر: ﴿يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء﴾(٢)، فالجماع في الجنة مائة ضعف الجماع في الدنيا وهو في ريعان الشباب (في سن ٣٣ سنة) ويستطيع الإنسان ذلك لأنه يعطى قوة مائة ففي حديث آخر: ﴿يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع، قيل يا رسول الله: أويطيق ذلك، قال يعطى قوة مائة﴾(٣)، وفي حديث آخر: ﴿إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾﴾(٤)، وفي حديث آخر: ﴿... قال فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن﴾(٥)، فلماذا لا تشعر بالحب لأن

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ١٦٢٧ في صحيح الجامع).
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٨١٠٦ في صحيح الجامع).
(٣) قال الشيخ الألباني: حسن صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٦٧٧، برقم: ٢٥٣٦).
(٤) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج: ٣ ـ رقم: ٣٧٧١).
(٥) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج: ٣، رقم: ٤٦٢٨).

تكون كذلك؟ إن الإنسان الذي يعيش للدنيا هدفه أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة، وكذلك الإنسان الذي يعيش للآخرة يريد أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ولكن أي طعام وأي متعة؟ إنه يريد المتع الحقيقية التي لا تفنى والتي لا يحيطها مخاوف بالمرض أو الشيخوخة أو الموت أو سلب النعمة، إنه يريد المتع الدائمة والشباب الدائم وحياة لا يموت فيها ولا يمرض، وحياة بها الفاتنات الحسناوات من الحور العين.

ـ تأمل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(١)، فكل ما تتمنى يتحقق فورًا وتراه حقيقة وليس سحرًا، فقد ورد أن رجلًا من أهل الجنة اشتهى أن يزرع فبذر فنما الزرع سريعًا وكان كالجبال، ففي الحديث: «إن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكن أحب أن أزرع، فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء»(٢).

ـ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة نظرت من نافذة مثلًا وهي في الجنة إلى الأرض فإن نور جمالها سوف يضيء الدنيا، ورائحة العطر الذي فيها سوف يملأ الدنيا عبقًا، والزينة التي تظهر على رأسها أجمل من كل الجمال الذي في الدنيا، ففي الحديث: «ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(٣)، فأين الذين يبحثون عن الشهوات؟ فهذه هي الشهوات الحقيقية.

---

(١) ق: ٣٥.
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٢٠٨٠ في صحيح الجامع).
(٣) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥١١٦ في صحيح الجامع).



ـ تخيل أننا الآن في الجنة ونذكر أيام الدنيا وما كان فيها، فما قيمتها وما قدرها عندئذ؟ إنها كانت أيامًا قليلةً وحياةً ضئيلةً انتهت ولا قيمة لها، أما نحن الآن (في الجنة) فهذه هي حقًا الحياة نعيش فلا نموت ولا نمرض ونتمتع كيفما نشاء.

ـ انظر إلى مدى لذة النظر إلى الله تعالى التي هي أعظم من كل لذات الجنة، فهل من مشتاق إلى الجنة من أجل أن يستمتع بلذة النظر إلى وجه الله تعالى.

ـ إذا نظر الإنسان إلى منزل جميل واسع أو شقة جميلة واسعة بها كل أدوات الترفيه والراحة أو إذا نظر إلى سيارة فارهة أو قصر مشيد أو... إلخ، فإن الإنسان قد يحدث عنده شعور بالانبهار والإعجاب والشوق لأن يكون عنده مثل ذلك، وقد يسعى سنوات طويلة وعنده طول أمل أن يحصل على سيارة فارهة أو شقة واسعة أو... إلخ، إذن هذا الإنسان بداخله أمل وشوق وشعور بالإعجاب والانبهار، فإذا كانت الجنة أفضل من الشقة الواسعة أو السيارة الفارهة أو... إلخ، فلماذا لا يشعر الإنسان بهذا الإعجاب وهذا الأمل والشوق للوصول إليها؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ففي المشاعر هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع من البلاستيك لا معنى له، أو شيء بعيد الاحتمال تمامًا أو كلامًا نظريًا فقط كأساطير الأولين، رغم وجود الاقتناع التام واليقين التام بوجود الجنة، لكن لا يزال لا يعرف ما هي الجنة؟

ـ إن شهوات الدنيا ضئيلة حتى وإذا حاول الإنسان أن يكثر منها فإن اللذة منها تقل عندئذ حتى تنتفي، كأن يكثر من الطعام أو الشراب أو الجماع أو ينظر إلى عورات النساء، بل يتعرض عندئذ للأمراض، كما أن المتع تقل مع كبر عمر الإنسان خاصة عندما يصل إلى الشيخوخة ويعود إلى الضعف مثلما كان طفلًا ضعيفًا، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَمَنْ

نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾(١)، أما في الجنة فلا يحدث أن تقل اللذة مهما أكثر الإنسان من ألوان المتع: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ﴾ (٢)، إن شهوات الدنيا كما أنها ضئيلة فليست سهلة المنال أيضًا ولابد من السعي والتعب، فالحصول على الدنيا ليس أمرًا سهلًا، فإن المتنافسين على الدنيا كثير وطلاب الدنيا كثير، وهم يتقاتلون ويتشاحنون عليها، ويتشبثون بها بأيديهم وأسنانهم، ومن يأتي بينهم ليتنافس على الدنيا لا يرقبون فيه إلًا ولا ذمة فيأكلوه، أما شهوات وطعام وفواكه الجنة ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾(٣)، وفي الحديث: ﴿قالوا يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، قال: إني رأيت الجنة أو أُريت الجنة فتناولت منها عنقودًا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا (٤).

ـ فلا يزول تعظيم قيمة المال وقيمة الشهوات الدنيوية وقيمة الطعام والشراب الدنيوي في نظر الإنسان حتى تتحقق المعرفة الحقيقية بالجنة.

****

(١) يس: ٦٨.
(٢) الواقعة: ١٩.
(٣) الواقعة: ٣٣.
(٤) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: ٣، ص: ١٤٦، برقم: ١٤٩٣).

ـ المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة داخل النار

ـ لا يمكن لعاقل أبدًا يوقن بالنار أن ينسى النار، ذلك المصير المرعب الذي يخشاه كل عاقل، فالعاقل يكون دائم التفكير في ذلك الخطر الهائل وكيفية تفاديه.

ـ الشعور بوجود النار:

ـ إن الغرض الأصلي من وجود النار في الدنيا هو أنها تذكِرة لنار الآخرة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾(١)، ولو كانت نار الآخرة مثل نار الدنيا لكفت، ففي الحديث: «ناركم هذه التي توقدون جزء واحد من سبعين جزءًا من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها»(٢).

ـ لو كانت الشمس هي نار الآخرة لكانت كافية، فيمكن أن نتخيل أن الشمس هي نار الآخرة، فإذا رأينا مدى حجمها وشدة نارها بحيث أنها يمكن أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك سوى واحد على مليون من حجمها، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدًا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها، فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام، فإذا ما تصورنا حجم هذه النار ووجودها وأننا ندور حولها وأثرها الواصل

---

(١) الواقعة: ٧٣.

(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٧٠٩، برقم ٢٥٨٩).

إلينا فيمكننا أن نتصور مدى خطورة نار الآخرة الأكثر شدة والتهابًا.

ـ وحيث أن وجود هذه الشمس التي هي نار معلقة في الفضاء بهذه الشدة والالتهاب وحيث أنها ما زالت موقدة ولم تنطفئ على مدى ملايين السنين من قبل خلق البشر أساسًا، فما بالك إذن بنار الآخرة؟!

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات، وهذه النجوم ما هي إلا زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى.

ـ ونار الآخرة موجودة الآن وبالطبع هي أضخم من كل هذه النجوم.

ـ الشعور بمدى عذاب وألم النار:

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم، بماذا تشعر؟، وهذا بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحدًا يحترق، وما بالك إذا كنت أنت المصاب في هذه الحادثة؟، إن أهل النار يسمع لجلودهم أزيزًا من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتُشوَى، فما بالك لو أنك أنت في مكان هذه الدجاجة!

ـ فإذا لم يتحقق عندك الشعور بالخوف من مهابة النار والخوف من الوقوع فيها فإن النار في مشاعرك لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، فإن نار الآخرة في الاقتناع عذابها شديد، أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية الإحراق، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض.

ـ ومما ورد في عذاب أهل النار ما جاء في تفسير ابن كثير: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعـًا فَاسْلُكُوهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿فاسلكوه﴾ تدخل في إسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في

العود حين يشوى»(١)، وفي تفسير القرطبي: «وقال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، وقال كعب: إن حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى «ذرعها سبعون ذراعًا» إن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا»(٢)، وفي الحديث: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه»(٣)، وفي الحديث: «إن في النار حيات أمثال أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفًا، إن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا» (٤)، وفي الحديث: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه»(٥).

ـ الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار:

ـ إن نار الآخرة أمر أبعد من كل تصوراتنا وخطر من أشد ما يمكن، وإذا وضعت مقارنة بين نار الآخرة وكل مخاوف الدنيا وآلامها فإنها لا تساوي شيئًا، وفي الحديث: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضرًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ؟ فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ»(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: ٨، ص: ٢١٦).
(٢) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] –دار الكتب المصرية– القاهرة (ج: ١٨، ص: ٢٧٢).
(٣) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٦٦٨).
(٤) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة برقم ٣٤٢٩).
(٥) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٢٥٠ في صحيح الجامع).
(٦) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج:٢، ص: ١٤٤٥، برقم: ٤٣٢١).

ـ فلا ألم في ألم بعده الجنة، ولا راحة في راحة بعدها النار، لذلك فالعاقل يستوي عنده ألم الدنيا مع نعيمها، فكلاهما لعب ولهو، فقارن بين مخاوف الدنيا الفانية وبين الشقاء إلى الأبد فتعيش في عذاب بلا حدود وإلى الأبد، فإن كل آلام الدنيا وهمومها وأحزانها ومشاكلها ليست بشيء أمام آلام النار، وفي الحديث: «لو أن رجلًا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة»[1].

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة، فمن كان يشعر بألم الكراهية والضيق لآلام الدنيا ومشاكلها وهمومها وخطورتها ولا يشعر بألم الكراهية والضيق والاشمئزاز لآلام النار في الآخرة (الشعور بالمهابة من شدة النار وخوف الوقوع فيها) فذلك لأن النار في مشاعره خيال وأساطير الأولين!

ـ إذا قارنت بين الحالة النفسية المميزة للشعور بالخوف من أي أمر دنيوي وبين الحالة النفسية للخوف من الآخرة والنار تجد حالة خوف حقيقية هائلة في النفس من الأمر الدنيوي في حين لا تجد أي شعور نفسي حقيقي عند مَنْ يدعي الخوف من النار، وإذا افترضنا أنه وُجد فلا يساوي واحد على ألف من أقل شيء مخيف في الدنيا، إذن فالنار لا وجود لها في مشاعرك، إنما هي في الاقتناع وليست في الشعور، كأنها حدوتة تستخدم لتخويف الأطفال!

******

(١) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٥٢٤٩ في صحيح الجامع).

الفصل الرابع عشر

المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار سفر

ـ السفر هو انتقال من الحياة المؤقتة في الدنيا إلى الحياة الدائمة في الآخرة، وهذا معناه الشعور بالمهابة والترقب وقلق الانتظار.

ـ تصور خطورة هذا السفر:

ـ هل على الإنسان أن يعيش طوال عمره يعد نفسه للرحيل، أي يعيش منتظرًا يوم موته؟!، إن هذه الحياة التي نعيشها ما خلقت إلا لهذا الغرض، فالدنيا ما هي إلا طريق للآخرة، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يبني سكنه في الطريق أو الشارع الذي يسير فيه الناس ويعيش ويقيم في طريق المارة، فلا تصلح المعيشة في الطريق، إنما هو مجرد سفر أي معيشة مؤقتة عابرة لضرورة الترحال ولإعداد الحقائب.

ـ لو قيل إن بعض الناس يستعدون للسفر إلى كوكب آخر عبر الفضاء لكان ذلك العجب والدهشة، فهل تتصور أننا مسافرون لما هو أعجب من ذلك وأبعد من ذلك إلى الدار الآخرة؟!، فهل أنت في انتظار حياة غير الحياة التي تعيشها الآن وطعام غير الطعام الذي تأكله وسكن غير السكن الذي تسكن فيه؟!، وهل تتصور أن البيت الذي تسكن فيه الآن ليس هو بيتك، إنما بيتك هناك، وأن هناك مَنْ ينتظرك الآن من الحور العين (إن شاء الله تعالى)؟!، هل في تصورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت، وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت، أم أنك تتصور أنه سكن دائم؟! إن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرًا بطعام

الدنيا فهو كيفما اتفق، وإنما هو يأخذ زاد المسافر، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ﴿إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل﴾[1]، فهل تشعر بالترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك؟!، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا)؟! وهل عندك شعور بأنك مفارق الناس وكل ما تملك؟ وهل تشعر بالترقب والانتظار لمجيء اليوم الذي تصل فيه إلى بيتك بعد سفر طويل؟!، إن الذي يشعر فعلًا بعالم الغيب فإنه يشعر بالموت على أنه مجرد مرحلة ينتقل بها إلى حياة أخرى فلا يكره الموت ولا يكن مرعوبًا منه، وعندما يأتيه الموت فإنما يأتيه مَنْ كان ينتظره على موعد، وأنه ليس النهاية وإنما هو البداية للحياة الحقيقية، أما الذي لا يشعر بعالم الغيب فإنه يعيش كأنه لن يموت، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية، ولا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه؛ لأنه يرى الدنيا دار سعادة ويرى في الموت النهاية وليس بداية الحياة الحقيقية (في الآخرة)، وهذا يمثل الحقيقة الموجودة في مشاعره، وإن كان في اقتناعه عكس ذلك تمامًا فهو على يقين تام بأن الدنيا فانية ضئيلة وأن الموت مجرد انتقال إلى الحياة الباقية لكنه جاهل بما يوقن به!.

- الدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا، فنحن الآن مسافرون سفر العودة والرجوع وليس سفر الذهاب بعيدًا عن الوطن والأهل، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا، فمثلًا الذي يسافر من بلده مصر إلى السعودية هو سفر ذهاب بعيدًا عن الأهل، وهو لا يريد السفر إلى السعودية إلا مؤقتًا وفي ذهنه العودة إلى أهله، أما سفر العودة والرجوع هو أنه موجود في السعودية ويريد أن يسافر سفر العودة إلى مصر حيث بلده وأهله، وهذا هو السفر المقصود، ففي تفسير

(١) صيد الخاطر -دار القلم- دمشق (١ / ٤٤٧).

البغوي: ﴿﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ أَيِ المرجع في الآخرة﴾(١).

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن إنسانًا ركب سيارة أجرة ليصل إلى مكان ما، دخل السيارة فوجد فيها ركابًا آخرين مثله، ربما يتحدث معهم أو يتعرف على أحد منهم، وعندما يصل إلى المكان الذي يريده ينزل من السيارة ويترك الركاب الموجودين فيها، فالدنيا هي وقت الإنسان الذي يقضيه داخل السيارة، والركاب الموجودين داخل السيارة هم الناس الموجودين في الدنيا، والإنسان مهما تعامل معهم فليسوا أهله ولكنهم غربَاء مسافرين مثله، وعندما ينزل من السيارة لا يشعر بألم الفراق؛ لأنه لا تربطهم به سوى أنه تقابل معهم أثناء الطريق.

ـ فينبغي أن تشعر أنك الآن في دار الغربة، والأصح أن تشعر بأنك الآن أثناء السفر منتقل من دار الغربة إلى مكان الإقامة والمعيشة فأنت عابر سبيل، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمنكبي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غَدًا»(٢)، و(أو) في الحديث بمعنى (بل) للإضراب، أي كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل.

ـ فالدنيا إما أنها دار إقامة مؤقتة أو أنها مجرد طريق يسير فيه السائر ليصل إلى بيته، ومن لم يشعر بهذا أو بهذا فهو يعتبر الدنيا دار إقامة دائمة وأنها بيته، وبالتالي فهو لا يعرف الآخرة أو لا يوقن بها.

(١) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] –دار إحياء التراث العربي– بيروت (٥/ ٢٨١).
(٢) حديث صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٧، برقم ٢٣٣٣).

ـ تذكر أن الدنيا ليست دارا للإقامة:

ـ هناك من بنى حياته على أساس البقاء كأنه يبقى فيعيش كأنه خالد لن يموت، فلا هم له ولا عمل له ولا كلام له إلا للمال والدنيا، وهو منكب على الدنيا يلهث وراء الأموال والشهوات، وهناك من بنى حياته على أساس أنه مفارق الناس جميعًا وكل شيء وأن من حوله لن يدومون وأنه سوف يفارق كل شيء وكل الناس، فهو يعيش كأنه غريب أو عابر سبيل.

ـ الشعور بالغربة هو شعور الإنسان الذي يعيش بعيدًا عن أهله ووطنه (وأهله ووطنه في الآخرة) فهو يعيش في ترقب ليوم العودة إلى أهله ووطنه.

ـ فالدنيا في نظر المؤمن هي مجرد حياة مؤقتة وجيزة تمضي سريعًا وكل شيء فيها مؤقت فهي مجرد ممر يسير فيه ليصل إلى الآخرة فهو لا ينظر إليها ولكن ينظر إلى ما هو ذاهب إليه فلا يبالي زادت أم نقصت.

ـ فالدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت.

ـ والإنسان الذي يتعامل مع الدنيا كأنها دار إقامة عندما يشعر باقتراب الموت أو قبل موته يحدث له اكتئاب شديد وخوف وهلع؛ لأنه لا يريد أن يترك ما اعتاد عليه.

ـ الرضا والاطمئنان بالدنيا معناه أن الانسان يعتبر نفسه مقيمًا وليس مسافرًا، أي أنه يشعر بالاستقرار في الدنيا ويتعامل مع الدنيا على أن معيشته فيها، فهو بذلك جعل الدنيا دار مقر وليست دار ممر وارتحال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا

غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١)، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعمالهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢)، أما المؤمن فيشعر بأنه غريب عن هذه الحياة؛ لأنها ليست وطنه، فهو غير مطمئن بها ولا يألف المعيشة فيها؛ لأنه يعيش بين غرباء ينتظر الرحيل إلى وطنه وأهله.

ـ إن الشخص الذي يعيش في غربة ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فهل في شعورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت أم أنك تشعر أنه سكن دائم؟

ـ إذا لم يشعر الإنسان بالغربة في هذه الدنيا ويشعر بالترقب والتطلع والانتظار للآخرة وتعلقت مشاعره بالمال والشهوات حبا وخوفا ورجاءً وكان هدفه الذي يلهث وراءه هو المال أو الشهوات فهو لا يزال لا يعرف أنه مسافر إلى الآخرة.

ـ تصور خطورة الانتقال للآخرة في أي لحظة:

ـ ليست المشكلة فقط في قصر عمر الدنيا وأنها دار سفر، فالأخطر من ذلك أن الانتقال إلى الآخرة يكون في لحظة مفاجئة مباغتة وبلا مقدمات وينتهي كل شيء للأبد: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾(٣)، ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا

(١) يونس: ٧، ٨.
(٢) هود: ١٥، ١٦.
(٣) الأنعام: ٣١.

كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فيفتح الإنسان عينيه فلا يجد بيته الذي كان يسكن فيه وعمله الذي كان يعمل فيه وأهله وأصدقاءه الذين أَلِفَ المعيشة معهم، فجأة يفتح عينه ليجد كل شيء قد تغير في لحظة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[2]، فالمعرفة الحقيقية بأن الموت يأتي في أي لحظة وينتقل الإنسان للآخرة معناه الشعور بالمهابة من خطورة الانتقال إلى الآخرة في أي لحظة، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمنكبي فَقَالَ: ﴿كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غَدًا﴾[3].

ـ الشعور بالمهابة من خطورة السفر للآخرة ولقاء الله تعالى:

ـ مسألة السفر إلى حياة أخرى غير عالمنا الذي نعيش فيه هي أمر خطير يدعو إلى الانتباه والشعور بالمهابة وبالتالي انشغال الهم وتأثر المشاعر والجوارح بإعداد العدة لما بعد هذا السفر.

ـ مدة البقاء في دار الإقامة المؤقتة (الدنيا) قصير جدًا والسفر فوري في أي لحظة من ليل أو نهار فلابد أن يكون الإنسان جاهزًا بحقائبه مرتديًا ملابس سفره في كل وقته.

ـ لو قيل لك أنه قد تحدد لك موعد سفرك من أرض الدنيا إلى أرض المحشر بعد شهر من الآن، وأن جواز سفرك قد تم التأشير عليه بالهجرة

(١) النحل: ٧٧.
(٢) يس: ٥١ – ٥٢.
(٣) حديث صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٧، برقم ٢٣٣٣).



بلا عودة من الدنيا، إن هذا الأمر عندئذ سوف يشغل تفكيرك ليلًا ونهارًا، ستظل تفكر في لقاء الله وتتهيب الأمر حيث تقف أمامه لتجيب عليه وهو يسألك عن أعمالك، وسوف تتعامل مع أهلك والناس تعامل المودع لهم الراحل عنهم، إنه تفكير دائم وشعور بالتهيب من الأمر (الشعور بالمهابة من فراق من اعتدت على رؤيتهم في الدنيا والشعور بالمهابة من الوصول إلى لقاء الله نفسه)، وهو شعور بالترقب وانتظار الآخرة (الاستعداد النفسي والتطلع إلى الآخرة).

- إنه بالفعل قد تحدد لك موعد سفرك وهو قريب جدًا ولكن لم يتم إعلامك به، فلماذا لا يتوجه تفكيرك إلى هذا الأمر ولماذا لا تتهيب الأمر طوال وقتك؟ ذلك لأنك تبعد تفكيرك عن هذا الأمر وتتناساه وتتجاهله وتتغافل عنه كأنك لن تسافر وترحل ولن تقابل الله نفسه سبحانه.

- كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفه أو اليوم الذي يحدث فيه أمر خطير فيظل همه منشغلًا بهذا اليوم، فالطالب يترقب يوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج، والعاقل الذي يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبًا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبًا يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلًا بالتطلع إلى يوم اللقاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها.

- اقتراب الآخرة أمر خطير ورهيب يدعو إلى الانتباه والتأثر به، ففي الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»[1].

- الآخرة واقع قادم والسفر لا اختيار فيه، فهو إجباري رغمًا عن أنفك

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٦٢٠، برقم: ٢٤٣١).

وموعد السفر قد تحدد وهو في وقت قريب جدًا، وإذا جاء موعد السفر فلا رجعة سواءً كنت مستعدًا للرحيل أم غير مستعد ولا انتظار ولو ثانية واحدة وانتهت القضية وقد أُقفل دفتر حياتك: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾(١).

ـ فهل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده؟!، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟ إنها ليست موعظة ورقائق، ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس، يتضح الآن أن عالم الغيب ليس له وجود في مشاعرك، فمشاعرك تقول أننا لسنا في دار غربة ولسنا على سفر، ومشاعرك تقول: ﴿إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(٢) رغم أن الاقتناع تام بالآخرة.

ـ إذن فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي، ولكننا في غفلة، وليس للإنسان أن يجرب أو يتغافل، فنحن ضيوف على وجه هذه الكوكبة الأرضية، إذن يتضح الآن أن عالم الغيب إما أنك جاهل به أو غير موقن به، وليس له وجود في مشاعرك.

ـ إن الذي لا يشعر بأنه مقبل على عالم آخر فإنه يعيش كأنه لن يموت، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية، ولا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه.

ـ إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس، لذلك انظر هل عندك فعلًا شعور بالغربة والحنين أم أنك تدعي ذلك؟،

(١) الطور: ٧، ٨.
(٢) المؤمنون: ٣٧.



والشعور بالغربة أمر خطير؛ لأن عدم وجود الشعور بالغربة يعني أن الذهاب إلى الآخرة لا وجود له في مشاعرك.

ـ انظر إلى الحالة النفسية لشخص سجين، إنه يشعر بالحنين إلى أهله ووطنه، ويشعر بالضيق مما هو فيه، فهذا حال المؤمن ففي الحديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١)، فهل تشعر في نفسك بالغربة مثلما يشعر الإنسان الغريب أو عابر السبيل أو المسافر أو السجين؟!.

ـ الشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة:

ـ إذا كان لديك موعدا هاما لأمر ما فأنت تظل في حالة ترقب وتأهب وقلق وتطلع في انتظار ذلك الموعد الهام وينشغل ذهنك به طول فترة الانتظار.

ـ فالآخرة هي أخطر موعد تنتظره لأنه يتحدد فيه مصيرك وهو حياتك ومستقبلك، فعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة معناه عدم وجود المعرفة الحقيقية باقتراب الآخرة وعدم اتخاذ الآخرة هدفا لك.

ـ فالذي يشعر باقتراب الآخرة يعيش سنوات عمره في حالة تأهب وترقب واستعداد نفسي متطلعا إلى اليوم المحتوم الذي يعيش من أجله منتظرا مجيء اليوم الذي يصل فيه إلى بيته بعد سفر طويل!، وهو يعيش حياته معيشة المسافر عابر السبيل الذي ينظر إلى الحياة الدنيوية على أنها مؤقتة فانية وأنه راحل إلى حياة الخلود حيث داره وأهله ومعيشته، وهو يعيش في حالة قلق وإشفاق وخوف من الآخرة، ويستمر ذلك طوال حياته وأثناء أداءه للأعمال.

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٢، برقم ٢٣٢٤).

ـ وعنده صبر طويل، فهو يصبر على الدنيا منتظرا الآخرة، والصبر على الدنيا معناه أن يصبر الإنسان مدة الستين سنة أو أكثر أو أقل حسب عمر الإنسان باعتبار أن هذه السنوات ما هي إلا لحظات منتهية ضئيلة في عمر الآخرة، فالذي يوقن بالآخرة ويشعر بها فإنه يصبر على أيام هذه الدنيا حتى تنقضي؛ لأن الإنسان منشغل عن الدنيا بانتظار الآخرة، ولأنه يشعر بأن الدنيا عابرة وتمر سريعًا: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا، إنهم يَرَوْنَهُ بعيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾(١).

ـ فالذي يشعر باقتراب الآخرة يعيش في الدنيا معيشة من يقف في مكان ما ينتظر أحدًا على موعد لمقابلته وهو قلق ينظر في الساعة دائمًا ويتلفت يمينًا وشمالًا لعل من ينتظره قادم الآن، فلحظات الانتظار هذه هي فترة عمره يبقى طوال حياته الدنيوية في حالة ترقب وانتظار وتوقع مجيء الموت والآخرة ولقاء الله في أي لحظة وإعلان النتيجة لما يصنعه في الدنيا.

ـ الحالة النفسية للشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة (الاستعداد النفسي والتأهب والتطلع إلى الآخرة):

ـ إن الذي ينتظر أحدًا في موعد، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقًا، ويزيد ذلك القلق إذا كان لقاءً هامًا جدًا يترتب عليه مصير الإنسان، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، ويزيد القلق إذا لم يكن يعلم هل نتيجة هذا اللقاء تؤدي إلى الشقاء والمصائب أم إلى السعادة والراحة؟، وهل سيلقى الترحيب بهذا اللقاء أم الزجر والويل والثبور؟، كما يزيد القلق إذا علم أن من سيقابله له مكانة كبيرة مثل ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء،

(١) المعارج: ٥ ـ ٧.



هذا بالنسبة لأمور الدنيا، فما بالك بلقاء الله ولقاء الآخرة والحساب الذي ينبني عليه الشقاء الأبدي أو السعادة الأبدية، فلابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقًا على ما ينتظره وما يحدث له من أهوال ومخاطر قادمة حتمية وقريبة.

ـ وكذلك الذي ينتظر لقاء محبوبته الجميلة، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقًا، ويزيد ذلك القلق إذا كان لا يعلم هل ستأتي أم لا؟، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الحور العين وملذات الجنة، فلابد أن يعيش المؤمن حياته في انتظار الحور العين وفي انتظار النعيم المقيم، ولابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقًا على ما ينتظره وما يحدث له هل سيصل إلى الحور العين أم إلى الجحيم؟

ـ لماذا تؤمل في متع من الدنيا ضئيلة وتنتظرها وتفكر فيها في حين أنك قريبا جدًا تصل إلى متع بلا نهاية بلا حدود، فالجنة بعد لحظات ولكنك لا تدري، فما سنوات العمر إلا لحظات، ففي الحديث: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»(١)، فابقَ كما أنت تؤمل في متع وملذات ولكن في متع وملذات الجنة، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ»(٢).

ـ الشعور بالمهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد:

ـ لو قيل لك أن لديك موعد قريب تقابل فيه رئيس الدولة شخصيًا،

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣١١٥ في صحيح الجامع).
(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج: ٢، ص: ١٣٩٣، برقم: ٤١٦٠).

فإنك تشعر بالمهابة من هذا اللقاء، فما بالك برب العالمين، ولماذا لا تشعر بالمهابة من هذا اللقاء؟ فذلك لأن لقاء الله لا وجود له في مشاعرك.

ـ وكذلك لو قيل لك إنك على موعد في محكمة من المحاكم مع قاضٍ من القضاة ليناقشك فيما عملته ويقول حكمه على ما فعلته بماذا تشعر؟، ولماذا لا تشعر بهذا الشعور من لقاء الله ليحاسبك على ما فعلت؟، وبماذا تشعر لو علمت أن هذا الموعد اقترب وينعقد في أي لحظة؟، وبماذا تشعر عندما تعلم أن الأمرين معًا، فأنت تقابل رب العالمين وهو سبحانه الذي يحاسبك؟

ـ الشعور بترقب الموت (على أساس أنه انتقال للآخرة):

ـ إذا لم يكن عند الإنسان شعور مستمر بالقلق وتوقع الموت في أي لحظة، فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف ما هو الموت ولا يزال لا يعرف أن الموت قد يأتيه بغتة في أي لحظة، وهذا معناه أنه مطمئن بالدنيا، فالمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة.

ـ يقول أبو حامد الغزالي: ﴿وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل، وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها﴾(١)، وأنت تسمع كل يوم أن مات فلان ومات فلان وسوف يأتي اليوم الذي ينادى فيه باسمك!!.

ـ عندما يمرض الإنسان لا يخطر على باله أنه من الممكن أن يكون ذلك مرض الموت، ويظل يدعو الله ويصلي من أجل أن يشفيه الله فقط وليس من أجل الآخرة، فإذا كان ذلك مرض الموت فعندما يوشك على

(١) إحياء علوم الدين –دار المعرفة– بيروت (ج: ٤، ص: ٤٥١).



الموت فإنه لا يرضى بقضاء الله بعدم شفائه، ولأنه يرى أن الموت هو النهاية وليس انتقال للآخرة.

ـ فلابد أن يعيش المؤمن حياته من أجل الإعداد ليوم ينادى فيه على الموتى ويحمل على الأعناق ويُذهب به إلى لقاء الله تعالى، فالمؤمن يعيش حياته وفي ذهنه ترقب وانتظار وتطلع إلى لقاء الله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

ـ الموت مرحلة خطيرة جدًا ينتقل فيها الإنسان من دار إلى دار، فهي تستدعي الشعور بالمهابة من ذلك، وليس خوفًا من أن الموت نهاية للحياة؛ لأن الموت بداية للحياة الحقيقية، وليس خوفًا من ترك الأحباب؛ لأن المؤمن يعيش غريبًا في الدنيا وأحبابه وأهله في الآخرة.

ـ أنواع الشعور بالمهابة من الموت:

ـ هناك خمسة أنواع من الشعور بالمهابة المرتبط بالموت هي: الشعور بالمهابة من مفارقة هذه الحياة (فهناك قدر من الحب الفطري في الإنسان بالمال والأهل والدنيا، فمفارقة ذلك أمر خطير يستدعي الشعور بالمهابة)، والشعور بالمهابة من ألم الموت وسكرات الموت، والشعور بالمهابة من أن الموت يأتي في أي وقت، والشعور بالمهابة من أن الموت انتقال إلى لقاء الله وإلى الآخرة، والشعور بالمهابة من أن الموت هو إعلان لنتيجة امتحان الدنيا.

ـ أثر المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار سفر على العمل:

ـ إذا عرف الإنسان أنه مسافر إلى الآخرة لا ينشغل همه بالدنيا إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل أثناء سفره، ولا تتأثر مشاعره بالدنيا وشهواتها إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل، ولا تنشغل جوارحه

(١) العنكبوت: ٥.



بالعمل فيها إلا بما ينشغل به عابر السبيل.

ـ ويكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب أو عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم في بلده، فمثلًا الشخص الذي يعيش في غربة في بلد ما ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فإن الذي يرى أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرًا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق، وإنما هو يأخذ زاد المسافر، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها، ففي الحديث: ﴿عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله: لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا، فقال ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها﴾(١)، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ﴾(٢)، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ﴿إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل﴾(٣).

ـ وهو يؤثر عمل الآخرة على عمل الدنيا، ففي الحديث: ﴿مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى﴾ (٤)، وفي حديث آخر: (حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة)

(١) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٢٨٣).
(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجة ج: ٢، ص: ١٣٩٣، برقم: ٤١٦٠).
(٣) صيد الخاطر -دار القلم- دمشق (١ / ٤٤٧).
(٤) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج: ٣، برقم: ٣٢٤٧).

(١) يعني لا تجتمع الرغبة في الدنيا والرغبة في الله والآخرة، وفي حديث آخر: (إن أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا في الدنيا) (٢)، وفي حديث آخر: (ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا)(٣)، وفي حديث آخر: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)(٤).

****

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣١٥٥ في صحيح الجامع).
(٢) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة ج: ٧، برقم: ٣٣٧٢).
(٣) قال الشيخ الألباني: حسن (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٦٣٧، برقم ٢٤٥٨).
(٤) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٢، برقم ٢٣٢٤).

الفصل الخامس عشر

المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار امتحان

ـ الامتحان الذي خلقنا من أجله هو امتحان تحقيق العبادة، فمن حقق العبادة نجح وفاز بالخلود في النعيم، ومن لم يحقق العبادة خسر وعوقب بالخلود في الجحيم، فهو امتحان عصيب لأن نتيجته خطيرة جدا.

ـ الكرة الأرضية هي مكان الامتحان ومدة الامتحان هي المدة من تاريخ بلوغك وحتى تاريخ وفاتك، والامتحان ليس له دور ثاني أو فرصة أخرى فلحظة الوفاة هي لحظة انتهاء الامتحان بلا رجعة.

ـ تخيل أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك بل وما تفكر فيه، ألا تشعر بالخوف والقلق، فإن الله يسمعك ويراك ويراقبك.

ـ إن كل إنسان على اقتناع تام بأن هناك رقيبًا وعتيدًا يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله؟ وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل؟ فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودين في مشاعره، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه الشعور بالمهابة، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير، وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسيهما بحيث لا يراهما أحد، ولهما قدرة هائلة أعظم من كل قدرات البشر فهذا يؤدي إلى الشعور بالمهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر

تسجيلهما لكل شيء.

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أنك غافل تمامًا عن وجود الملكين معك الآن وفي كل وقت.

ـ المعرفة الحقيقية بأننا نعيش الآن في حالة امتحان وانتهاؤه في أي لحظة:

ـ خلق الله الإنسان وأسكنه الكرة الأرضية لتكون مكان اختباره، أما زمن الاختبار فهو فترة حياته التي يمكثها على الأرض، والنجاح في الاختبار هو أن يعبد الإنسان الخالق.

ـ عدم شعورك بأنك الآن داخل لجنة الامتحان وأنك في أي لحظة تنتهي من الامتحان (بالموت) معناه أنك لا تزال لا تعرف الآخرة ومعناه أنك تحسب أن الدنيا دار إقامة رغم اليقين التام بالآخرة وبأن الدنيا معبرة للآخرة، ومعناه أن الإنسان يقول بمشاعره أن الله خلق البشر وتركهم يفعلون ما يشاءون فهو خلقهم عبثًا، فالله لم يخلقنا ثم يتركنا يعيش كل واحد كيفما يريد وكل واحد يفعل ما يريد، ولم يخلق الله الناس ويحدث ما يحدث بينهم ويتركهم وشأنهم، وإنما خلقهم لحكمة وغاية هي أن يعيشوا وفق ما يريده الله أي لعبادته: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(١).

ـ تصور خطورة أن الاختبار يحدث الآن وانتهاؤه في أي لحظة هو

(١) المؤمنون: ١١٥.

شعور مخيف ومرعب، فنحن نعيش في حالة اختبار، وكل شيء مراقب ومحسوب عليك سواء ما في قلبك أو ما تعمله طوال حياتك، فما نعيشه ليس حياتنا ولكنها حياة اختبار.

- تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته.

- إن الدنيا مزرعة للآخرة، فالدنيا كلها بمثابة امتحان، فلم تخلق الدنيا لتكون مناسبة لنعيش ونقيم فيها ونبحث فيها عن السعادة، وإنما هي دار اختبار، فيكون هم المؤمن وشعوره طيلة حياته مثل شعور الطالب قبل الامتحان بل أعظم بكثير، فنحن نعيش الآن في مرحلة اختبار هي أيام عمرنا في هذه الحياة، والمطلوب تحديدًا حتى نكون من أهل الجنة هو النجاح في اختبار الدنيا.

- والاختبار يشمل كل ما تفعله وتقوله وتشعر به منذ أن بلغت حتى اللحظة التي تموت فيها، فالاختبار يشمل كل الأعمال الظاهرة والباطنة طوال الحياة الدنيا.

- لابد أن يشعر الإنسان أنه داخل في مسابقة لها جوائز، ولكن وجه الاختلاف عن مسابقات الدنيا أن كل ناجح في هذه المسابقة ينال جائزة كبيرة، وكل خاسر عليه عقاب شديد، وأن هذا السباق ينتهي فجأة، فمرحلة الدنيا هي مرحلة سباق وتنافس في تحصيل الإيمان وجمع الحسنات: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾[1]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2].

- الإنسان أثناء السباق أو أثناء الامتحان لابد أن يشعر بالقلق والترقب،

(١) الحديد: من الآية ٢١.
(٢) المطففين: من الآية ٢٦.



ولابد أن يشعر بالتحمس والتحفز كلما قطع خطوات، ويشعر بالضيق كلما أخطأ، وهذا السباق خطير ومصيري؛ لأنه يترتب عليه العذاب الأليم الأبدي أو النعيم المقيم، وبالتالي إذا لم يشعر الإنسان بالقلق وبالمشاعر التي يشعر بها أي إنسان أثناء الاختبار فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف أنه يعيش حياته الآن في مرحلة اختبار، ومعناه أنه لا يزال لا يعرف شيئًا اسمه الآخرة.

ـ وسواء رضينا أم لم نرضَى، وسواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، فنحن دخلنا الآن في لجنة امتحان منذ سن البلوغ، ونحن واقعين الآن وفي أثناء هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكتاب وفي كل اللحظات تحت رقابة تامة ومتابعة تامة من الخالق نفسه ومن الملكين الرقيب والعتيد، ويتم تسجيل كل شيء بمنتهى الدقة، ومدة الامتحان هي كل فترة عمرنا في هذه الدنيا، وينتهي الامتحان فجأة في أي لحظة ويبدأ بعدها فورًا الحساب حيث احتساب الدرجات والنتيجة.

ـ إن البعض قد يرى مباراة كرة في منافسة ما أنها مصيرية وحاسمة فتحوذ على اهتمامه وتؤثر على أعصابه ومشاعره، ألا يرى هؤلاء أننا نعيش في حالة منافسة مصيرية أشد من هذه المباراة هي الامتحان الذي نعيشه في الدنيا والذي ينتهي بالخلود في الجنة أو الخلود في النار فكيف لا يؤثر ذلك على أعصابهم ومشاعرهم، فأي المنافستين أشد وأخطر وأهم؟

ـ وقت الامتحان وجيز جدًا؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا لا يساوي شيئًا أمام عمره في الآخرة، كما أن الامتحان ينتهي في أي لحظة، ولا يوجد إعادة في امتحان آخر، فنحن في سباق ومسارعة، وهذا الامتحان خطير جدًا ومصيري لأنه يترتب عليه أن يوضع الإنسان داخل نار هائلة لمدة أكبر من ملايين السنين هي الخلود في النار، أو أن يعيش في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في شباب دائم ومتع دائمة وشهوات لا تنقطع هي الخلود في الجنة، كما أنه امتحان صعب؛ لأن النفس تميل للشهوات، وفي الحديث: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[1].

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣١٤٧ في صحيح الجامع).

- وكما أن الاختبار شيء مرعب فهو أيضًا فرصة ذهبية لا تعوض لنيل الجنة والنجاة من النار، فالإنسان طالما لا يزال حيًا في هذه الدنيا فالفرصة لا تزال قائمة أمامه ليغير من مساره ويعمل لإنقاذ نفسه من النار والفوز بالجنة ويتزود من الطاعة، وهذا معناه شعور بالشوق والرجاء والأمل والتطلع إلى الجنة، فالذين ذهبوا للقبور يتمنون لحظة واحدة ليعودوا ويعملوا أي شيء لعله ينقذهم من النار أو يرتقي بهم درجات أعلى في الجنة فلا يسمح لهم.

- فتخيل أنك قد جاءت لحظة موتك وذهبوا بك للقبور، فطلبت من الله أن يعطيك فرصة لتعود، وها أنت الآن قد عدت للدنيا وأمامك الفرصة فماذا أنت صانع؟

- الانتباه إلى خطورة أن الموت إعلان لنتيجة الامتحان:

- هل الوقت الذي يقضيه الإنسان طوال عمره وطوال أيامه ولياليه هو إعداد للموت وما بعده؟!، نعم الدنيا دار استعداد للموت وما بعده، فالموت أمام عين الإنسان العاقل دائمًا يفكر فيه ومنشغل بانتظاره ومستعد له، وجعل الله الإنسان يموت كل يوم بنومه ثم يصحو حتى يتذكر الموت كل يوم لا ينساه وحتى يكون ذلك حجة عليه.

- فلماذا تأكل ولماذا تشرب ولماذا تأتي وتذهب ولماذا تعمل الطاعات؟ لكي تستعد للموت وما بعده.

****

الفصل السادس عشر

تحقيق المعرفة الحقيقية بالخالق من خلال التفكر

ـ البعض يحسب أن الهدف من التفكر هو فقط لتحقيق اليقين بوجود الخالق، لذلك فهو لا يرى داعي للتفكر، ولكن هناك هدف أهم وهو تحقيق المعرفة الحقيقية بضعف الانسان أمام الخالق وتقويه هذه المعرفة، وبالتالي فالتفكر مطلوب دائمًا وهو من أهم ما يمكن، فالمطلوب دوام التفكر بغرض الخروج من الغفلة عن ضعف الانسان أمام الخالق وبالتالي تحقيق العبادة وليس لمجرد تحقيق اليقين بالخالق فهو موجود عند أغلب أهل الأرض إن لم يكن كلهم.

ـ فالتفكر معناه التصور لمدى قدرة الله، وبالتالي التصور لمدى ضعف الانسان أمام قدرة الله تعالى.

ـ كيف ننتبه إلى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية؟:

ـ الآيات الكونية تدل على وجود قوة خفية أعظم من كل قدرات البشر، هي قدرة الخالق سبحانه، فالمعنى العام لكلمة (رب) أي الذي له قدرات فوق قدرات كل الكائنات، وهذه القدرات تفوق كل التصورات.

ـ معرفة الله معناها تحقيق علامات الانتباه للأمر الخطير تجاه الخالق (التحير من مدى غرابة الأمر والتعجب والشعور بالمهابة من مدى قدرات الخالق سبحانه)، ومعرفة ضعف الانسان أمام قدرة الخالق هي إزالة الغرور بالنفس فيؤدي ذلك إلى الشعور بالذل والاستسلام من مدى

ضعف قدرات البشر حبا وخوفا ورجاء، وهذا هو معنى العبادة.

ـ والتفكر في مدى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية يتم من خلال خمسة أمور هي:

١ـ تصور مدى قدرة الخالق:

ـ عندما نجد أشياءً لا يستطيع البشر أو أي كائنات صنعها، وعجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء فيدل ذلك على أن هناك قوة خفية هائلة جدًا فوق قدرة البشر هي التي أوجدت ذلك الشيء.

ـ معنى كلمة (معجزة) أي أن ذلك الشيء لا يستطيع البشر أو غيرهم من المخلوقات القيام بذلك الأمر، إذن فكل شيء حول الإنسان هو معجزة.

ـ والمعجزة أمر خطير جدًا يلفت الانتباه ويجعل الإنسان يشعر بالمهابة من حدوث ذلك الأمر.

ـ وصاحب القوة الخارقة التي استطاعت إيجاد ذلك الشيء يشعر الإنسان بالمهابة من مدى قوته وبحب الإعجاب بمدى قوته والشعور بالضعف والخضوع تجاه هذه القوة.

ـ فمثلًا هذا الكون لا يمكن أن يكون هو الذي أنشأ نفسه، ولا يستطيع الإنسان إيجاده، فلابد من وجود أحدًا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجده، وكذلك الحيوانات، وكذلك الإنسان نفسه.

ـ والأشجار تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحدًا يقوم بهذه الأمور الهائلة، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور لا نراه ولابد أن له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل

الطين إلى طعام مقصود به الإنسان، وهذا معناه شعور بالتحير والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يشعر بذلك فهو لا يزال لا يعرف ماذا تعني كلمة (شجرة)؟! وهكذا.

ـ الذي يستطيع أن يخرق الأسباب يكون إلها، والذي يكون محكوما بالأسباب يكون عبدا لمن وضع هذه الأسباب، فمثلا سيدنا موسى جاء ليثبت أن الله هو الإله الحق عن طريق أن يثبت أن الله يستطيع خرق الأسباب التي يعهدها البشر فوضع العصا فإذا هي حية حقيقية.

٢ـ تصور مدى علم الخالق:

ـ عندما نجد أمورًا تتحرك وتتم بحسابات في منتهى الدقة رغم أنها حسابات معقدة جدًا وتتم ليلًا ونهارًا فهي فوق مستوى عقل وعلم كل الكائنات، إذن فهناك أحدًا له علم وحكمة هائلة جدًا فوق علم البشر والكائنات هو الذي صنعها.

ـ عجز علم الإنسان أو علم الشيء نفسه عن القيام بوظائف معقدة غاية في الدقة يدل على أن هناك علم هائل هو الذي صمم هذه الوظيفة المعقدة بمنتهى الدقة.

ـ يسأل الإنسان نفسه: من الذي أوجد هذه الوظائف المتداخلة المعقدة داخل جسمه؟ الإنسان لا يستطيع ذلك بل إنه لا يعرف ما الذي يحدث داخل جسمه؟، ولا يمكن أن تحدث هذه الوظائف من تلقاء نفسها، فلابد من وجود أحد لا نراه له علم هائل فوق علم الإنسان هو الذي صمم هذه الوظائف المعقدة.

ـ الكائنات الحية تعمل أشياءً أكبر من مستوى قدراتها وإمكانياتها وعلمها مما يدل على أن هناك قوة خارجية هي التي تعمل ذلك، فمثلًا

الجنين فور الولادة يتجه لثدي أمه ويرضع، فمن علمه ذلك؟ والحيوانات تقوم بأعمال تحميها من العدو، وبعض النباتات تتحور بشكل يحافظ عليها، فتقوم الكائنات بأعمال فطرية هي لا تعقلها رغم أنها أعمال في منتهى العقل والحكمة، فلابد أن هناك من علمها ذلك، وأن هناك قوة خارجية هي التي تحركها وتعلمها، والأمثلة على ذلك لا حصر لها، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(١)، والكرة الأرضية متناسبة في البعد عن الشمس بحيث لا تكون جليدًا ولا تكون منصهرة من الحرارة حتى تكون متناسبة لمعيشة الإنسان وهكذا، فكل ذلك يدل على أن كل هذه الأمور موضوعة بحكمة وبقصد وأن هناك من رتب لها ذلك، فكل شيء محسوب بحسابات في منتهى الدقة بحيث لو زادت أو قلت ذرة واحدة لاختل الأمر سواء في جسم الإنسان أو في الأجرام السماوية أو في أي شيء، فهذا يدل على وجود صانع عليم حكيم خبير.

ـ إنه لا يمكن لسمكة زينة أن تكون هي التي تختار ألوانها وبهذه الروعة والدقة الفائقة، فلابد من قوة خارقة وعلم هائل لتصميم هذا الجمال والإبداع.

٣ـ تصور قصد النفع للإنسان:

ـ عندما ينظر الانسان إلى الأشياء من حوله يجدها مصممة خصيصًا لتناسب الانسان وتكون مفيدة له، رغم أن هذه الأشياء ليس لديها معرفة بالإنسان ومعرفة بما يفيده، فيدل ذلك على أن هناك من يقصد تسخير هذه الأشياء لإفادة الإنسان تحديدًا.

ـ فمثلًا أشجار الفاكهة لمن تخرج هذه الفاكهة؟ إنه أمر مقصود

---

(١) طه:٥٠.



ليتناوله الإنسان، وهل تدري هذه الأشجار بالإنسان؟ ولماذا تقصد وتعد له هذه الفاكهة المناسبة لتكون طعاما له؟ وكيف تستطيع أصلًا أن تصنع هذه الفاكهة وهي من مادة مختلفة تمامًا عن مادة البذرة ومادة الأرض التي نبتت منها؟ إن هذه الأشجار لا يمكن أن يكون لها هذا العقل الهائل وهذه القدرة الهائلة، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت لهذه الشجرة أن تُكَوِّن هذه الفاكهة وتصنعها للإنسان، فإن الله أراد ذلك فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (١).

ـ وأيضًا البقرة لمن تخرج هذه الكمية من اللبن الزائدة عن حاجة أولادها؟ هل البقرة تعي الإنسان وتريد له ذلك؟ طبعًا لا، وهل أصلًا تستطيع البقرة وتفهم هذه المصانع المعقدة في جسمها والتي تقوم بتصنيع ذلك اللبن؟ طبعًا لا، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك، فقال تعالى: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(٢) فقال: (نسقيكم) أي هو سبحانه الذي قصد ذلك للإنسان وصنع ذلك له، فذلك يعني حب من صنع لك هذا الغذاء وقصَده لك والمهابة من عظيم قدرته على فعل ذلك ومدى هذا العلم.

٤ـ تصور عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه:

ـ عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه يدل على أن هناك قوة أعلى منه تتحكم فيه وتدل على أنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه البلاء:

(١) يس: ٣٤، ٣٥.
(٢) النحل: من الآية ٦٦.

ـ فمثلًا الحكمة من وجود الزلازل والبراكين وخسوف الشمس وإهلاك الأمم كعاد وثمود ومعجزات الرسل وغير ذلك من عجائب قدرة الله هو أن الله يظهر للناس بعضًا يسيرًا من قدرته حتى يشعروا بمدى قدرة الله فيخافوا من مهابته ويخافوا من عقابه، ففي الحديث: (خُسفت الشمس، فقام النبي ﷺ فزعًا يخشى أن تكون الساعة، فقام حتى أتى المسجد، فقام يصلي بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته يفعله في صلاته قط، ثم قال: إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده، فإذا رأيتم منها شيئًا فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)(١)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إلا تَخْوِيفًا﴾(٢)، فالله يريد أن يخاف الناس من مهابته ومن عقابه بهذه الآيات التي تظهر قدرته ولكن هناك من لا يخاف: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَانًا كبيرًا﴾(٣).

ـ الله قدَّر على الإنسان الشيخوخة والموت والإنسان لا يستطيع أن يمنع ذلك عن نفسه، والإنسان ينام رغمًا عنه ويموت رغمًا عنه ويُسْلب عندئذ السمع والبصر والحركة فمن الذي أجبره على ذلك، إذن هناك من هو أقوى منه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤)، لكن الإنسان ينام ويتغافل عن قضية النوم ويتغافل عن ما يحدث له ومن يفعل به ذلك وكأنه لا شيء رغم أنه أمر خارق للأسباب.

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: ٣، ص: ١٥٣، برقم: ١٥٠٣).
(٢) الإسراء: من الآية ٥٩.
(٣) الإسراء: من الآية ٦٠.
(٤) الزمر: ٤٢.

ـ بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدًا مات مثلًا فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون وأنهم لا يستطيعون مقاومة الموت ولا الدفاع عن أنفسهم، فالذي يستطيع أن يميتهم يستطيع أن يفعل بهم أي شيء فيخضعوا لمن يستطيع أن يتوفاهم ويعبدوه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾(١)، وكذلك بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم تعرضوا لمحنة فاكتشفوا فيها ضعف أنفسهم واحتياجهم إلى الله وقدرة الله عليهم، فمنهم من استمر شعوره بهذه المحنة التي هي آية تدل على الله فاستمرت هدايته، ومنهم من نسي هذه الآية فترك الهداية بمجرد أن مرت المحنة.

ـ فالنفس بطبيعتها متكبرة، والابتلاءات تجعل النفس تنكسر وتعترف بأنها ضعيفة فتخضع.

٥ ـ تصور الحكمة:

ـ فمثلًا خروج النبات من البذرة هو خروج حي من ميت ليكون درسًا عمليًا للإنسان على البعث، وكذلك نوم الإنسان ويقظته كل يوم تذكير له بالموت والبعث كل يوم، والنار التي تطهي الطعام تذكير له بنار الآخرة وهكذا.

ـ حتى يتحقق التصور لحقيقة الأشياء من حولنا لابد أن نتعامل مع الأشياء كأننا نراها لأول مرة:

ـ أي ينظر الإنسان إلى ما حوله من الأشياء كأنه يراها لأول مرة ويسأل: ما هذا؟ وكيف وجد؟ ومن الذي أوجده؟ ويتصور مدى قوة وعلم من صنعها، وفي كل مرة يرى الشيء يكون كأنه يراه لأول مرة ولو

(١) يونس: من الآية ١٠٤.



رآه ألف مرة وذلك لخطورة ما يرى ومدى غرابته.

ـ فكل شيء هو خارق للأسباب، والإنسان العاقل ينشغل ذهنه بالأمور الخارقة للأسباب، ولا يمكن لإنسان أن يتعود النظر على أمر خارق للأسباب من غير أن يتعجب من عظمته وعظمة صانعه، ولكن الإنسان هو الذي يتغافل عن عظمة ما يراه فينظر إلى الشمس كأنها موجودة من تلقاء نفسها وكأنه لا أحد أوجدها وكأن تصميمها بهذا الشكل وبقاءها ملايين السنين متوهجة أمر عادي، وكأن فوائدها للإنسان والمصممة بدقة متناهية لا أحد صممها أو موجودة هكذا، وهكذا في كل شيء من الماء والهواء والتراب والزروع والنجوم وكل شيء.

ـ لو جاءك ساحر فسحر لك أشياء مذهلة، هذا معناه أن الساحر له قدرة أعلى من قدرتك، ولكنك لا تريد أن تشعر بضعف قوتك أمام قوته، فتتجاهل ما قام به من السحر كأنه لم يسحر شيئًا وكأنها أمور عادية، وكل يوم يأتيك الساحر فيسحر لك أشياء مذهلة وأنت لا تبالي فقد تعودت على رؤية ما يأتي به، فتجاهلك لهذا السحر لن يغير من حقيقة الأمر شيء فقوتك ضعيفة.

ـ هذا الأمر إذا كان سحرًا فما بالك لو كان حقيقة وليس سحرًا، فأنت حولك أمور هي معجزات وهي أعجب من السحر، فخروج النبات بألوانه وثماره من تراب أسود هو أعجب من السحر وهو أمر خارق للأسباب، وكذلك كل الآيات الكونية، ولكن الإنسان تعود النظر إلى السماء والأشياء من حوله على أنها أمور عادية.

ـ كل الأشياء هي أدلة على الخالق فهي آيات الله الكونية، ولكن الناس يتعاملون مع هذه الأدلة بصورة خاطئة، فيتعاملون مع هذه الأشياء لا باعتبارها دليلًا على الخالق، ولكن باعتبارها أشياء موجودة ويستفيدون

منها، فالشمس تضيء للإنسان ولا يفكر لماذا تضيء ومن الذي جعلها تضيء؟ والزرع يخرج من الأرض ليفيد الإنسان ولا يفكر لماذا يخرج ومن الذي جعله يفيد الإنسان؟ والبترول في باطن الأرض يفيد الإنسان ولا يسأل من الذي وضعه في باطن الأرض ولماذا؟ والإنسان موجود على الأرض يسعى ويتحرك ولا يفكر من الذي أوجده ولماذا؟ وهكذا، وإذا فكر في الأمر فيفكر في ظاهر الأمر وليس في حقيقته، وكل الناس يعرفون الإجابة على هذه الأسئلة ولكنها معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية، أما إذا عقل الإنسان حقيقة الأمر فإن صورة قدرة الخالق الهائلة وعلمه الهائل لا تكاد تفارق ذهنه.

ـ فإذا تصور الإنسان ذلك شعر بضعف قوته وشعر بخضوعه لقوة الخالق الذي له كل هذه القدرة، وبالتالي فالعاقل كلما رأى شيئًا تذكر ضعف نفسه وقدرة من أوجد هذا الشيء فشعر بالخضوع لله تعالى وشعر بحب الإعجاب بقوته وخاف من مهابة قوته، وهذا هو التعامل الصحيح مع الأدلة على الخالق.

ـ الشعور بمدى الفارق الهائل بين قدرة الإنسان وقدرة الخالق:

ـ لو كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان مرتين أو ثلاثة مثلًا فربما ذلك لا يثير الانتباه كثيرًا، وإذا كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان ألف مرة، فذلك يجعل العاقل يتصور في ذهنه مدى هذه القدرة الهائلة ويشعر بالتعجب والانبهار والدهشة من هذه القدرة العجيبة، ويستمر انشغال ذهنه بهذا الأمر العجيب.

ـ ولكن قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان إلى ما لا نهاية، فإذا لم يشعر الإنسان بالتحير والتعجب من مدى هذه القدرة وإذا لم ينشغل باله بهذا الأمر العجيب ويستمر هذا الشعور بالتعظيم والتحير من مدى هذه

القدرة فهذا معناه أن الإنسان لا يعقل، وهذا تجاهل وتناسٍ وإعراض عن آيات الله ونسيان للخالق؛ لأنه لا يوجد شيء أخطر من هذا الأمر في حياة الإنسان، فكيف ينشغل الإنسان بأي شيء في أمور حياته من طعام وشراب وشهوات وأعمال ولا ينشغل بأن كل هذه الحياة موضوعة على ظهر الكرة الأرضية المعلقة في الفضاء والتي هي مجرد نقطة تافهة وسط الأجرام الهائلة والكون الهائل!.

ـ أثر تصور الآيات الكونية على المشاعر وعلى حياة الإنسان:

ـ الإنسان يكفيه أن يشعر بالإعجاز في آية واحدة من آيات الله المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومه وتفكيره وتتغير حياته كلها ولن يحتاج أكثر من آية واحدة سواء في السماء أو في الأرض أو في نفسه أو في أحوال الدنيا ومصائر السابقين أو أي شيء.

ـ إن نظرة واحدة متأملة في الكون وحقائق الأشياء قد تضع في النفس من الإيمان ما يغير حياة الإنسان كلها، مثلًا كأن ينظر إلى الكرة الأرضية وهي هباءة بين الأجرام فهنا يعرف الإنسان معرفة حقيقية بضآلة حجمه، في حين لو تعلَّم الإنسان كل علوم الدين والدنيا طوال عمره فقد لا يتكون في نفسه شيء من مشاعر الإيمان (الحب وخوف العقاب ورجاء الثواب).

ـ أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية:

ـ مثال (١):

ـ لو أن رجلًا يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات، ودخل بيته ذات مرة فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سريرًا موضوعًا في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب الكرة وينام على السرير دون أن

يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادي، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام، فهذا حال الإنسان الذي لا يعقل.

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلًا ورأى ذلك فإنه يُفاجأ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا.

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل منها الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان، والأنهار تحمل المياه العذبة له، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارًا وليلًا، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها لنفسه، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام! أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان، وكأن الماء والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾(١).

ـ مثال (٢): تصور الصلة بين الإنسان والكون!:

ـ هل تصدق أننا نعيش وسط النجوم؟!، كان الناس يظنون أن هذه النجوم الكثيرة وهذا الفضاء الواسع هو فوقنا فقط، لكن اكتشف العلماء أن هذه النجوم وهذا الفضاء حول الأرض من كل اتجاه وليس فوقنا فقط، فنحن نعيش على أرض معلقة في الفضاء، وهناك نجوم أسفل

(١) الطور: ٣٥، ٣٦.

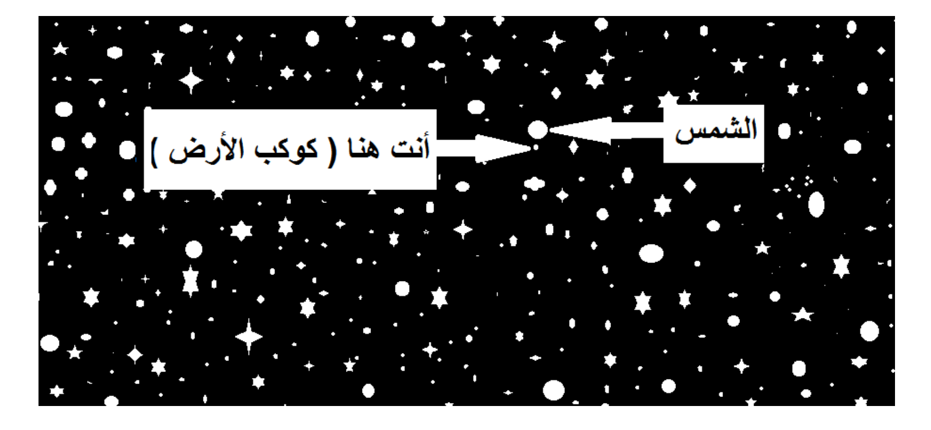
الأرض ونجوم أعلاها.

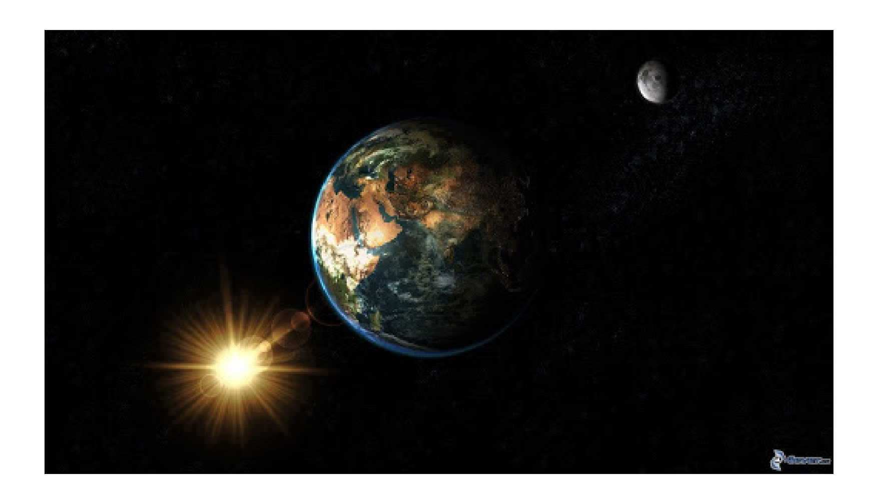
- وإذا عرَّفنا كلمة (السماء) على أنها الفضاء وما فيه من النجوم فهذا معناه أننا نعيش في السماء!، ولكي تدرك هذه الحقيقة جيدًا تحتاج إلى تصور ذهني وتخيل لمكان الكرة الأرضية بالنسبة للنجوم:

- فالكون عبارة عن فضاء تسبح فيه نجوم هائلة العدد، وكل نجم تدور حوله بعض الكواكب، ومن بين هذه النجوم والكواكب الهائلة العدد في الكون يوجد نجم اسمه الشمس وكوكب اسمه الأرض، فكوكب الأرض هو كرة معلقة في الفضاء يحيط بها النجوم من كل اتجاه، فالنجوم ليست فقط فوق الأرض ولكنها تحيط بالكرة الأرضية من كل اتجاه.

- إذن نحن نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه!

- تخيل لو أن الكرة الأرضية لم تعد معلقة في الفضاء وسقطت فأين تذهب؟ إن تحت الكرة الأرضية فضاء ونجوم!







ـ عندما صعدت سفن الفضاء في الفضاء البعيد التقطت صورة للأرض وحولها الشمس والنجوم، فكانت الأرض عبارة عن نقطة زرقاء باهتة وسط النجوم (والصورة التوضيحية تبين ذلك).

ـ إن هذه الدنيا التي نعيشها بكل ما فيها ليست إلا حياة ضئيلة جدًا موضوعة على نقطة زرقاء باهتة وسط الفضاء والنجوم، فالأرض ومن عليها من البشر مجرد جزء صغير جدًا من منظومة كبيرة جدًا هي الكون، فيتكون شعور بضعف البشر وعجزهم وشعور بمدى عظمة هذا الكون واتساعه فلا يقدر البشر على إيجاد شيء منه ولا التحكم فيه وبالتالي الشعور بمدى قدرة وعظمة خالق الكون.

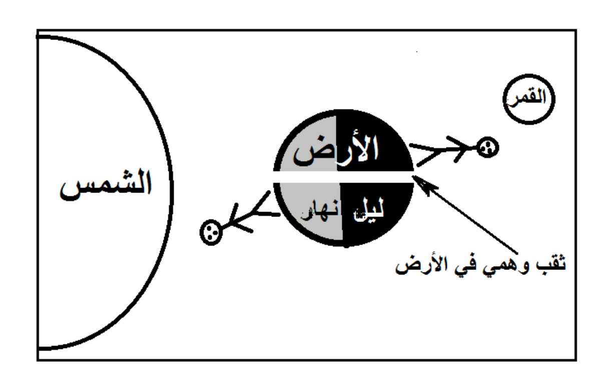
ـ أي القضيتين تشغل الذهن أكثر؟ قضية تجمع البشر جميعًا في مكان واحد هو الكرة الأرضية فلا يزيد حجم كل هذه البشرية عن نقطة تافهة في فضاء سحيق! أم القضايا والمسائل والمشاغل التي بين البشر بعضهم البعض وهموم الحياة وأعمالها؟، فما قيمة ما يحدث بين البشر وما يتشاغلون به من أعمال وهم جميعًا عبارة عن كتلة ضئيلة جدًا من النمل تتحرك في نقطة لا تكاد تراها في مشهد الفضاء والنجوم، طبعًا العاقل يشغله القضية الأولى عن أي شيء آخر من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومن العلوم والمعارف المختلفة، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ مثال (٣): الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء!:

ـ تصور وضعك مع حركة الأرض حول نفسها، وحدوث الليل والنهار، فهذا يؤدي إلى الشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، وتؤدي إلى الشعور بضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

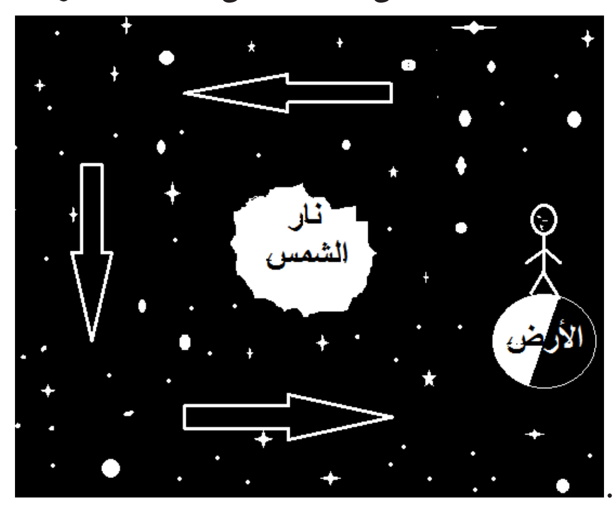
ـ تخيل لو أنك كنت بالليل وقمت بعمل ثقب في الكرة الأرضية فسيصل إليك نور الشمس!





ـ مثال (٤): نحن ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء!:

ـ هل تصدق أن هناك نارًا هائلةً جدًا معلقة في الفضاء وأننا ندور حولها مثلما يدور الفراش حول النار المشتعلة؟!، إن الشمس عبارة عن كتلة من النار هائلة مشتعلة في الفضاء ونحن الآن ندور حولها على ظهر مركبة فضائية تطير بنا في الفضاء المظلم هي الأرض في رحلة تستغرق عام كامل، ففي اللحظة التي تقرأون أنتم فيها هذه السطور تدور الأرض في مدارها حول الشمس في رحلة طولها ٩٥٠ مليون كيلو متر، نقطعها في سفر مدته سنة ثم تبدأ من جديد دون توقف، وحر الصيف وبرد الشتاء يحدث بسبب اقترابنا أو بعدنا عن نار الشمس أثناء هذه الرحلة.





ـ فنحن نسير الآن بسرعة ١٠٨ ألف كيلو متر في الساعة (٣٠ كم في الثانية)، ويمكنكم أن تعرفوا ضخامة هذه السرعة على النحو التالي: إن أقصى سرعة يمكنكم أن تصلوا إليها عند قيادة سيارة عادية هي ٢٠٠ كيلو متر في الساعة، يعني أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تبلغ ٥٤٠ مرة بحجم سرعة السيارة، ويمكن أن نفهم الأمر بشكل أوضح من خلال هذا المثال أيضًا: فسرعة الرصاصة تبلغ ١٨٠٠ كيلو متر في الساعة، وسرعة الأرض في دورانها حول الشمس تبلغ ٦٠ مرة حجم سرعة الرصاصة!، ومع سرعة الأرض الهائلة هذه تكون قوة جاذبية الشمس غاية في الأهمية، فلو أنه حصل نقص في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تضيع في الفضاء بسرعة غير عادية، وذلك يمثل نهايتها، والعكس أيضًا صحيح، بمعنى أنه لو حدثت زيادة في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تتجه نحو الشمس بسرعة هائلة وتذوب وتتبخر، وبالتأكيد فنحن أيضًا سوف نتبخر معها، ولو كانت جاذبية الأرض لما عليها من البشر والأشياء أقل مما هي عليه الآن لطاشَ كلّ شيء ولطشنا نحن أيضًا في الفضاء.

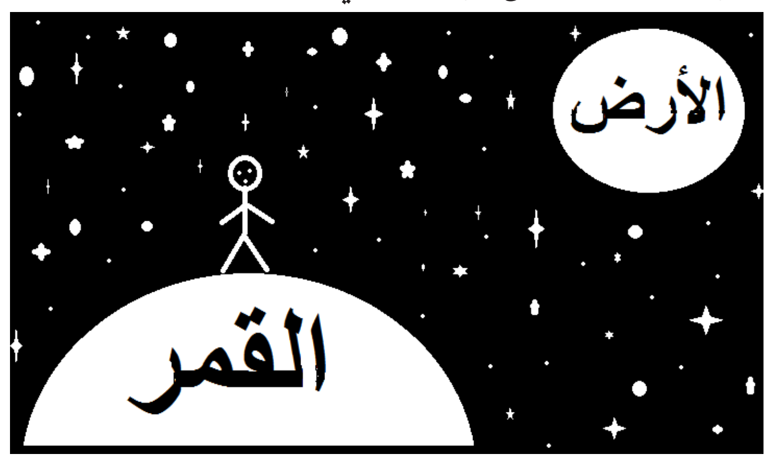
ـ فنحن الآن نطير في الفضاء حول هذه النار في دورة كل عام، وفي هذا شعور بالرهبة والخوف، والشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، والشعور بمدى ضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

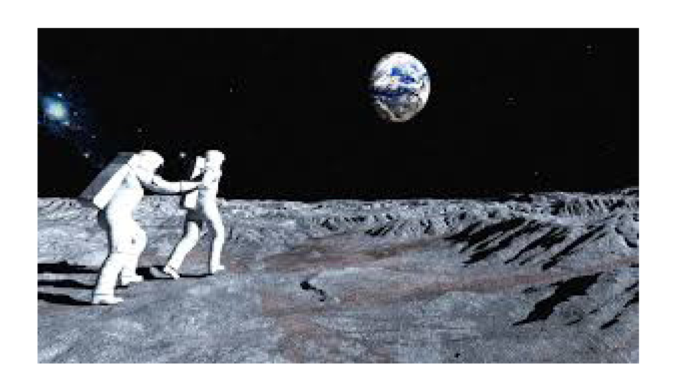
ـ هناك حدثان يحدثان في آن واحد هما أنك تتحرك الآن على كرة تطير بك في الفضاء، والحدث الثاني هو أحداث الحياة وصراعاتها ومشاغلها وهمومها وعلومها وشهواتها وما يدور من حولك من أمور في دنيا الناس والذهاب والإياب والحوارات والمشاغل، فأي الحدثين يشغل بالك أكثر؟ وهل يمكن أن تنسى هذا الحدث الأكبر أنك تسير الآن في الفضاء؟ طبعًا العاقل يشغله الأمر الأول عن الثاني، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ لا يمكن لإنسان عاقل أبدًا أن ينسى أنه يسير الآن على متن مركبة في فضاء سحيق، ومن يعقل ذلك فإنه يركع ويسجد على متن هذه المركبة لمن يحركه على هذه المركبة في فضاء الكون الهائل!

ـ مثال (٥): الأرض كرة معلقة في الفضاء!:

ـ عندما صعد العلماء إلى القمر رأوا الأرض صغيرة وكأنها القمر بالنسبة لهم، تخيل نفسك هناك على سطح القمر وتشير إلى الأرض من بعيد: هناك بيتي وأولادي وأهلي في انتظاري حتى أعود، إن الآخرة مثل ذلك، وانظر كيف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء!







ـ مثال (٦): اتساع الكون الهائل:

ـ الضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع، ومن النجوم ما يبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة، ومنها ما يسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في (٣٤٠) مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة ملايين السنين!! [سرعة الضوء (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية]: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(١).

(١) الواقعة: ٧٥، ٧٦.



ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان بمدى ضخامة حجم النجوم وعددها الهائل، فلابد أن يشعر أيضًا بعظمة المسافات بينها، فذلك يجعل الإنسان العاقل يُجن ويخر ساجدًا، فإن أرقام المسافات والأحجام هائلة ومبهرة جدًا ولا يمكن تصورها أو تخيلها: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ـ وأيضًا تأمل أن الفضاء كله ظلام، والنور موجود فقط في قشرة طفيفة على الأرض.

ـ المعرفة الحقيقية بالحقائق العلمية:

ـ إذا علم الإنسان حقائق علمية مثل اكتشاف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء أو دوران الأرض حول نفسها أو دورانها حول الشمس، وكل هذه أمور عجيبة ومذهلة وأعجب من السحر، فإذا لم يشعر الإنسان بالتعجب والتحير ويشعر بضآلة الإنسان أمام عظمة هذا الكون وأنه أشد ضآلة أمام خالق الكون فيشعر بالخضوع والاستسلام لله فهو لا يزال لا يعرف خطورة معنى هذه الأمور ويتجاهلها، فإذا كان تعامله كذلك مع كل ما يراه من آيات الله من أرض وسماء وزرع وجبال وكائنات وكذلك مع إعجاز القرآن والسنة فهو قد نسي الله تعالى.

******

(١) غافر: ٥٧.



الفصل السابع عشر

تحقيق المعرفة الحقيقية بالله من خلال التذكر

ـ الإنسان يكون قويا إذا كان يمتلك من القدرة أو المال أو الجاه أو غير ذلك من النعم، ويكون ضعيفا إذا كان لا يمتلك شيئا من ذلك، ولكن جميع الناس ضعفاء لأنهم جميعا لا يملكون شيئا، والذي لا يملك شيئا فبماذا يدعي القوة إذا؟، فجميع مظاهر القوة لله جميعا ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1].

ـ حقيقة الإنسان أنه مخلوق ضعيف من الطين لا حول له ولا قوة، ولكن ما يبدو من الإنسان عكس ذلك تماما فله قوة تتمثل في أن له إرادة وعقل ويمتلك مالا وجاها وشهوات وكل شيء في الأرض مسخر له يسير طوع أمره، فينخدع الإنسان ويظن أن هذه المظاهر من القوة تنبع من ذاته فيغتر بنفسه، ولكنها مجرد عطاء من الخالق وأمانة يستردها صاحبها ـ وهو الخالق سبحانه ـ وقتما شاء.

ـ الذي أوجد الشيء ويملكه هو قوي له أن يتعالى بما يملك، والذي لم يصنع الشيء فلا يملكه هو ضعيف عليه أن يخضع لمالك الشيء.

ـ الإنسان يظن أنه قوي بما عنده من النعم ويتعامل مع النعم كأنه هو الذي أوجدها وأنها ملكا له، وبالتالي لا يريد الخضوع لمالك هذه النعم، رغم يقينه التام بأنها نعم من الله وأن الله هو الذي أوجدها وهي ملك له.

---

(١) البقرة: من الآية ١٦٥



ـ فبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة الله والخضوع له يجعلها الإنسان سببا لرفض الخضوع لله تعالى.

ـ الخالق له صفات تختلف عن صفات البشر فقدرته لا حد لها وخارقة لكل ما يعهده البشر، فهذا أمر مدهش وعجيب ومذهل، لكن بالنسبة للغافل الجاهل هو أمر عادي لا يثير انتباهه؛ لأنه في حقيقة الأمر هو يجهل الخالق وذلك رغم يقينه التام بالخالق: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ـ الشعور بقدر ضآلة الإنسان يؤدي إلى الشعور بالخضوع لله تعالى حبا في عظمته وخوفا ورجاء، وإذا لم يشعر الإنسان بضآلته فلن يشعر بالخضوع لله تعالى.

ـ المعرفة الحقيقية بمدى عظمة صفات الله تعالى:

ـ لا يكفي أن يتصور الإنسان صفات الله، وإنما لابد أن يتصور مدى مقدار وعظمة هذه الصفات، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدًا من البشر أو شيئًا واحدًا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى، وكل هذا الكون الهائل جدًا، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوت حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد، والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة، وهكذا.

---

(١) لقمان: ٢٥.



ـ فصفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة بحيث تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمة الخالق وقدرته سبحانه، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة، ففي تاج العروس: ﴿أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّر، يُرِيدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ فِي عَظَمَةِ اللهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلْبُه إلى أَحَدٍ﴾(١).

ـ عدم وجود علامات الانتباه معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

ـ وكذلك فعدم تأثر مشاعر الإنسان معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

ـ أين الله؟:

ـ الله تعالى لا يحويه مكان ولا يحده زمان؛ لأن المكان والزمان مخلوقان.

ـ قبل خلق الكون والأشياء لم يكن شيئًا سوى الله سبحانه، فلا شيء قبله ولا شيء غيره، فلا كواكب ولا شمس ولا فضاء ولا سماء ولا بشر ولا مخلوقات ولا شيء سوى الله سبحانه، ففي الحديث: ﴿كان الله ولم يكن شيء قبله﴾(٢).

ـ من صفات الذات وصفات الأفعال:

ـ الله سبحانه له وجه وعين وساق ويد وأصابع وقَدَم، لكن أصابعه ليست كأصابع الإنسان وهكذا في كل صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٣).

(١) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (٣٦/ ٣٢٢).
(٢) التخريج: صحيح (صحيح الطحاوية ص: ١٣٩).
(٣) الشورى: ١١.



ـ والله سبحانه يسمع ويرى ويتكلم ويغضب ويفرح ويضحك ويرضى وينزل ويجيء، ونزوله ليس كنزول الإنسان، وضحكه ليس كضحك الإنسان، وهكذا في كل صفاته.

ـ حجم الكرسي والعرش:

ـ الكرسي يسع الكون كله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(١)، وفي الحديث: ﴿ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة﴾(٢)

ـ المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الخالق سبحانه:

ـ لو سمعت أن رجلًا خارقًا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو... إلخ، بماذا تشعر؟، إنك تشعر بالهيبة والرهبة، فإن الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾(٣)، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق؟، وإذا كنت تدعي أنك تشعر بالهيبة والرهبة من الله ففي الحالة الأولى كانت هناك حالة نفسية وانفعالات داخلية مميزة للشعور بالرهبة والهيبة، فهل عندك هذه الحالة النفسية أم أنه مجرد ادعاء بأن عندك الهيبة والرهبة والتعظيم لله؟!.

ـ أنت إذا قابلت ملكًا من ملوك الدنيا فإنك تشعر بالخوف والرهبة والمهابة، فإذا لم تشعر بأي شيء من هذا فأنت لا تعرف أن من قابلته هو ملك من الملوك، فهو بالنسبة لك مثل أي رجل عادي يمر بك في الطريق، هذا هو الحال مع الله الملك فأنت لا تشعر بماذا يعني أن الله هو الملك، إن الملك هو الذي بيده كل شيء وكل ما يملكه ملوك الدنيا هو أقل من

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) التخريج: صحيح (السلسلة الصحيحة ج: ١، ص: ٢٢٣، برقم: ١٠٩).
(٣) طه: ١٠٥.



ذرة من ملكه، وهو الجبار المهيمن وأنت بين يديه دائمًا يراك ولا تغيب عنه فأين هذه المشاعر؟، إذن فصفات الله وأسماؤه موجودة في اقتناعك ولا وجود لها في مشاعرك.

ـ القدرة على خلق السماوات بما فيها من مجرات لا حصر لها هي قدرة خارقة وهائلة جدًا يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١).

ـ فإذا حدث انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر والشعور بالمهابة فعندئذ قد عرف الإنسان قدرة الله معرفة حقيقية.

ـ الساحر يستطيع أن يصنع أي شيء ولكن في الخيال وليس في الحقيقة، فهو يسحر أعين الناس، أما الخالق فيستطيع أن يصنع أي شيء في الحقيقة وليس في الخيال، فقدرة الله أعظم من السحر، فيصنع أي شيء بدون أسباب أو يحول شيء إلى شيء آخر مختلف تمامًا بدون أي أسباب وبمجرد قوله كن فيكون، فهذه قدرة هائلة لا يستطيعها أي بشر.

ـ فالساحر يستطيع أن يخرج لك ناقة من الحائط ولكن غير حقيقية، والله أخرج ناقة صالح من الحائط وهي حقيقية حتى أنهم كانوا يشربون لبنها وذبحوها بأيديهم وأكلوها.

ـ وسحرة فرعون صنعوا ثعابين من الحبال ولكنها خيالية، والله صنع ثعبانًا من الحبل ولكنه حقيقي.

ـ فإذا كان السحر أمرًا عجيبًا ويورث في النفس الدهشة والانبهار والإعجاب فالقدرة الحقيقية أعجب من السحر فلماذا لا يحدث في

(١) الملك: ٣، ٤.



النفس الدهشة والإعجاب بقدرة الله تعالى؟؛ ذلك لأن المعرفة الحقيقية بقدرة الله غير موجودة.

******

ـ المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الخالق على العلم والسمع والرؤية:

ـ الله سبحانه يرى ما يحدث داخل جسمك فيرى القلب في حركته ويرى ما يحدث داخل خلايا جسمك، في حين أنت لا تستطيع أن ترى شيئا من ذلك.

ـ هل يستطيع العلم الحديث أن يرصد تحركات أحد الناس من خلال كاميرا تسير معه في ليله ونهاره طوال أيام عمره كلها؟، وهل يستطيع عمل ذلك مع كل البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة؟، وهل يستطيع أن يصنع ذاكرة بحيث يستطيع أن يحدد في اللحظة المعينة منذ ستين عامًا ماذا عمل فلان وأين سقطت ورقة الشجرة التي كانت في مكان ما؟، الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك، فالله يعلم ما يفكر فيه الإنسان في هذه اللحظة وما يدور في أذهان البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة، والله يستطيع أن يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ولا تسأل كيف؟ فهي قدرة الله سبحانه.

ـ وكذلك فالله يراك مهما كان مكانك على الأرض كأنه معك حتى لو كنت داخل الحجرات وفي الظلام ويسمعك حتى لو تكلمت في سرك كأنه معك، فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(١)، والله يسمع ويرى ويعلم كل ما يحدث وكل ما يعمله ملايين الخلائق والأشياء في آن واحد، ويعلم دَبِيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء، فهذه قدرة هائلة جدًا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ

(١) الحديد: ٤.



لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١).

ـ والأكثر من ذلك أن الله يسجل كل ما يحدث وبمنتهى الدقة: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

ـ علم الخالق بكل ما يحدث في الأرض والسماء ورؤيته وسمعه لكل شيء هي قدرة خارقة وهائلة يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا، فإذا لم ينتبه الإنسان لذلك ويشعر بالمهابة من هول هذه القدرة الهائلة فهو لا يزال جاهلًا بالله تعالى.

****

ـ المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الله على الإنسان ومراقبته له في كل لحظة:

ـ تخيل أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك بل وما تفكر فيه، ألا تشعر بالخوف والقلق، فإن الله يسمعك ويراك ويراقبك.

ـ والشعور بالمراقبة يقوي ويضعف حسب الشعور بقوة الرقيب، فلو افترضنا أن الإنسان يراقبه طفل من الأطفال، فلن يعبأ بأوامره وبكلامه ولن يوقره ويحترمه؛ لأنه طفل قوته ضعيفة رغم أنه يعلم أن الطفل يسير معه ويرقب كل ما يفعله، أما إذا افترضنا أن الإنسان يسير معه قوة مسلحة من الجيش بالدبابات من حوله والطائرات الحربية من فوقه والألغام والمتفجرات موضوعة في كل مكان يذهب فيه، فلا يمكن أن ينشغل ذهنه عن هذه الرقابة الهائلة، فقوة الله سبحانه أعظم من كل الجيوش في العالم

(١) الأنعام: ٥٩.
(٢) الجاثية: ٢٩.



مجتمعة وهي معك في كل لحظة.

ـ إن قدرة الله فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدًا لا خطورة منها ولا مشكلة فيها، فمثلًا الإنسان إذا علم أن المخابرات الأمريكية تهتم بأمره وترسل له قوة مسلحة تتخفى وترصده في كل مكان فإنه قد لا ينام عدة أيام أو قد لا ينام مطلقًا، فما بالك بقدرة الله عليك التي ترصدك في كل مكان وتعد عليك أنفاسك، فالعاقل يكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة قدرة الله لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فقدرة الله أشد في خطورتها من قدرة أي شيء مخيف يمكن أن تتصوره.

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بقدرة الله رغم أنها تحيط به لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بمدى قدرة الله ومراقبته؟!، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج!

ـ مجرد العلم بأن لنا خالقا فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين خائفين من مهابته وخائفين من عقابه، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي يتمثل في قدرة الله التي تحيط به ومراقبة الله الذي يعلم ما بداخلك وما تفكر فيه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾(١)، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بعيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾(٢).

ـ قد يسأل سائل: هل صفات الخالق تدعو للتحير والتعجب والشعور

(١) البقرة: ٢٣٥.
(٢) آل عمران: ٣٠.

بالمهابة وانشغال البال؟ والجواب: وهل هناك شيء بعد الله يدعو للتحير والتعجب والشعور بالمهابة وانشغال البال؟

ـ وفي أيسر التفاسير: ﴿﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم﴾(١)، وفي تفسير مراح لبيد: ﴿﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله وبنفوذ قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه﴾(٢)، وفي تفسير القرطبي: ﴿﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ: مَا نَظَرَتُ إلى شيء إِلَّا رَأَيْتُ اللهَ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَيَّ مِنْهُ﴾(٣).

ـ إن الإنسان عندما يشعر بقدرة الله المحيطة به فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته؛ لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة.

ـ المعرفة الحقيقية لمعنى الملك والقاهر والقهار:

ـ معنى (الملك) أي النَّافِذ الأمر فِي ملكه، فهو يقدر على غيره، وغيره لا يقدرون عليه، ولأن الله يقدر على ملوك الدنيا وأمره نافذ فيهم فهم في الحقيقة ليسوا بملوك، ففي الحديث: ﴿يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟﴾(٤).

ـ فالملك والقاهر والقهار والمهيمن والمسيطر أي الذي له السيادة المطلقة والسلطة الكاملة فهو يستطيع أن يعمل أي شيء لأي أحد، فيجازي هذا ويعاقب هذا ويأمر بأي أمر فينفذ فورًا، فله قدرات أن يفعل

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (٥/ ٢٥٩).
(٢) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد –دار الكتب العلمية– بيروت (٢/ ٤٤٦).
(٣) تفسير القرطبي –دار الكتب المصرية– القاهرة (١٧/ ٢٣١).
(٤) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٨١٢٥ في صحيح الجامع).

أي شيء ويخضع له كل شيء فلا يستطيع أحد أن يخرج عن أمره، فهو الذي يهدي وهو الذي يضل وهو الذي يشفي وهو الذي يمرض وهو الذي يعاقب ويثيب ومشيئته فوق مشيئة الإنسان: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمر الله تعالى.

ـ تصور أن هناك أحدًا ما أو شيئًا ما ذو قوة قاهرة يمكن أن يقضي عليك ويزهق روحك فبماذا تشعر عندما تتعامل معه أو يأمرك بشيء؟، إن الله هو القهار الجبار الذي سوف يزهق روحك ولن تفلت منه (فهو المميت) وهو يراك الآن ولن تستطيع أن تفلت منه أو تهرب عن نظره، فلماذا لا تجد مثل هذا الشعور؟ بل إن الله هو الذي يميتك كل يوم ويحييك فأين قدرتك وقوتك وإرادتك وأنت نائم؟!، فلماذا لا تشعر بالاستسلام لِمَنْ يقهرك ويقدر عليك كل يوم وكل لحظة؟، ولماذا لا تشعر أنك مقبل على حياة أبدية؟، فالذي يحييك كل يوم سوف يحييك يوم الدين والذي يميتك كل يوم سوف يميتك ويسلب منك كل شيء، فلماذا لا تشعر بالاستسلام والخضوع لله؟ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

ـ فالله هو القهار المسيطر، والعبد يكون مقهورا واقعا تحت سيطرته، والله يكون قادرا والعبد لا يقدر على شيء، فالذي يستطيع أن يسيطر على غيره ويقدر عليه، ويستطيع أن يعطيه أو يمنعه ويحرمه فهو قوي مسيطر والآخر ضعيف خاضع، فالله هو الملك على كل الناس وكل شيء، والمسيطر على كل الناس وكل شيء، ويستطيع أن يهلك الناس أو

(١) التكوير: ٢٩.
(٢) الزمر: ٤٢.

يعطيهم أو يمنعهم، وهذا يستلزم قدرة وعلم على عمل ذلك الأمر.

ـ إذا شعر الإنسان بالمهابة والذل فهذا معناه أنه انتبه إلى هذه الصفات وعرف معناها.

****

ـ المعرفة الحقيقية لمعنى العبادة العامة يؤدي إلى العبادة الخاصة:

ـ العبادة قسمان:

١ـ عبادة عامة: وهي الخضوع لأمر الله الكوني، وهي عامة لجميع الخلق، فكلهم عباد الله، المؤمن والكافر، والفاسق والمنافق، بمعنى أنهم تحت تصرفه وقهره، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن قبضته وسلطانه؛ فمثلا لا يستطيع أحد أن يرفع المرض أو الموت عن نفسه؟، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(١).

٢ـ عبادة خاصة: وهي الخضوع لأمر الله الشرعي، وهي خاصة بالمؤمنين كما قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا(٢)، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(٣).

ـ فمن عرف أنه خاضع لأمر الله الكوني عرف ضعفه وخضع لأمر الله الشرعي.

ـ فالخضوع الكوني (العبادة العامة) معناه أن كل المخلوقات خاضعة لله قهرا لا تستطيع الخروج عن أمر الله، ومعناه بأننا واقعون تحت سيطرة قوة قاهرة أكبر من قوى العالم، وأن كل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعًا كاملًا، فنحن وكل ما عندنا عبارة عن جزء من

---

(١) مريم: ٩٣.
(٢) الفرقان: ٦٣.
(٣) الحجر: ٤٢.



ممتلكاته سبحانه وكل أمرنا بيده، وهذا معناه الشعور بأننا ضعفاء لا نملك شيئًا ولا حتى أنفسنا، ولا نستطيع أن نجلب أي نفع لأنفسنا.

****

ـ المعرفة الحقيقية لمعنى (المالك):

ـ لو أن إنسانًا وجد مالًا في الطريق فأخذه واعتبر أن هذا المال ليس له صاحب واعتبره ملكًا له، فهذا ما يحدث مع الغافل، فالله وضع في الأرض بترول ومعادن وزروع وبهائم بقصد أنها نِعم للإنسان، والإنسان وجد هذه الأشياء وتجاهل أن هذه الأشياء لها صاحب يملكها فأخذها واعتبرها ملكًا له فاغتر بنفسه.

ـ أما العاقل فينتبه إلى أن الله هو مالكها وأنها مهداة إليه من الخالق وهذا معناه أن ملكيتها لا تزال لله رغم أنه يستفيد منها.

ـ فالمالك للشيء هو الذي صنعه وقدر على إيجاده لنفسه بقدرته، أما الذي وجد شيئًا في الطريق فهو ليس بمالك، والسعي على الرزق هو مجرد أنه يأخذ ما وضع له من رزق وليس معناه أنه هو الذي أوجده لنفسه من كده وتعبه.

ـ فالإنسان لم يصنع الزروع ولم يصنع البهائم ولم يصنع المعادن في باطن الأرض وإنما هو وجدها واكتشفها، وهي موضوعة بقصد أن تكون مفيدة للإنسان أي مسخرة له.

ـ إن هذا الكون الهائل لابد له من خالق، والذي يخلق شيئًا فإنه يملكه، إذن فهو المالك لكل شيء.

ـ وملكية الإنسان للأشياء هي مسألة مجازية فقط، فالإنسان ليس له بيت يأويه وإنما يسكن في ملك الله ويأكل من رزق الله.

ـ فكل شيء ملك لله، وهذا معناه أن عقود التمليك التي عندنا في الدنيا مجازية للتعامل بيننا في الدنيا فقط وليست عقود حقيقية، لأنه في الحقيقة لا أحد يملك شيئًا فالله هو المالك لكل شيء وإنما هي أمانة وعارية ملك لله ويستردها الله منا وقتما يشاء، لذلك فمَنْ اعتقد أنه يملك شيئًا ملكًا حقيقيًا فقد أشرك: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١)، ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾(٢)، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾(٣)، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٤).

ـ إن كل ما عندك وكل ما معك من مال ومسكن وزوجة وأولاد وكل النعم وكل شيء ملكًا لله تعالى بل أنت نفسك ملكًا لله؛ لأن الذي خلق شيئًا فهو يملكه، ولكن الإنسان يظن أن ما به من يد وعين وأنف... إلخ ملكًا له.

ـ فالمال ملك لله وليس من كدك وتعبك: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(٥) ، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٦).

ـ كل ما يعمله الإنسان من عمارات وسيارات وغير ذلك فكل ذلك مصدره مادة الأرض أو من النبات أو من الحيوان، وكل ذلك ملك لله تعالى، ففي تفسير الطبري: ﴿عن قتادة: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (٧)

---

(١) الفتح: من الآية ١٤.
(٢) يونس: ٦٦.
(٣) النمل: ٩١.
(٤) يونس: ٣١.
(٥) النور: من الآية ٣٣.
(٦) الحديد: من الآية ٧.
(٧) الصافات: ٩٦.

بأيديكم﴾ (١).

ـ والمخترعات تنشأ من تطويع مواد الأرض، وقابلية تحويل المواد من مادة إلى مادة أخرى هي من خواص أودعها الله فيها فقد سخرها الله للإنسان لتقبل التحويل إلى مادة أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾(٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

ـ أعضاء الإنسان من أنف وعين وكلية... إلخ هي ملك لله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٤).

ـ والطعام الذي تأكله ليس ملكًا لك ولم تحضره من كدك وتعبك إنما هو ملك لله وهو الذي أنعم به عليك، وكذلك الملابس التي تلبسها هي ملكًا لله وليست ملكًا لك وقد أنعم الله بها عليك، لذلك ففي الحديث: ﴿من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر﴾(٥)، وفي الحديث القدسي: ﴿يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني

(١) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج: ٢١، ص: ٧٠).
(٢) الحج: من الآية ٦٥.
(٣) الجاثية: ١٣.
(٤) يونس: ٣١.
(٥) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٦٠٨٦ في صحيح الجامع).

أكسكم﴾(١).

- الإنسان ليس صاحب النعمة ولا الذي أنعم بها على نفسه، فالإنسان قد يظن أنه هو الذي أوجد النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(٢) كالمال والمسكن والعمل والجاه والسلطان فيظن أنها ملك له وأنه مستحق لها، لذلك عند الموت لا يريد أن يترك النعم كالمال والمسكن والزوجة والأولاد والجاه والسلطان أو نعم كالعين والأنف والصحة... إلخ، ولأنه يظن أنها ملكًا له ولا يحق لأحد أن يأخذها منه وإلا كان ظالمًا فعند الموت تخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم، ويكره مَنْ يقبض روحه لأنه لا يشعر بأنها أمانة أو عارية يستردها صاحبها (وهو الله سبحانه)، ولا يشعر أنه هو نفسه ملك لله تعالى، ولذلك علمنا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول إذا توفي أحد: ﴿لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده إلى أجل﴾(٣).

- من أهم المشاعر الناشئة عن المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك هو عدم الخوف من أي ابتلاء ولو فقد كل شيء دفعة واحدة، لأن الإنسان إذا فقد شيئًا لا يخصه ولا يملكه لم يبكِ عليه، فما عنده من أمانة يأخذها صاحبها؛ لأنها تكون تحت تصرف صاحبها سواء بقيت معك أو أخذها منك، وكذلك الرضا بقضاء الله وقدره؛ لأن الإنسان وما معه هو ملك لله ومالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء.

- صعوبة الشعور بأن الله هو المالك (صعوبة الشعور بالخضوع):

- ما يملكه الإنسان من ممتلكات يمثل حياة الإنسان وراحته ويجد فيها متعه وشهواته، وبالتالي أصعب شيء على الإنسان هو أن يتجرد من

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٤٣٤٥ في صحيح الجامع).
(٢) القصص: من الآية ٧٨.
(٣) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن أبو داود ج: ٣، ص: ١٩٣، برقم ٣١٢٥).

كل ما يملك لينسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه (أي الشعور بأن الله هو المالك) كما يتجرد من كل الصفات التي يعتز بها كالقوة والإرادة والسمع والبصر لينسب كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، وأصعب شيء على النفس هو التجرد من كل الممتلكات والأهل والمال والشهوات والاعتراف بملكية هذه الأمور لصاحبها وهو الله، فيصبح عاري من كل شيء متجرد من كل شيء لا يملك شيئا ولا حتى يملك نفسه ، فيصبح ضعيفا والله هو القوي، فلا تتحقق العبادة حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من قلب الإنسان.

ـ والنفس فيها الكبر عن أن أحدا غيرها هو الذي يقوم على أمرها ورعايتها كأنها قاصرة أو عاجزة، فالنفس تريد أن يكون لها سلطة وزعامة وأن تكون هي التي تدير نفسها.

ـ فلابد أن ينسب الإنسان لنفسه كل صفات النقص والعوز والعجز والحاجة والضعف ، وينسب كل صفات الكمال لله ، وهذا معناه النقص والضعف والاحتياج إلى الله ، والنفس لا تريد أن تكون تابعة لغيرها ، تريد أن تكون مستقلة متحررة ذاتية معتمدة علي نفسها لا معتمدة علي غيرها (الله سبحانه) فلا تريد أن يكون فيها نقص أو عوز ، كما تريد أن تكون مالكة تدير نفسها وترزق نفسها، والإنسان يظن أنه غير محتاج لغيره، والنفس لا تريد أن تخضع وتركع لمن يمن عليها ولمن له قدرة عليها كما ترفض أن تعترف بعجزها أمام من هو أقوى، فالنفس تريد أن تتصرف كما لو كانت هي التي أوجدت نفسها أو أنه لا أحد أوجدها، رغم أنه في الاقتناع النظري تعلم بأن لها خالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(١).

(١) الطور: ٣٥

ـ فالنفس تأبي أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل، وأصعب شعور على النفس هو الذل فلا تريد أن تركع وتسجد.

****

ـ المعرفة الحقيقية لمعنى صفات الإنعام:

ـ هناك أشياء كثيرة مصممة ومعدة خصيصا لتكون نافعة للإنسان ومحسوبة لتلائم وتناسب احتياجاته بمنتهى الدقة، فمثلا الزروع لمن تصنع الفاكهة رغم أن الزروع لا تحتاج إليها لنفسها كما أنها لا تعرف الانسان ولا تعرف احتياجاته لتخرج له ثمرة تناسبه، فهناك من أمرها بإخراج هذه الفاكهة للإنسان، وكذلك البقرة تخرج لبنا زائدا عن حاجة أولادها فلمن تخرجه؟، وكذلك النحلة لمن تخرج العسل الزائد عن حاجتها؟، وكيف تم ضبط مقادير العناصر في جسم الانسان بحيث لو زادت أو نقصت قليلا لمات الانسان، وهذا معناه أن هناك من يهتم بحالك ويعطيك ما تحتاج إليه وبلا مقابل، فهذا أمر عجيب يدعو إلى الشعور بالمهابة والحب والشكر والامتنان لصاحب هذا العطاء، فمن شعر بهذه المشاعر هو فقط الذي قد عرف معنى كلمة (نِعم)، أما غيره فيقولون ولا يدرون ما يقولون!.

ـ أنت لا تستطيع أن تصنع البروتين أو الزروع أو البترول، وما تدفعه من ثمن لهذه الأشياء كان عليك أن تدفعه لمن صنع لك هذه الأشياء، ولكنه صنع ذلك لك مجانًا فلا يمنعك من أخذ هذه الأشياء، وما تدفعه إنما هو لمن أعد لك هذه الأشياء ونقلها لك.

ـ فالمال الذي تدفعه عندما تشتري فاكهة مثلًا ليس هو ثمن الفاكهة، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن الفاكهة، إنما هذا المال سبب وهذه الفاكهة

هي مجانية لمن يريد الله إعطاءها له، فالبائع ليس صاحبها ولا الزارع وإنما صاحبها هو الذي صنعها وهو الله سبحانه وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن نعمة العين أو الأنف أو الماء أو غيرها.

ـ وثمن البيضة يأخذها من صنعها وليس من أعدها أو جمعها، ومن صنعها ليست الدجاجة فهي ليس لها عقل يستطيع صناعتها وإنما صنعها الله تعالى، وهكذا، وإنما أنت أحضرت القمح والحبوب للدجاجة، ونفس الشيء أنت لم تصنع الحبوب ولا تعرف كيفية صناعتها ولا ما بداخلها فأنت فقط تسقي الماء، فالنِعم مجانية ومقصودة للإنسان.

ـ كل الأشياء مسخرة ومفيدة للإنسان، فكل شيء نِعم للإنسان، فالإرادة نِعمة، والعقل نِعمة، والروح التي يحيا بها نِعمة، والعين نِعمة، واللسان نِعمة، والماء نِعمة، والهواء نِعمة، والمال والزوجة والأولاد نِعمة، والبترول في باطن الأرض نِعمة، وكل شيء هو نعم من الله سبحانه.

ـ فمن عرف حقيقة النِعمة فإنه يتعامل مع النِعم على أنها ملك لله وأنها رزق للإنسان مقدر لا دخل للإنسان فيه ولا يزيد أو ينقص بسعيه أو عدم سعيه، وأنها هدية عظيمة أهديت له فيفرح بها فرحًا عظيمًا ويحب من أعطاها له، أما الغافل فإنه يتعامل مع النعم على أنه مالكها وهو الذي أتى بها بكده وسعيه، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها، أو أن غيره من البشر هو الذي أوجدها وأعطاها له، أو أن الزمان أو الدنيا أو الأسباب هي التي أوجدتها، ويتعامل مع النعم على أنها تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان -في نظره- رغم وجود اليقين التام بأن النعم ملك لله وأن الله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء، وأنه النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر، وأن الرزق مضمون ومقدر!.

ـ كل الناس يعترفون بأن كل شيء هو نعم من الله تعالى عليهم،

ولكنهم يتعاملون مع النعم على عكس ذلك تمامًا كأنهم هم الذين أوجدوها لأنفسهم ولم تأتهم من الله وكأنها ملكًا لهم وليست ملكًا لله تعالى، والملكية قوة، فيحسبون أنهم أقوياء فلا يخضعون لغير أنفسهم.

- وبدلًا من أن تكون النِعم سببًا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان كأنها ملك له وكأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له، لذلك لا يريد أن يستسلم.

- حب الله لإنعامه والذل للاحتياج لنعمائه:

- الأصل أن الإنسان محروم من كل النعم ثم أعطاه الله هذه النعم، وإذا حُرم الإنسان من كل النعم فهو ميت أو عدم؛ لأن كل شيء هو نِعم للإنسان، فالأصل أنك أعمى ثم أبصرت، فانظر كيف يشعر إنسان أعمى إذا أبصر، إنه عندئذ فقط يشعر بنعمة البصر، ويشعر بحب عميق جدًا لمن أنعم عليه بأن جعله يبصر، وهكذا في كل النعم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾(١).

- إذا لم يكن لديك شيئًا على الإطلاق من طعام أو شراب وأتاك أحد بشربة ماء فأنت حينئذ تكون ممتنًا شاكرًا، وهذا الماء بالنسبة لك هو نعيم ونعمة كبيرة؛ لأنه جاءك ولم تكن تستحقه وهو ذو قيمة كبيرة وأنت في احتياج كبير له، فلابد أن تشعر بأنك تعيش في نعيم مهما كان حالك من الفقر والمرض.

- فالنعم أمانة أو عارية يستردها صاحبها وهو الله سبحانه في أي وقت شاء، لذلك فأنت تشكر الله لما أعطاك، ولا تكرهه لما سلب منك؛ لأنه أعطاك أمانة تمتعت بها فترة من الزمن بغير استحقاق منك، فأنت تشكره لما استفدت به من هذه النعمة خلال هذه الفترة، وكذلك لا يحزن العاقل

(١) البقرة: ٢٨.



إذا فقد نعمة؛ لأنه لا يملك شيئًا أصلًا فهذا هو الأمر الطبيعي بالنسبة له.

ـ فيتحقق الشعور بأن الله هو المالك وأن له صفات الإنعام بأن يشعر الإنسان بعظمة نعم الله عليه، وبمدى احتياجه إلى هذه النعم وأنه لا تقوم حياته بغيرها وأنه غير مستحق لأي منها، وأنه لم يحصل عليها لا من كسب ولا كد ولا تعب فهذه مجرد أسباب وإنما هذه النعم هي محض تكرم وإنعام من الله العظيم إلى العبد الفقير المعدوم الذي لا يملك حتى نفسه.

ـ أنت إذا طُلِب منك أن تبيع عينك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا لا، وإذا طلب منك أن تبيع سمعك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا لا، وهكذا، إذن أنت تملك مئات الآلاف من الجنيهات، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها.

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكًا له، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئًا، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالٍ بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقًا لهذا العطاء، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له.

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق، فهذا معناه أنه لا يزال غافلًا لا يعرف معنى (الخالق).

ـ لو أن رجلًا أعطاك مالًا وبيتًا ومرتبًا شهريًا وزوجك وتكفل برعايتك وتودد إليك فلماذا لا تحبه؟ فيجب عليك أولًا أن تشعر بالتجرد والاحتياج إلى النعم وأنك لم تأتِ بالنعم من كدك أو تعبك وأنها ليست ملكًا لك وأنك في أمس الحاجة إليها، ثم تتصور أن أحدًا يعطيك هذه اللقمة التي تأكلها عن جوع واحتياج وبدون ثمن ولا مقابل فتحبه، وكذلك تصور أن أحدًا يعطيك ما تلبس وما تملك من عنده وبلا مقابل، إنك عندئذ تشعر بالحب له، أما إذا كنت تتصور أن ما عندك إنما هو من كدك وتعبك وأنه ملك لك أو أن أحدًا أعطاك حقًا لك وواجبًا عليه وهو ملك لك فلن تشعر بالحب لله.

ـ وتصور أنك تقابلت مع شخص هو الذي كان قد أنفق عليك ورعاك طوال سنوات عمرك منذ أن كنت رضيعًا وأعطاك السكن الذي تسكن فيه وكل شيء فبماذا تشعر؟ ولماذا لا تجد مثل هذا الشعور والله هو المالك لكل شيء المنعم عليك وأنت بين يديه ولا تغيب عنه طول وقتك.

ـ وتصور لو أنك ذهبت إلى مكان ما وقيل لك أن مصاريف الإقامة والطعام والشراب والملبس على حساب فلان، تصور فعلًا أن إقامتك في هذه الدنيا مدفوعة الحساب (فأنت لا تملك أن تدفع حساب شربة ماء واحدة) إذا لماذا لا تحب الله؟ ولماذا تتوكل على غير الله كأن تعتمد على نفسك؟ ولماذا يكون كل همك في إحضار الرزق؟

ـ إذا شعرت فعلًا بأن النعم من الله فإنك إذا أكلت أكلة أو شربت شربة فإنك تستشعر أن هذه الأكلة أو هذه الشربة هي ملك لله ليس لك فيها حق، ولم تستطع أن تأكل اللقمة أو تشرب الشربة إلا بعد أن أذن الله لك

بذلك، وكذلك تستشعر أن السكن الذي تسكن فيه ليس خاصًا بك وملكًا لك وإنما هو ملك لله ومحض تكرم من الله عليك، بل إن يدك وجسمك ليس ملكًا لك وإنما هو ملك لله تعالى وكونه معك فهو محض تكرم من الله عليك.

ـ المعرفة الحقيقية بضعف الانسان عند سماع كلام الخالق:

ـ إذا وقفت أمام ملك من الملوك تستمع إليه وهو يكلمك فقد ترتعد فرائصك ويقشعر بدنك ويقف شعر رأسك وانت مطأطئ الرأس، وإذا طلب منك شيئا فقد تتلعثم وترتبك في الرد وذلك من هول وعظمة المتكلم

ـ فما بالك وملك الملوك يتحدث إليك: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ﴾(1)، ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(2).

ـ وفي تفسير البحر المديد: «﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(3) خافت واقشعرت لذكره استعظامًا له وهيبة من جلاله»(4)، وفي تفسير القرطبي: (لما قرأ النبي ﷺ (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) لم يُر ضاحكًا إلا مبتسمًا حتى

---

(1) الزمر: من الآية ٢٣.
(2) الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩.
(3) الأنفال: من الآية ٢.
(4) تفسير البحر المديد -الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة (٣/ ٤).

مات ﷺ)[1].

ـ جاء في فتح القدير: «﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل... وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب»[2]، وفي تفسير القرطبي: «﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ [الأنبياء: ٢٨] والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير»[3].

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز: «﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا﴾ [المائدة: ١٠٩] واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام ﴿لا علم لنا﴾ فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي أنه قال: نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلًا آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون لا علم لنا»[4].

ـ وفي تفسير النيسابوري: «﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦] ومعنى (عميت عليهم الأنباء) أن أخبار المرسلين والمرسل إليهم صارت كالعمى عليهم جميعًا لا يهتدون إليهم فهم لا يتساءلون كما يسأل بعض الناس بعضًا في المشكلات لأنهم متساوية الأقدام في العجز عن الجواب، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتلعثمون في الجواب عن

---

(١) تفسير القرطبي –دار الكتب المصرية– القاهرة (ج: ١٧، ص: ١٢٤).
(٢) فتح القدير للشوكاني –دار ابن كثير– دمشق (ج: ٤، ص: ٤٦١).
(٣) تفسير القرطبي –دار الكتب المصرية– القاهرة (ج: ١٤، ص: ٢٩٥).
(٤) تفسير المحرر الوجيز –دار الكتب العلمية– بيروت (ج: ٢، ص: ٢٥٦).

مثل هذا السؤال كما قال سبحانه: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا﴾ فما ظنك بضلال أممهم؟!(١).

ـ المعرفة الحقيقية بصول كلام من الخالق للبشر:

ـ إذا ألقى أحد الرؤساء أو الزعماء أو القادة خطبة فإنك تجد اهتمام الناس والإعلام بكلام وتصريحات الرؤساء والزعماء وتحليل أقوالهم، وذلك لأنه طالما أن الكلام صادر عن مسئول كبير أو عن عظيم فكلامه مهم وعظيم يهتم به الناس، وإذا أهمل الناس وتجاهلوا كلام زعيم من الزعماء فهذا يعني أن ذلك الزعيم ليس ذو أهمية في نظرهم، إذن عظمة الكلام تأتي من عظمة قائلها، فالقرآن هو خطاب الله إلى البشر، فإذا كنت لا تشعر بقدر وعظمة القرآن، فإن القرآن في مشاعرك هو كلام عادي مثل كلام أي شخص عادي، وإن كان في الاقتناع هو كلام الله العظيم وهو القرآن العظيم.

ـ وجود كلام ليس من البشر هو أمر مثير، ونزول كلام من الخالق لأهل الأرض هو أمر في غاية الأهمية والإثارة، ولو علم الناس أن هناك كلامًا سوف ينزل من الخالق في وقت ما لكان العالم كله في ترقب وانتظار لمعرفة هذا الكلام، لكن كل هذا لا يثير دهشة وانتباه الإنسان الغافل الجاهل؛ لأنه غير منتبه لخطورة معنى كلام الله للبشر فهو جاهل بكلام الله رغم يقينه التام بنزول كلام الله للبشر!

ـ فتصور أننا لا نعرف الطريقة التي يصل بها كلام الله إلينا ولم يصلنا شيئًا من كلامه ثم فجأة سمعنا أن أحد الناس قال أنَّه نزل إليه ملك مرسل من عند الله وأبلغه بكلام الله وكلفه تبليغ كلامه ماذا يكون موقفك ورد فعلك؟ إنك سوف تندهش وتنبهر من هول المفاجئة وخطورة الحدث

(١) تفسير النيسابوري –دار الكتب العلمية– بيروت (ج: ٥، ص: ٣٥٥).

وستشتاق إلى معرفة ماذا يقوله ربنا وماذا يريده منا وستعيش حياتك كلها بناءً على هذا الحدث، فهذا ما كنت تنتظره وتتوقعه.

ـ لو كان القرآن الذي بين أيدينا الآن هو كلام لرجل في عالم الآخرة ينصحنا فيه ويعرفنا بما يكون من أمر الآخرة لكان له شأن عظيم، فما بالك وهو كلام الخالق وهو يخبرنا بما يكون من أمر المستقبل في الآخرة.

ـ تصور رسالة نزلت إلينا من السماء مكتوب فيها: «مِن الله تعالى إلى الناس...» مثلًا فكيف تشعر بكلام الله وكيف تتعامل مع كلام الله من العظمة؟، فإن نزول القرآن من عند الله ليس أمرًا عاديًا وإنما يدعو إلى الشعور بالانبهار والوجل والتعظيم.

ـ ولكنك تجد أن القرآن نزل على الإنسان فلم يتأثر به في حين لو نزل القرآن على جبل لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(١)، وما أكثر ما ورد عن الصحابة والتابعين عن تأثرهم بالقرآن لمجرد أنهم شعروا أنه كلام الخالق العظيم سبحانه إلى العبيد من البشر.

ـ إن الذي يحمل مصحفًا ولا ينتبه لخطورة ما يحمل وبالتالي لا يتأثر به ولا يعمل به فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]

ـ الغفلة عن نزول كلام الخالق معناه أن الإنسان يعيش كأن الله خلق الخلق وتركهم يفعلون ما شاءوا ولم يخبرهم بمراده منهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(٢).

****

(١) الحشر: من الآية ٢١.
(٢) المؤمنون: ١١٥.



الخاتمة

ـ هناك مفهوما خاطئا عن معنى الجهل بالشيء، فالكثير يحسب أن معناه عدم السماع أو عدم الفهم لهذا الشيء، ولكن هناك سبب ثالث للجهل وهو عدم الانتباه لخطورة ذلك الأمر، وهذا معناه أنك مهما سمعت عن الأمر وفهمت معناه فأنت لا تزال جاهلا به طالما أنك لا تزال لم تنتبه له، وهذا النوع من الجهل هو الغفلة.

ـ فالإنسان يكون جاهلا بالأمر إذا لم يسمع عنه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عن الأمر ولكن لم يفهم معناه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عنه وفهمه ولكن لم ينتبه لخطورته، فالجاهل بالله والآخرة هو سمع وفهم ولكن لم ينتبه، وهذا هو النوع الثالث من الجهل وهو الغفلة.

ـ معرفة البعض بوجود الخالق ووجود الآخرة ضاع منها الشرط الثالث (الانتباه) رغم أن اليقين عندهم بالله والآخرة جازما، فأصبحوا لا يدركون ولا ينتبهون لخطورة ما يقولون ويوقنون، فهؤلاء أعرضوا عن معرفة الله والآخرة.

ـ الجاهل بالأمر لعدم الانتباه هو سمع وفهم الأمر فلديه أصل المعرفة لذلك هو يحسب أنه يعرف وحقيقة أمره أنه جاهل بالأمر، لذلك قد يحسب الانسان أنه يعرف الله والآخرة وفي الحقيقة هو جاهل تماما بالله والآخرة وذلك رغم وجود اليقين التام بالله والآخرة.

ـ فالغافل عن الله والآخرة هو لا يزال جاهلا لا يعرف أن له خالقا وأن هناك آخرة رغم وجود اليقين التام وهو كالجاهل الذي لم يسمع عن وجود الله والآخرة، فلا يزال البعض جاهلا بوجود الخالق والاخرة رغم

يقينهم التام بالله والآخرة، وكل واحد منا يحسب أنه أبعد ما يكون عن هذا الجهل، والسبب أنه لا يعرف أن الغفلة هي نوع من الجهل، فهذا الكتاب هو دعوة الى تحقيق المعرفة الحقيقية بوجود الخالق والآخرة من جديد!

ـ فالغفلة عن الله والآخرة هي جهل حقيقي بوجود الخالق والاخرة وليست جهلا مجازيا وهي جهل متعمد لا عذر للإنسان فيه، والجهل معناه أن الانسان لا علاقة له بالشيء الذي يجهله فلا يؤثر في مشاعره أو انفعالاته أو حياته فلا صلة له به، وقد يكون عمله مفتعلا أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية وليس ناشئا عن تأثره بالأمر، فالجهل بالله والآخرة هو المانع من تحقيق أساس العبادة وهو الحب والخوف والرجاء وهو المانع من تحقيق أعمال العبادة الباطنة كالشعور بالخضوع والرضا والتوكل وهو المانع من تحقيق مفهوم العبادة فلا يعيش الانسان حياته على مبدأ الخضوع وهو سبب كل الشرور في المجتمع وهو السبب الذي يمنع الإنسان من الهداية، وعكس ذلك هو معرفة الله والاخرة فهي مفتاح الهداية الذي به تهتدي وتكون من أهل الجنة، وهي مفتاح السعادة الذي يجعلك تعيش سعيدًا في الدنيا والآخرة.

ـ كل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وسنوات العمر الطويلة ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، وانتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد هو أمر خطير ومثير، ورغم ذلك فالبعض لا تتأثر مشاعرهم ولا همومهم ولا أهدافهم ولا حياتهم إلا بأمور الدنيا، وذلك لأنهم لم ينتبهوا لمدى خطورة الحياة في الآخرة، فهؤلاء جاهلين بالآخرة ليس لأنهم لم يسمعوا عنها أو لأنهم لم يفهموا معناها ولكنه جهل لعدم الانتباه لخطورة الأمر.

ـ فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ لكن المشكلة أن الكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة (مع وجود اليقين) هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل جدًا أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن الإنسان إما أنه لا يزال لم يعرف الخالق والآخرة أو أنه غير موقنٍ بالخالق والآخرة.

ـ الغفلة عن الله والآخرة تؤدي إلى شعور خادع بقيمة الدنيا فيراها الانسان عظيمة القيمة رغم ضآلتها وفنائها لأنه لا يرى غيرها، وبالتالي تتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالدنيا ولا تتعلق بالله والآخرة.

ـ فلا تتحقق العبادة حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من قلب الإنسان، ولا يزول ذلك التعظيم إلا بزوال الغفلة عن الله والآخرة وتحقيق المعرفة الحقيقية، فالمانع من تحقيق العبادة هو غفلة الانسان عما يوقن به، فهو يوقن بالخالق والآخرة ونزول كلام الخالق للناس على رسله ويوقن بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك لا يحقق العبادة لأنه غافل عن خطورة ما يوقن به.

- فلكي تتحقق العبادة لابد من تغيير طبيعة تفكير الانسان بدوام التذكر والتفكر من خلال المقارنة بين صفات الخالق والمخلوق وبين حقيقة الآخرة والدنيا، وبالتالي تتغير نظرة الانسان للأشياء ويرى الأشياء على حقيقتها وبالتالي يرى عظمة الخالق وخطورة الآخرة ويرى ضعف نفسه وضآلة الدنيا وبالتالي تتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالله والآخرة ولا تتعلق بالدنيا، فتتغير أهدافه وهمومه ومشاعره ويصبح إنسانا جديدا بعقل وقلب جديدين تماما، وأصعب شيء على الانسان هو أن يغير نظرته للحياة ويغير أهدافه التي يعيش لها ويغير همومه ويغير مشاعره فيصبح يحب شيئا غير الذي كان يجب ويرجو شيئا غير الذي كان يرجو ويخاف من شيء آخر غير الذي كان يخاف ، وكل هذا يحدث اذا تحققت المعرفة الحقيقية بوجود الخالق والآخرة .

- فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر.

- نحن نعيش في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيئًا؛ فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا، والأمر خطير وعظيم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (١)، إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قصيرة وغدًا اللقاء رضيت أم لم ترضَ، شعرت بذلك أم لم تشعر، وقد سبقك الكثير إلى هناك، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل

(١) ص: ٦٧، ٦٨.



فهرس الموضوعات

المقدمة ٣

الفصل الأول: مفهوم العبادة (مفهوم الخضوع)

تصحح المفهوم الخاطئ عن معنى القوي والضعيف: ١١

الخضوع نوعين: ١٧

الخضوع في طريقة المعيشة (يعيش معيشة الخاضع): ١٨

لماذا يرفض الناس دعوة الرسل لعبادة الله تعالى؟: ١٩

معيشة الخضوع هي أمر صعب جدا على النفس: ٢٠

الخضوع بالجوارح: ٢٣

الدافع الى الطاعة: ٢٤

طاعة الأوامر تعظيما لله (حبا في عظمة الله): ٢٤

طاعة الأوامر خوفا ورجاءً: ٢٥

الخضوع باللسان: ٢٦

معنى عبارة (لا إله الا الله): ٢٦

خضوع القلب: ٢٧

الحالة النفسية المميزة للشعور بالخضوع: ٢٨

ادعاء الهدف والعبادة: ٢٨

من صور خضوع القلب: ٣٠

الرضا بالقضاء والقدر: ٣٠

الحالة النفسية للشعور بالرضا: ٣١

ادعاء الرضا بالقضاء والقدر: ٣٢

ثانيًا: التوكل (الاستعانة): ٣٣

الحالة النفسية المميزة للتوكل: ٣٥

ـ ثالثًا: الشعور بالحياء: ٣٧
أثر المعرفة بحقيقة النفس والدنيا على السعادة النفسية: ٣٨
الفصل الثاني : المفهوم الخاطئ عن معنى الجهل بالشيء ٣٩
شروط المعرفة الحقيقية: ٤٠
الفرق بين الجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه (الغافل): ٤٠
مفهوم الجهل لعدم الانتباه (الغفلة): ٤٢
الجهل بالله والجهل بالآخرة يقصد به الجهل لعدم الانتباه (الغفلة): . ٤٢
صفات الجاهل لعدم الانتباه (الغافل): ٤٢
المفهوم الخاطئ لمعنى المعرفة بالله والآخرة: ٤٣
ولماذا يحسب الإنسان أنه يعرف الله والآخرة وهو لا يعرف؟: ٤٤
مفهوم الغفلة (الجهل لعدم الانتباه ـ غياب المعرفة الحقيقية): ٤٤
الغفلة هي جهل لا يزول بالسماع والفهم: ٤٥
العلاقة بين الغفلة والعبادة: ٤٥
خطورة الغفلة: ٤٦
مفهوم الغفلة عن الله والآخرة (الجهل بالله والآخرة): ٤٨
الجهل لعدم الانتباه (الغفلة) هو جهل متعمد: ٤٨
المعرفة الحقيقية والمعرفة الكاذبة: ٤٩
الجمع بين الجهل لعدم الانتباه (الغفلة) واليقين: ٤٩
فالجهل نوعين : ٥٠
الفصل الثالث : العنصر المفقود في المعرفة الحقيقية (الانتباه)..... ٥٢
مفهوم الانتباه: ٥٣
مفهوم الانتباه إلى الشيء الخطير: ٥٣
علامات الانتباه للأمر الخطير: ٥٤

علامات الانتباه تزيد بحسب مقدار ما في الشيء من أهمية وخطر: ٥٤
مفهوم الانتباه إلى خطورة الغيبيات (علامات الانتباه للغيبيات): ٥٥
أمثلة توضح علامات الانتباه للأمر الخطير: ٥٥
علامات الانتباه لا علاقة لها بالثواب والعقاب: ٥٦
استمرارية الانتباه للأمر الخطير: ٥٨
أهمية وظيفة الانتباه:.. ٥٨
مفهوم الانتباه لمدى قدرة الخالق: ٥٩
الفصل الرابع : الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا) ٦١
مفهوم الغرور بالنعم (يرى نفسه قويا):......................... ٦٢
لماذا لا ينتبه الإنسان إلى حقيقة نفسه وحقيقة الدنيا فيراها عظيمة القيمة على عكس حقيقتها؟: ٦٤
النعم قد تؤدي إلى الهداية وقد تؤدي إلى الضلال بحسب نظرة الانسان إليها:... ٦٧
هل النعم عظيمة أم ضئيلة؟: ٦٧
التعامل مع النعم على أنها دليل على قوة الانسان: ٦٨
هناك طريقتين للتعامل مع النعم:................................ ٦٨
الفصل الخامس : كيف تؤدي المعرفة الحقيقية إلى تأثر المشاعر؟ . ٧٢
تحقيق المشاعر:... ٧٢
كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة؟: ٧٢
المعرفة الحقيقية بصفات الله تعالى تؤدي إلى تأثر المشاعر: ٧٣
أولًا: صفات الله هي صفات حميدة: ٧٤
ثانيًا: صفات الله هي صفات خارقة وغالبة: ٧٧
ثالثًا: صفات الله هي صفات مسيطرة: ٧٨

رابعًا: توحيد الصفات: ٧٨
المعرفة بتوحيد الصفات يؤدي إلى حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها: ٧٩
انتقال المشاعر: ٨١
الفصل السادس : ادعاء الحب والخوف والرجاء لله (ادعاء النية والهدف).. ٨٣
أهمية المشاعر في الإسلام: ٨٣
وظيفة الحب والخوف والرجاء: ٨٣
النية الخاصة والعامة هي الحب والخوف والرجاء كالتالي: ٨٤
النية الخاصة (الهدف من كل عمل على حدة):.................. ٨٤
النية العامة (الهدف من الحياة):.................................. ٨٥
ادعاء الإنسان بأنه يعيش لله: ٨٥
الحياة من أجل الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع: ٨٧
ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة: ٨٧
معنى حب الله تعالى: ٨٩
معنى الشعور بالرجاء: ٨٩
معنى الشعور بالخوف: ٨٩
الخوف من النار هو في حقيقته خوف من الله، ورجاء الجنة هو في حقيقته رجاء الله: ٩٠
الحالة النفسية المميزة لكل شعور من المشاعر تجاه الخالق والآخرة: ... ٩٠
الحالة النفسية المميزة للحب: ٩١
الشعور المميز للمعرفة الحقيقية باقتراب الآخرة: ٩٣
الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها: ٩٣
الفصل السابع : أثر المعرفة الحقيقية على مشاعر الانسان وحياته ٩٥
العبادة هي أثر المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين): ٩٥

مفهوم أثر المعرفة الحقيقية (مع وجود اليقين): ٩٥
ـ درجة التأثر: ٩٨
غياب أثر المعرفة الحقيقية دليل على الجهل: ٩٩
غياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة يدل على الجهل كأن الأمر تافه غير مؤثر كأنه لعب ولهو: ١٠١
الأسباب الستة لعدم التأثر بالأمر: ١٠٢
أثر المعرفة بالله والآخرة على حل مشاكل المجتمع: ١٠٣
الفصل الثامن: التذكر (التفكير السليم) ١٠٧
أنواع الغفلة من حيث قابلية العلاج: ١١٠
الغفلة نوعين هما: ١١٠
غفلة يمكن علاجها من خلال التذكر: ١١٠
غفلة لا يمكن علاجها من خلال التذكر: ١١١
مفهوم التفكير السليم (مفهوم التذكر): ١١١
الهدف من خلق السمع والبصر والعقل هو استعمالها للتذكر وبالتالي معرفة الله تعالى: ١١٤
طرق التذكر (طرق التفكير السليم): ١١٥
المقارنة وتكرار ذلك: ١١٥
التصور والوصف للآخرة كأنك تراها وكذلك قدرة الله وليس ذاته وتكرار ذلك: ١١٦
التخيل كأنك في الآخرة وتكرار ذلك: ١١٧
تصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة: ١١٨
تصور أصل القضية: ١٢٠
تصور عجز الأسباب عن تفسير الأمر: ١٢٢

الفصل التاسع :الإعراض عن التذكر (التفكير الخاطئ) ١٢٥
الهروب من الخضوع: ١٢٦
طرق الهروب من الخضوع (الاعراض عن موجبات الخضوع): ١٢٦
الإعراض عن التذكر:.. ١٢٧
الهروب من تذكر معنى الخضوع الكوني: ١٣٠
الاعراض عن التذكير (الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى التفكير في
خطورة الغيبيات): ١٣١
التلهي ١٣٣
التلهي يشمل أمرين هما: ١٣٣
شغل الهم بقضايا الدنيا على حساب تذكر الآخرة: ١٣٣
شغل الوقت والجوارح بالأعمال التي تذكر بالدنيا على حساب الاعمال التي
تذكر بالله والآخرة (الانشغال بغذاء الجسد على حساب غذاء الروح):......... ١٣٥
أثر الإعراض عن التذكر والإعراض عن التذكير على الظاهر: ١٣٦
الفصل العاشر : الانتقال من الغرور بالنعم إلى المعرفة بضآلة النعم من خلال التذكر ١٣٨
تذكر عدم الملكية للنعم: ١٣٩
تذكر المقارنة بين صفات المخلوق وصفات الخالق، والمقارنة بين
الدنيا وما بها من نعم يغتر بها الانسان والآخرة:...................... ١٤١
تذكر المقارنة بين قصر العمر في الدنيا أمام الخلود في الآخرة: ١٤٥
تذكر ضعف الإنسان في ذاته:................................. ١٤٧
الغرور بالنعم دليل على غياب المعرفة الحقيقية (الغفلة):............ ١٤٧
الفصل الحادي عشر : تحقيق المعرفة الحقيقية بالغيبيات من خلال التذكر ١٤٩
الحياة عند لحظات وقوع الخطر: ١٥٣
الفارق بين الخيال والسحر وبين الغيبيات:......................... ١٥٤

مثال يوضح حجم الخطر الهائل الواقع علينا: ١٥٤
عدم رؤية الخطر لا يمنع وقوعه: ١٥٧
المعرفة الحقيقية بوجود الملائكة والجن من حولنا: ١٥٨
الفصل الثاني عشر: المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة في الآخرة ١٦١
تصور خطورة الآخرة يكون من أربع نواحٍ هي: ١٦٣
المعرفة الحقيقية بعذاب القبر وسؤال الملَكين: ١٦٤
المعرفة الحقيقية بقدرة الله على البعث: ١٦٥
تصور خطورة الآخرة: ١٦٧
الدنيا هادئة تمامًا ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل: ١٦٨
الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة)!!: ١٦٩
الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه: ١٧١
الشعور بمدى الخطر في الآخرة: ١٧٣
الشعور بالمهابة من هول الآخرة: ١٧٥
الفصل الثالث عشر: المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة في الجنة والنار ... ١٧٨
المعرفة الحقيقية بالجنة: ١٧٩
الانتباه إلى خطورة الشهوات والآلام!: ١٨٠
شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر: ١٨٢
الشعور بوجود الجنة: ١٨٣
الشعور بالمهابة والشوق للجنة: ١٨٤
المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة داخل النار ١٩٠
الشعور بوجود النار: ١٩٠
الشعور بمدى عذاب وألم النار: ١٩١
الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار: ١٩٢
الفصل الرابع عشر: المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار سفر ١٩٤

تصور خطورة هذا السفر: ١٩٤
تذكر أن الدنيا ليست دارا للإقامة: ١٩٧
تصور خطورة الانتقال للآخرة في أي لحظة: ١٩٨
الشعور بالمهابة من خطورة السفر للآخرة ولقاء الله تعالى: ١٩٩
الشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة: ٢٠٢
الحالة النفسية للشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة (الاستعداد النفسي والتأهب والتطلع إلى الآخرة): ٢٠٣
الشعور بالمهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد: ٢٠٤
الشعور بترقب الموت (على أساس أنه انتقال للآخرة): ٢٠٥
أنواع الشعور بالمهابة من الموت: ٢٠٦
أثر المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار سفر على العمل: ٢٠٦
الفصل الخامس عشر : المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار امتحان ٢٠٩
ـ المعرفة الحقيقية بأننا نعيش الآن في حالة امتحان وانتهاؤه في أي لحظة: ... ٢١٠
الانتباه إلى خطورة أن الموت إعلان لنتيجة الامتحان: ٢١٣
الفصل السادس عشر : تحقيق المعرفة الحقيقية بالخالق من خلال التفكر . ٢١٤
كيف نتنبه إلى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية؟: ٢١٤
والتفكر في مدى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية يتم من خلال خمسة أمور هي: ٢١٥
تصور مدى قدرة الخالق: ٢١٥
تصور مدى علم الخالق: ٢١٦
تصور قصد النفع للإنسان: ٢١٧
تصور عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه: ٢١٨
تصور الحكمة: ٢٢٠
حتى يتحقق التصور لحقيقة الأشياء من حولنا لابد أن نتعامل مع

الأشياء كأننا نراها لأول مرة: ٢٢٠
أثر تصور الآيات الكونية على المشاعر وعلى حياة الإنسان: ٢٢٣
أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية: ٢٢٣
مثال (٢): تصور الصلة بين الإنسان والكون!: ٢٢٤
مثال (٣): الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء!: ٢٢٧
مثال (٤): نحن ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء!: ٢٢٨
مثال (٥): الأرض كرة معلقة في الفضاء!: ٢٣٠
مثال (٦): اتساع الكون الهائل: ٢٣١
المعرفة الحقيقية بالحقائق العلمية: ٢٣٢
الفصل السابع عشر : تحقيق المعرفة الحقيقية بالله من خلال التذكر ٢٣٣
المعرفة الحقيقية بمدى عظمة صفات الله تعالى: ٢٣٤
من صفات الذات وصفات الأفعال: ٢٣٥
حجم الكرسي والعرش: ٢٣٦
المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الخالق سبحانه: ٢٣٦
المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الخالق على العلم والسمع والرؤية: ٢٣٨
المعرفة الحقيقية بمدى قدرة الله على الإنسان ومراقبته له في كل لحظة: ٢٣٩
المعرفة الحقيقية لمعنى الملك والقاهر والقهار: ٢٤١
المعرفة الحقيقية لمعنى العبادة العامة يؤدي إلى العبادة الخاصة: ٢٤٣
العبادة قسمان: ٢٤٣
المعرفة الحقيقية لمعنى (المالك): ٢٤٤
صعوبة الشعور بأن الله هو المالك (صعوبة الشعور بالخضوع): ٢٤٧
المعرفة الحقيقية لمعنى صفات الإنعام: ٢٤٩
حب الله لإنعامه والذل للاحتياج لنعمائه: ٢٥١
المعرفة الحقيقية بضعف الانسان عند سماع كلام الخالق: ٢٥٤

المعرفة الحقيقية بصول كلام من الخالق للبشر:........................ ٢٥٦
الخاتمة.. ٢٥٨